الشيخ / بكر محمد إبراهيم

الدولة العباسية

الناشر
مركز الراية للنشر والإعلام

الكتـــــاب : الدولة العباسية

التـــــأليف : الشيخ/ بكر محمد إبراهيم

الطبعـــــة : الأولى سنة ٢٠٠٢

الناشـــــر : **مركز الراية للنشر والإعلام**

القاهرة - ٣٠ ميدان الحسين - مكتبة فكرى

تليفون : ٥٩٢٦٢١٩

رقم الإيـــداع : ٢٠٠٢/٣٠٩٨

الترقيم الدولى : ISBN: 977-5967-70-8

مقدمة

الحمد لله المتفرد بالعظمة والجلال ذى الإنعام والإكرام خلق السموات ووضع الأرض للأنام وخلق الجن والإنس والملائكة الكرام وأصلى وأسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه الكرام ، أشهد أن لا إله إلا الله العزيز الغفار.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه وحبيبه .

وبعــــد ...

فهذا الكتاب الدولة العباسية يتضمن تاريخ هذه الدولة التى حكمت العالم الإسلامى حقبة طويلة من الزمان وشهد عصرها الأول خلفاء أقوياء دانت لهم ممالك الأرض شرقاً وغرباً ، ويستعرض تاريخ وسير خلفاء هذه الدولة وما كان فى عصورهم من حروب وغزوات وفتوحات وصراعات .

ثم يستكمل تاريخ الدولة فى عصرها الثانى بعد سقوط الخلافة فى بغداد على يد التتار ثم انتقالها إلى مصر على يد الظاهر بيبرس البندقدارى وعصر الدويلات التى قامت فى العصر العباسى ومنها الدولة الطولونية والأخشيدية والفاطمية والأيوبية وتاريخ سلطانها العظيم صلاح الدين محرر بيت المقدس وتاريخ السلاطين الذين خلفوه ثم يستعرض تاريخ دولة المماليك وأهم سلاطين هذه الدولة التى حكمت العالم الإسلامى فى فترة من أخطر فترات التاريخ ثم نهاية هذه الدولة وكان آخر سلاطينهم طومان باى الذى خلف السلطان الغورى الذى هزمه الأتراك العثمانيون فى موقعة مرج دابق ثم مقاومة طومان باى لهم وهزيمته وشنقه على باب زويلة .

واستمر المماليك يحكمون مصر تحت إشراف الدولة العثمانية كامراء حتى عصر محمد على الذى دبر لهم مذبحة القلعة وأنهى عهدهم إلى غير رجعة.

وكانت الحملة الفرنسية على مصر فى أواخر عهدهم قبيل اغتيالهم على يد محمد على .

ولندع القارئ يستمتع بهذا التاريخ الحافل والذى استعرضنا فيه أقوال عديد من المؤرخين منهم المسعودى والسيوطى وغيرهم الكثير من المؤرخين .

نفع الله به وألهمنا الاستفادة من دروس التاريخ وعبره لنعيد أمجاد هذه الأمة العيظمة .

والحمد لله أولا وآخراً .

المؤلف
بكر محمد إبراهيم
رئيس أنصار السنة بالسلام
عضو اتحاد الكتاب

الدولة العباسية [1]

البيت العباسى :

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقى من عقبه كثير من أولاده، ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبى طالب، فقد ملأ بنوهما السهول والحزون من الأقاليم الإسلامية من أقصى حجر فى بلاد المغرب إلى بلاد ما وراء النهر فى أواسط آسيا.

ولكن من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الإسلامية.

العباس بن عبد المطلب :

أمه نتيلة بنت جناب بن كليب بن النمر بن قاسط إحدى قبائل ربيعة بن نزار، ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين، فهو أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين.

كان العباس من سادات بنى هاشم وعقلائهم وكان صديقا وفيا لأبى سفيان صخر ابن حرب ولما جاء الإسلام كان من المخلصين لرسول الله ﷺ وإن لم يظهر متابعته، وكان هو الذى تولى إحكام الأمر لرسول الله ﷺ مع الأنصار حين الهجرة، فقد قال لهم فى ليلة البيعة : يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ومحمد من أعز الناس فى عشيرته يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فإنها سترميكم عن قوس واحدة فارتئوا رأيكم وأتمروا

[1] الدولة العباسية للشيخ محمد الخضرى باختصار .

أمركم ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع فإن أحسن الحديث أصدقه، وأخرى صفوا لى الحرب كيف تقاتلون عدوكم ؟ قال : فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو بن خزام فقال : نحن والله أهل حرب غذينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر نرمى بالنبل حتى تفنى ثم نطاحن بالرماح حتى تكسر ثم نمشى بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منها أو من عدونا فقال العباس : أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع؟ قالوا : نعم شاملة، وقال البراء بن معرور : سمعنا ما قلت ، إنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ وتلا رسول الله ﷺ القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام وذكر الذي اجتمعوا له، فأجاب البراء ابن معرور بالإيمان والتصديق فبايعهم رسول الله ﷺ على ذلك والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول الله ﷺ يؤكد له البيعة تلك اليلة على الأنصار.

ولما خرجت قريش إلى بدر أخرج العباس وبنو أخيه إليها كرها، ولذلك قال النبى ﷺ لأصحابه يوم بدر : من لقى منكم العباس وطالبا وعقيلا ونوفل وأبا سفيان فلا تقتلوهم فإنهم أخرجوا مكرهين، وكان العباس فى جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة، وكان مقامه بها أنه كان لا يغنى عن رسول الله ﷺ خبراً يكون إلا كتب به إليه، وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون إليه وكان لهم عونا على إسلامهم، ولقد كان يطلب أن يقدم على النبى ﷺ فكتب إلى عليه والسلام إن مقامكم مقام حسن، فأقام بأمر رسول الله ﷺ وهاجر إلى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة، وكان سببا فى نجاة أبى سفيان وفى تشريفه

بقول رسول الله ﷺ " من دخل دار أبى سفيان فهو آمن" وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج إلى المدينة فأقام بها.

وكان رسول الله ﷺ يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده، وكانت وفاته فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب "سنة ٣٢" وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع.

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وبه كان يكنى وعبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة وأمهم جميعا لبابة بنت الحارث بن حزن من بنى هلال ابن عامر من قيس عيلان وفى ولد أم الفضل هؤلاء من العباس.

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد، والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب، عقب العباس من سواهم، ولاسيما من عبد الله فإنه هو الذى انتشر منه عقب العباس، وهو جد الخلفاء العباسيين.

عبد الله بن العباس :

هو ثانى ولد العباس بن عبد المطلب ولد قبل الهجرة بسنتين، فكانت سنه حين توفي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة، وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال " اللهم علمه التأويل" فكان رضى الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين على ما أوتيه من لسان طلق، ذلق، غواص على موضع الحجة، وكان عمر رضى الله عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة فى مجلس شوراه الخاص ويستفتيه في كثير من المسائل على صغر سنه، وولاه عثمان الموسم "سنة ٣٥" من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم ولما بويع على رضى الله عنه

بالخلافة كان له عضداً وبصيراً فى حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال إنه انحرف عنه أواخر أيامه وترك البصرة ورحل إلى مكة فأقام بالطائف، وقيل إن ذلك كان بعد مقتل على

ظل ابن عباس مقيما فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد إليه كثيراً كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم ، وكانت وفاته "سنة ٦٨".

وعبد الله هو الذى نما من نسله البيت العباسى. لأن إخوته لم يكن لهم نسل باق وعقب عبد الله الذى نما إنما هو من ولده على بن عبد الله بن العباس.

على بن عبد الله بن العباس :

أمه زرعة بنت مشرح بن معد يكرب من كندة، ولد ليلة قتل على بن أبى طالب " سنة ٤٠" من الهجرة، فسمى باسمه وكنى بكنيته أبى الحسن، وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيدا شريفا بليغا ويقال كان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاة، وكان مفرطا فى الطول إذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله، وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بالشراة "وهى صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء" فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده، وكانت وفاته "سنة ١١٧"

وأعقب على اثنين وعشرين ولداً ذكراً وإحدى عشرة أنثى، وذكور أولاده هم محمد وداوود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر وإسماعيل وعبد اله الأكبر وعبيد الله وعبد الملك وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الأصغر ويحيى وإسحاق ويعقوب وعبد العزيز وإسماعيل الأصغر وعبد الله الأوسط ستة منهم

لاعقب لهم والباقون أعقبوا كثيراً، ومنهم انتشر البيت العباسى وكثر جدا وبيت الخلافة فى محمد أكبر أولاده.

محمد بن على:

هو والد إبراهيم الإمام وأبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية، وهو الذى ابتدأت الدعوة على يديه، وكان ذلك فى حياة أبيه على، ولكن لم يكن لأبيه ذكر فى هذه الدعوة.

فلنشرع فى بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة إليهم وكيف تمكنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها.

كيف نشأت فكرة الخلافة فى بنى العباس

توفى رسول الله ﷺ وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده، وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على على بن أبى طالب أن يدخل على رسول الله ﷺ وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فإن كانت فيهم وإلا أوصى بهم من سيكون خليفة، فامتنع من ذلك على قائلا : إنه إن منعنا إياها لا ننالها أبداً.

توفى رسول الله ﷺ والحال كذلك، فمال الجمهور الإسلامى إلى مبايعة أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) ، وكانت هناك فئة تميل إلى أن تكون الخلافة فى بنى هاشم ، ولم يكن فيهم من أعمامه إلا العباس بن عبد المطلب وكان من بنى أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم على بن أبى طالب، وكان على يرى ذلك وكذلك كانت فاطمة (رضى الله عنها) ترى ذلك ولذلك امتنع على عن مبايعة أبى بكر مدة حياة فاطمة (رضى الله عنها).

عاش على والعباس فى عهد أبى بكر، ثم بايعا عمر لما عهد إليه أبو بكر بالخلافة إلى أن استخلف عثمان بن عفان (رضى الله عنه)، وكان على يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه فى العدول عنه.

وفى أواخر خلافة عثمان توفى العباس بن عبد المطلب تاركا عقبا كثيرا أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثانى أولاده ولم يعلم أن أحدا منهم كان يتطلع إلى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده.

بعد مضى ست سنوات من خلافة عثمان، وجدت حركة فى بعض النفوس تتجه إلى نقل الخلافة من عثمان بن عفان إلى على بن أبى طالب وقام بأمر ذلك

دعاة انتشروا فى الأمصار الإسلامية الكبرى وهى الكوفة والبصرة والفسطاط وتذرعوا إلى ذلك بالعيب في ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموا أنهم ارتكبوها، وكان من فى مصر يكتب إلى من فى المصر الآخر بما عندهكم من ذلك فيشيعونه بين الناس، فيقول الناس : أما نحن ففي عافية مما ابتلى به هؤلاء وجميعهم يكتبون إلي ناس فى المدينة بمثل ذلك حتى ملأوا البلاد طعنا، ولما وجدوا لذلك ارتياحا من بعض النفوس انتقلوا من ذلك إلى الطعن فى عثمان نفسه فنسبوا إليه أموراً منها ما هو غير صحيح ومنها ماهو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن، وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ما قصدوا إليه.

ألفت وفود غوغاء من الأمصار الثلاثة، ممن تأثر بهذه الفتن فذهبت إلي المدينة وهى حرم رسول الله ﷺ وحاضرة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة الإسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان، فأشكاهم عثمان من جميع ما شكوا منه، ولان لهم جداً حتى لا يوجد لهم سبيلا إلى الفتنة، فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل إلى أوطانهم، وسار كل وفد في الطريق التى توصله إلى مصره، وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادراً من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقابا لهم وتنكيلا، والكتاب مختوم بخاتم عثمان فلما أروه إياه حلف لهم إنه ما كتبه ولا أمر بكتابته، وهو صادق فى يمينه، فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم إياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما فى أنفسهم من الشر، وحصروا عثمان فى داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلما وعدوانا ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كر الأيام.

بعد أن تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة على على بن أبى طالب فقبلها بعد تردد، أمضى رحمه الله حياته فى حرب مخالفيه فى البصرة والنهروان وصفين، ولم تصف له الخلافة يوما واحدا إلى أن اغتاله أحد الخوارج في رمضان " سنة ٤٠" من الهجرة فى حاضرة خلافته وهى الكوفة.

كان الجمهور الإسلامى فى ذلك الوقت قد انضم إلى خصمه معاوية بن أبي سفيان حيث كان فى بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر، أما الكوفة ، فكانت مقرا لشيعة على ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لا على خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من الخلفاء أيضا ومع هذا فإنه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والإخلاص، بل كثيراً ما أهملوا أوامره التى كان يصدرها إليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام.

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم فى الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن : أبوه على بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت محمد ﷺ وقد رأى رضى الله عنه بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم، ففضل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن الخلافة مفضلا جمع كلمة المسلمين واسكن بطيبة مدينة رسول الله ﷺ ، وأقام على ذلك حتى توفى بها " سنة ٥٠" من الهجرة.

وظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاوة اليد، فاجتمعت الأمة على طاعته والرضا به، وسكنت الدعوة إلى أهل البيت وخبت نار التشيع إلا أنها كانت مستكنة فى أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب.

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد فلما تولاها هبت أعصاير الفتنة فى المدينة ومكة والكوفة فأما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الأنصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المرى الذى أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة، وأما مكة فعاذ بها عبد الله بن الزبير طالبًا الخلافة لنفسه.

وأما الكوفة، فإن من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون إليهم الحسين بن على شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد، فلم يكن من الحسين إلا أن لبى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه، وسار إليهم من غير جند يركن إليه ولا مال يستعين به، فقابلته ببعض الطريق جنود عبد الله بن زياد بالعراق عامل يزيد وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام، فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه الله بكربلاء، ولم تقم شيعة أبيه بشىء من المساعدة بل ظلوا فى مساكنهم آمنين مطمئنين.

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد وعظم أمر ابن الزبير ودخل فى دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق، وأبى أن يبايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن على المشهور بابن الحنفية وعبد الله بن عاس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم.

ظهر فى تلك الأوقات رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتنة ويجعل لنفسه مركزاً فى البلاد العراقية مستعينا بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى، فذهب إلى الكوفة لابسًا ثوب التشيع ناعيا على من قتل الحسين بن على وداعيًا إلى الإمام المهدى وهو محمد بن على الذى صار بعد أخويه أكبر أبناء على رضى الله عنه، وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقا كانت أم كذبا، وكان عقلاء أهل الكوفة

يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الاكاذيب التى تؤثر عادة في أنفس الغوغاء، وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة فى الكوفة، وأرسل إلى محمد بن على وهو مضطهد محبوس بمكة جندا يخلصونه من شدته فنجحوا، واجتمع فى حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية، لواء لابن الزبير، ولواء لبنى أمية، ولواء للخوارج، ولواء لأصحاب محمد بن على، إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التى يكره بعضها بعضاً.

لم يطل حبل المختار بالكوفة فإن عبد الله بن الزبير جهز له جيشا يقوده أخوه مصعب فسار إليه، ومالأه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته، وبذلك كانت الغلبة لمصعب، إلا أن ذلك لم يقض على التشيع فى بلاد العراق بل ظل كامنا ينتظر من يثيره لينتفع منه.

أما محمد بن على فإنه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها، ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره، حتى أنه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته.

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن على ، فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته، ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم، ويقال لهذا الفريق والذى قبله الكيسانية، ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبى عبيد.

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه قال هؤلاء : إن الخلافة محصورة فى أولاد على من فاطمة رضى الله عنها، ولما

كان الحسين هو الذى قتل دون الخلافة فهى فى عقبه، وعلى هو الذى بقى من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء، وقد يقولون : إن عليا هو الوصى أوصى إليه رسول الله ﷺ بالخلافة ثم الإمام من بعده الحسن، ثم الحسين، ثم على وهكذا لابد للأمة من إمام منصوص عليه، ويقال لهؤلاء الشيعة الإمامية.

كان أكبر ولد العباس فى ذلك الوقت على بن عبد الله بن عباس وهو الذى انتشر منه العباسيون وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التى أقامه بها بنو أمية والتى أنزله بها الوليد بن عبد الملك وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس منذ على هذا، ويقال : إن السبب فى ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن على بن أبى طالب لما حانت منيته كان مقيما بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى على هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصار الشيعة الكيسانية فى جانب على بن عبد الله بن عباس.

أما بقية الشيعة، فإنهم بعد وفاة على زين العابدين افترقت بهم الطرق : فمنهم من تولى بعده ابنه محمدا الباقر زاعمين أنه الإمام بعد أبيه، ومنهم من قال : إن الخلافة حق لكل فاطمى اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن على بن الحسين، وهم المعروفون بالشيعة الزيدية.

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بنى أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا على بن عبد الله والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيى.

وكانت وفاة على بن عبد الله ومحمد الباقر فى زمن متقارب بالحميمة

فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس لأن أباه أوصى إليه وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، ولم يفعل أنصار الأئمة شيئا ليرجعوا الخلافة إلى ذوى الحق فيها حسب رأيهم.

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم إلى النصر زيد بن على فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالبا الخلافة، إلا أن بنى أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التى أودت بحياتهم بعد، فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفأوا ثورته وقتلوه وصلبوه، وثار بعده ابنه يحيى فكانت خاتمته خاتمة أبيه.

أما محمد بن على بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم، فإنه رأى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لابد أن يسبق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل وأن كل محاولة فجائية، لابد أن تكون عاقبتها الفشل، فرأى أن يسير فى المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم، فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى ولاية أهل النبى بدون أن يسموا أحدا خوفا من بنى أمية أن يقضوا على المدعو إليه إذا عرف، ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة هى الكوفة وبلاد خراسان، أما الكوفة فهى مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين :

الأول : أن فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة، لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبى ﷺ صاحب الرسالة وسيد الأمة، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته ، ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس.

الثانى : أن البلاد الفارسية كانت ذا تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد، فكان العنصر العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئا من الولايات العامة، فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلة كى يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية.

وقد كان محمد بن على بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار : أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده أما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف، تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة، وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.

تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلى بن بعد الله بن عباس حى لم يمت بعد، لأنها ابتدأت فى أول القرن الثانى وعلى لم يمت إلا "سنة ١١٧" على قول و"سنة

١١٤" على قول ، وكان الخليفة من بنى أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء وجعل للدعوة مركزان :

أحدهما : بالكوفة التى اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى عى بن عبد الله.

والثانى : بخراسان التى هى محل الدعوة الحقيقى ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج واختير من الدعاة اثنا عشر نقيبا وهم :

١ـ سليمان بن كثير الخزاعى.

٢ـ مالك بن الهيثم الخزاعى.

٣ـ طلحة بن زريق الخزاعى.

٤ـ عمرو بن أعين الخزاعى.

٥ـ عيسى بن أعين الخزاعى.

٦ـ قحطبة بن شبيب الطائى.

٧ـ لاهز بن قريظ التميمى.

٨ـ موسى بن كعب التميمى.

٩ـ القاسم بن مجاشع التميمى.

١٠ـ أبو داود خالد بن إبراهيم الشيبانى.

١١ـ أبو على الهروى شبل بن طهمان الحنفى.

١٢ـ عمران بن إسماعيل المعيطى.

واختار سبعين رجلاً يكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء وكتب إليهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها.

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثانى إلى "سنة ١٣٢" وهى السنة التى تم فيه النجاح وبويع فيها لأبى العباس السفاح.

وهذه المدة تنقسم إلى متمايزين : الأول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينضم إلى القوة أبو مسلم الخراسانى وذلك فى الوقت الذى كانت الدولة الأموية فيه متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان، وذلك نحو "٢٧سنة" والعصر الثانى عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك.

العصر الأول

من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية، ظاهر أمرهم التجارة وباطنه الدعوة، ينتهزون الفرص ثم يبلغون أمرهم إلى القائم بالكوفة وهو يوصله إلى الحميمة أو إلى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج، وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لأمر الدعاة، لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجا، وكانت إقامة محمد بن على بالحميمة سببا آخر فى النظام المواصلات وكتم سرها.

وكان أول ما ظهر من أمرهم بخراسان "سنة ١٠٢" حيث جاء رجل من

تميم إلى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الذي يقال له سعيد خذينة وقال له : إن ها هنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح، فبعث إليهم سعيد فأتى بهم فسألهم : من أنتم ؟ قالوا : أناس من التجار ؟ قال : فما هذا الذى يحكى عنكم ؟ قالوا : لا ندرى ؟ قال : جئتم دعاة ؟ فقالوا : إن لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا ، فسأل من يعرف هؤلاء فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن، فقالوا : نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شئ تكرهه فخلى سبيلهم.

وفى "سنة ١٠٥" انضم إلى هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعاتها وكان موسرا فساعد القوم بماله، وتوفى فى ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة، فأقامه محمد بن على مقامه، فكان هو القائم بهذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون فى الطريق التى يشرعها لهم.

كان من أول النكبات التى لحقت بهم أنه وُشى بجمع من دعاتهم إلى أسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان وهو والٍ شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادى فقطع أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم، وأفلت عمار العبادى حتى أتى الكوفة فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشئوم فكتب به إلى محمد بن على فأجابه : "الحمد لله الذى صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل" وقد وقع بعد ذلك عمار العبادى فى يد أسد فألحقه بإخوانه.

وكان أسد بن عبد الله أشد ولاة خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحداً منهم وقع فى يده بل شرد بهم ونكل ونفى من نفى وقتل من قتل ولذلك لم

يكن للدعوة فى أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان "سنة ١٠٩" وتلك ولايته الأولى ثم ولى خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الأولى ففى "سنة ١١٧" أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريط وخالد بن إبراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال : يا فسقة ألم يقل الله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) ﴾ [المائدة]

فقالوا له ، فقال سليمان بن كثير : تدرى ما قصتنا صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير : إنا أناس من قومك "اليمن" وإن هذه المضرية إنما رفعوا إليك هذا أن كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم وإنما طلبوا بثأرهم.

فانظر كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية فى أحرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحيانا وقد كان ذلك الجواب سببا فى خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الأمير خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد "سنة ١٢٠" فتنفس الشيعة بخراسان بعد وفاته.

حصل بعد ذلك فى العالم الإسلامى ما كان له أعظم الفضل فى نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك :

أولا : انشقاق البيت الأموى حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح فى الوليد ونسبته إلي العظائم من الفسوق والكفر وإحلال ما حرم الله فكان معه قوم ساعدوه على ذلك .

ولما تم ليزيد أمره انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فإنه كتب إلى الغمر بن يزيد أخى الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه وقال فى ذلك الكتاب : " أما بعد ، فإن هذه الخلافة من الله على مناهج رسله وإقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها يقوم بحقها ناهض بأنصار لها من المسلمين، وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعده وأشده نكاية في مارق مخالف ناكث ناكب عن الحق، فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمر بهم الإسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامها وإن كانت القلوب عنه نافرة والمطلوبون بدم الخليفة ولأنه من بنى أمية، فإن دمه غير ضائع وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر الله لا مرد له وقد كتبت بحلك فيما أبرموا وما ترى فإنى مطرق إلي أن أرى غيرا فأسطوا بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول (المقطوع) ، وفرائضه المتروكة مجانة ومعى قوم أسكن الله طاعتى قلوبهم أهل إقدام إلا ما قدمت به عليهم لهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعا وللنقمة دولة تأتى من الله ووقت موكل ولم أشبه محمدا ولا مروان غير أن رأيت غيراً إن لم أشمر للقدرية إزارى وأضربهم بسيفى جارحا وطاعنا يرمى قضاء الله فى ذلك حيث أخذ أو يرمى فى عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما إطراقى إلا لما أنتظر مما يأتينى عنك فلا تدعن ثأرك بأخيك فإن الله جارك وكافيك وكفى بالله طالبا ونصيرا ".

وكان مروان فى ذلك الوقت أميرا للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة متمسكا بهذا الحبل حتى نالها ولم

يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق فى هذا البيت ولا شبهة أن انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقا فى قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها .

ثانيا: ظهور العصبية القومية فى خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون إلى شعبين عظيمين قحطان ونزار، وملك العرب القديم كان فى اليمن، فلما جاء الإسلام تحول إلى نزار لمكان رسول الله ﷺ منهم وكان أمر النبوة والوحى قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم فنالوا فى زمن قليل ما لم تنله أمة قبلهم فى مثل الزمن الذى ارتفع به قدرهم.

ولما طال الزمن تراجع الناس إلى شئ مما كانوا عليه فى الجاهلية بسبب أمراء السوء الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا إلى سوء مغبتها .

ظهرالانشقاق فى عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الأمير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعنى المعروف بالكرمانى وإنما عرف بذلك لأنه لد بكرمان وكان نصر والكرمانى قبل ذلك متصافيين إلا أن الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما، وكانت النزارية أيضا منشقة فربيعة فى جانب ومضر فى جانب، وكان أكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحرورى الخارج على ادلة يطلب العلم بكتاب الله وسنة رسوله، كانت هذه الفرق الثلاث متعادية.

حصلت حروب بين نصر والكرمانى وكانت القوة للكرمانى فأجلى نصر عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمنيون دور المضرية.

فى أثناء وقوع هذه الحوادث توفى محمد بن على إمام الشيعة الذي يدعون إليه أدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعلم الشيعة بذلك، فقاموا بالدعوة إلى مكان أبيه، ثم توفى بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة فأقام إبراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعرف بأبى سلمة الخلال وأصله مولى لبنى الحارث بن كعب وكان صهراً لبكير بن ماهان فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه.

واتصل بإبراهيم فى تلك الأوقات شاب من نوابغ الشبان وذوى العزيمة وهو أبو مسلم الخراسانى وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع ثم اتصل بمحمد بن على "سنة ١٢٥" ثم بابنه إبراهيم وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوة العزم، وكانت الشيعة بخراسان فى حاجة إلى مثله ليشرعوا فى العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف وما يقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار إبراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب إلى أصحابه إنى قد أمرته بأمرى فاسمعوا منه واقبلوا قوله فإنى قد أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله :

"يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتى وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم وانظر هذا الحى من مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شئ وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربياً فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ " يعنى سليمان بن كثير" ولا تعصه وإن أشكل عليك أمر فاكتف به منى".

وإنما أمره بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التى كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك ولهذا السبب أوصاه الشدة على مضر، فإنهم كانوا أصحاب الدولة ومما يدل على اعتماد بنى العباس على أهل خراسان دون العرب قول الإمام : " وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانًا عربيًا فافعل" سار أبو مسلم مزودًا بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك "سنة ١٢٨" وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور، وبعد سنة تهيأ لزيارة الإمام ومعه عدد كبير من الدعاة، ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الإمام يقول فيه :" إنى قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث ألقاك كتابى ووجه إلى قحطبة بما معك يوافنى به فى الموسم" فعاد أبو مسلم إلى مرو مستعدًا لعمل.

دور العمل :

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيذنج وهناك بث دعاته فى الناس ليجتمعوا إليه فانثال إليه الناس وكان ذلك فى رمضان "سنة ١٢٩" ولخمس بقين منه عقد الواء الذى بعث به الإمام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعا وعقد الراية الى تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو قوله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج]

ولبسوا السواد الذي جعل شعارا للدولة العباسية وقدم على أبى مسلم الدعاة من أهل مرو بمن أجاب الدعوة.

كان أول ما فعله أبو مسلم أن أمر برم حصن سفيذنج وأقام به هو ومن

معه ولما حضر عيد الفطر "سنة ١٢٩" أمر سليمان بن كثير أن يصل به وبالشيعة ونصب له منبراً فى العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوسا فى الجمعة والأعياد، وأمره أن يكبر سبع تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر فى الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانى ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه إلى طعام أعد لهم مستبشرين.

كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار يقول له : أما بعد ، فإن الله تبارك أسماؤه وتعالى ذكره عبر أقواما فى القرآن فقال :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر].

فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما أنه رأي أبا مسلم بدأ فيه بنفسه.

وكان جوابه أن وجه إلى أى مسلم مولى له اسمه يزيد فى خيل عظيمة فوجه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعى فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقى موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح فأمر أبو مسلم بمداوته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل فى دعوته وأن يرجع إلى مولاه سالما ويعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن

يقول فيهم ما رأى فاختار الرجوع إلى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه : إن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فإنا ما نحن عندهم على الإسلام.

قدم يزيد على نصر فقال له نصر : لا مرحبا بك والله ما ظننت استبقاء القوم إلا ليتخذوك حجة علينا، فقال يزيد : هو والله ما ظننت وقد استحلفونى ألا أكذب عليهم وأنا أقول : إنهم يصلون الصلاة مواقيتها بأذان وإقامة ويتلون كتاب الله ويذكرون الله كثيرا ويدعون إلى ولاية رسول الله ﷺ وما أحسب أمرهم إلا سيعلو، ولولا أنك مولاى اعتقتنى من الرق ما رجعت إليك ولأقمت معهم.

كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبى مسلم ووجدت الدعوة فى قلوبهم مكانا صالحا فضاقت عليه سفيذنج فرحل إلى الماخوان وهى قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء بن حريث ولأبى خالد بن عثمان فحصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه فى الخندق سبعة آلاف رجل.

رأى عرب خراسان أن ما بينهم من هذه الفرقة والحروب، تشد أزر عدهم كانوا ثلاث فرق وكان الكرمانى قد قتل فى إحدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه فى قيادة اليمانيين ابنه على فكتب نصر إلى شيبان الحرورى يقول له : إن شئت فكف عنى حتى أقاتله وإن شئت فاتفق معى على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود إلى أمرنا الذى كنا عليه، فهم شيبان أن يفعل، ولكن أبا مسلم كانت له عين لا تنام فأرسل إلى على بن الكرمانى يقول له : إنك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأى شيبان، وإنما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرمانى على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر إلى شيبان إنك لمغرور وايم الله ليتفاقمن هذا الأمر حتى تستصغرنى بجانبه.

وفى أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر، ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبى مسلم أرسلت إلى نصر تطلب منه الموادعة فأجاب إلى ذلك وتوادعوا سنة، بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل إلى ابن الكرمانى يهيجه بأخذ الثأر فقال : إنى ما صالحت نصرا وإنما صالحت شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبى شيبان أن يعينه، وقال : لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرمانى إلى أبى مسلم يستنصره، وهذا كل ما يريده فأرسل إليه إنى معك على نصر، فاشتد ذلك على نصر وكتب إلى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعثت إليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا القتال الذى ليست له غاية إلى الفتك بهم جميعا، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر مسلم متكلمى الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان فإن السلطان فى مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد، ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ما أمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم الذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبأه لهم الغيب.

بذلك ظفر أبو مسلم ظفرا عظيما فإنه فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان فى جمادى الأولى "سنة ١٣٠" يريد مرو وأرسل إليه ابن الكرمانى أن ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتى من قبلى، فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربى ولكن ادخل أنت فأنشب الحرب فدخل ابن الكرمانى وأنشب الحرب وأمر أبو مسلم أحد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم، دخل والقتال دائر بين الكرمانى ونصر فأمر الفريقين أن يكفا وهو يتلو : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ

أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [القصص]

ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الإمارة وهرب نصر مستخفياً.

صفت مرو لأبى مسلم وأمر أحد النقباء بأخذ البيعة على أهلها ونص البيعة : "أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طعماً حتى يبدأكم به ولاتكم وإن كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم" وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصناديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم.

أرسل بعد ذلك إلى شيبان الحرورى يدعوه إلى بيعته فأبى وسار عن مرو إلى سرخص فوجه إليه أبو مسلم جنداً، فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه، وبعد نيل هذا الانتصار عمد إلى ابنى الكرمانى على وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما وأكثر أصحابهما.

صفت خراسان كلها لأبى مسلم فبعث العمال إلى جميع الولايات وأمر أحد قواد قحطبة بن شبيب أن يتبع نصر ومعه لواء عقده له إبراهيم الإمام فسار وراءه من بلد إلى بلد حتى مرض نصر بالرى ومات بساوة فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الرى فتم للشيعة خراسان بلاد الجبل ثم سير قحطبة ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار إلى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها زور الموصل ، سار قحطبة بعد ذلك واغلا فى بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد

وكان اجتماعهما غربى الفرات على نحو " ٢٣ فرسخا" من الكوفة وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى إمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال : إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلموا الأمر إليه.

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطا وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسرى مسودا فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب إليه يعلمه فوصل الكتاب إلى ابنه الحسن فارتحل إلى الكوفة فدخلها فى المحرم "سنة ١٣٢" وسلم الأمر لأبى سلمة الخلال فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسط وضم إليه قواداً ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قنى وبعث المهلبى وشراحيل إلى عين التمر، وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة.

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام والحجاز.

افتضاح الأمر :

مضت هذه المدة كلها وليس عند بنى أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة، فإنهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد ﷺ ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة، أما العامة فمبلغ علمها أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع فى يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبى مسلم جواب كتاب لأبى مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأرسل مروان فى الحال إلى عامله

بدمشق يأمره بالكتاب إلى صاحبه بالبلقاء أن يسير إلى الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد يوجه به إليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على إبراهيم.

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها فى صفر " سنة ١٣٢" ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذى كان يعرف فى ذلك الوقت بوزير آل محمد فانزلوهم فى إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لايزال فى معسكره بحمام أعين خارج الكوفة.

ويقال : إنه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم إلى بنى على، فكاتب ثلاثة من أعيانهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر الأشرف زين العابدين، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له : اقصد أولا جعفر بن محمد، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين فإن لم يجب فالق عبد الله المحض فإن أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فالق عمر فذهب الرسول إلى جعفر ابن محمد أولا ودفع إليه كتاب أبى سلمة ، فقال : مالى ولأبى سلمة وهو صنعة لغيرى ؟ فقال له الرسول : اقرأ الكتاب، فقال جعفر لخادمه: أدن السراج منى فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق، فقال الرسول : ألا تجيبه فقال : قد رأيت الجواب ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبله وركب فى الحال إلى جعفر وقال : هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه إلى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له جعفر : ومتى صار أهل خراسان شيعتك أنت وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : كأن هذا الكلام منك لشئ فقال جعفر: قد علم الله أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمن

نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذى جاءك فانصرف عبد الله من عنده غير راض، وأما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتاب وقال : أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه، أحس بعض القواد بأمر أبي سلمة فأحبطا ما أراده وذهبوا إلى الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا وقد أبقى هذا العمل في نفس أبي العباس ما أبقى فترتب عليه ما يأتى ذكره.

خرج أبو العباس يوم الجمعة "١٣ ربيع الأول" فصلى بالناس وكان فى خطبته بعد حمد الله والثناء عليه أن افتحر بقرابته من رسول الله ﷺ ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بنى حرب وبنى مروان أثرهم وظلموهم، ثم قال : " وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله، يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن على ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح وبهذه الجملة الأخيرة لقب السفاح.

كان السفاح إذ ذاك موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داوود ابن على عمه وكان من أفصح بنى العباس فخطب خطبة جاء فيها : " إنا والله ما خرجنا فى هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم لقد كانت أموركم تمرضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم

وصدقاتكم ومغانمكم، لكم ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسير رسول الله ﷺ ثم منى الكوفة بما يحلو في أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبى ﷺ وإعادة حقوقهم وقال في آخر خطبته : " ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلي أبى العباس فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه."

بعد أن تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح إلى القصر وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد ، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل. ثم خرج أبو العباس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داوود بن على.

بعد أن بلغوا هذا المبلغ بقي عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التى بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التى معه بواسط.

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن على ليكون قائدا للجنود التى أختيرت لحرب مروان، وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق، وكانت الواقعة شديدة جداً انتهت بانتصار عبد الله وجنده فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك فى إحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة "سنة ١٣٢" ، وكان مع مروان من الجنود "١٢٠ ألفا" من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها، وانهزم مروان حتى أتى حران

وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فأقام بها نيفا وعشرين يوما، ولما دنا منه عبد الله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقيه أبان مسودا مبايعا له ودخل فى طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد الله يتبعه ثم مضى إلى حمص ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان، فلما أحس باقتراب عبد الله رحل عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضا أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل .

مر مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنها خرج إلى بوصير وهى قرية من مركز الواسطى ببنى سويف.

أما عبد الله بن على فجاءه كتاب من أبى العباس يأمره أن يوجه صالح بن على فى ملاحقة مروان فسار صالح فى ذى القعدة "سنة ١٣٢" وكان يسير على ساحل البحر والسفن حذاءه حتى وصل إلى مصر ومن هناك سار حتى أتى بوصير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذى الحجة "سنة ١٣٢" وبقتله انتهت دولة بنى أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة.

وأما يزيد بن عمير بن هبيرة فإنه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطا وتحصن بها، وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه واسطا كيلا يصير فى حصار وليس بعد الحصار إلا القتل، فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيوش فاحتدم القتال بين الفريقين

وظلوا هكذا أحد عشر شهرا، ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد وطلب من معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبى جعفر حتى جعل له أمان وكتب به كتابا ومكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبى جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بإمضائه وكان رأى أبى جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان السفاح لا يقطع أمرا دون أبى مسلم فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له : إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبى جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الأمان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه.

وبقتل ابن هبيرة انطفأ مصباح للدولة الأموية.

قامت الدولة العباسية ودخل فى حوزها هذا الملك الطويل العريض الذي وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس .

قامت هذه الدولة باسم الدين، والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو إعادة الأمر لآل محمد ﷺ ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاؤوا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا فى ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول الله ﷺ لايعرفها رجال النقد من المحدثين.

كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها.

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب حراسان بما كان بينهم من الخلاف الذى أحيته العصبية الجاهلية، وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين، وكان تأثيره قد ضعف إذ ذاك، على أن الأمراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم إذا اجتمعت الأمة.

استعمل فى الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً، فقد كان من الوصايا التى ألقيت إلى أبى مسلم : "واقتل من شككت فيه" ولا يخفى أن حزم أبى مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة فى قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه، وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبى مسلم أيضا، وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبراً فكان ستمائة ألف.

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم وفى بدء إسلامهم وفى فتوحهم، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم فى ذلك معروفة مشهورة، فلما دخل بينهم هؤلاء الأغنام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد به على بن طباطبا فى كتابه المعروف.

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بنى العباس :

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات وطولها على ما ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى المعروف بالبشارى فى كتابه الموسوم " بأحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " ٢٦٠٠ فرسخ وتمتد عرضا من شاطئ بحر قزوين إلى أواخر

بلاد النوبة وهى منقسمة إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات .

١- جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة :

الأولى : الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه طيبة وينبع الجار وجدة والطائف وغيرها .

الثانية : اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء.

الثالثة : عمان وقصبتها صحار على شاطئ بحر الهند.

الرابعة : هجر وقصبتها الأحساء .

ويتبع اليمن من النواحى : الأحقاف وبها من المدن حضرموت ، ومهرة وبها من المدن الشحر، ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر، ويتبع الحجاز وادى القرى وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام الكعبة المقدسة التى جعلها الله قياما للناس وهى قبلة المسلمين كافة فى صلاتهم - وبها طيبة وهى مهاجر رسول الله ﷺ ومبعث النور الإسلامى.

أما هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربى إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية، وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن لغتهم لغة عربية، ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليم والخوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداهما.

وبشمال هذا القسم بادية العرب وهى بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفيفة الطرق طيبة

الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء وفيها اثنا عشر طريقا توصل إلى مكة منها تسع طولاً يؤدين إى مكة وثلاث عرض يؤدين إلى الشام وبها طريق آخر لوادى القرى يؤدى إليها من البصرة إلى مصر وهذه الطرق هى :

١- طريق مصر.
٢- طريق ارمة.
٣- طريق الشراة.
٤- طريق تبوك.
٥- طريق وبير.
٦- طرق بطن السر.
٧- طريق الرحبة.
٨- طريق هبت.
٩- طريق الكوفة.
١٠- طريق القادسية.
١١- طريق واسط.
١٢- طريق وادى القرى.
١٣- طريق البصرة.

٢- إقليم العراق وبه ست كور :

الأولى : الكوفة وصبتها الكوفة، وهى من المدن الإسلامية ، وبها من المدن : القادسية وعين التمر.

الثانية : البصرة وقصبتها البصرة، وهى من المدن الإسلامية، وبها من المدن : الأبلة وعبادان.

الثالثة : واسط وقصبتها واسط، وهى من المدن الإسلامية وبها من المدن : فم الصلح.

الرابعة : المدائن وقصبتها المدائن وهى مدينة كسروية، وبها النهروان والدسكرة وجلولاء.

الخامسة: حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان.

السادسة : سامراء وقصبتها سامراء، وبها من المدن الكرخ وعكبرا والأنبار وهيت وتكريت.

وهذا الإقليم كان يسمى فى القديم إقليم بابل، وهكذا كان اسمه فى التقويم الأول عهد العباسيين، ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثراها وروافده الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا.

وأمة هذا الإقليم نبطية دخل عليها العرب فى بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم، ولذلك صارت لغة هذا الإقليم عربية وأصح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط، وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الإقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأى إقليم آخر ماعدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الأقاليم الثلاثة قبل الإسلام ، وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم، فلما جاء الإسلام اتسق لهم الملك بالإقليمين وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية.

ومساحة العراق طولا من البحر إلى السن "١٢٥ فرسخًا" وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان "٨٠ فرسخا" فإذا كسرته كان "١٠٠٠٠ فرسخ".

٣- إقليم الجزيرة :

جزيرة أقور أو أثور أو أشور، وهي ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور:

الأولى : ديار ربيعة وقصبتها الموصل، ومن مدنها : الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين ونمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر.

الثانية : ديار مضر وقصبتها الرقة، وبها من المد : باجروان وحصن مسلمة وحران وارها.

الثالثة : ديار بكر وقصبتها آمد، وبها من المدن : ميافارقين وحصن كيفا.

وقد نزل العرب قبل الإسلام بهذا الإقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كورة بأسمائهم، ولذلك يعتبر إقليماً عربياً محضاً، لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم وينتهي هذا الإقليم إلى حدود الروم وأرمينية.

٤- إقليم الشام به ست كور :

الأولى : قنسرين وقصبتها حلب، ومن مدنها أنطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش وإسكندرونة ومعرة النعمان.

الثانية : حمص وقصبتها حمص، ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية وأنطرسوس.

الثالثة : دمشق وقصبتهادمشق ، ومن مدنها بانياس وصيدا وبيروت وطرابلس.

الرابعة : الأردن وقصبتها طبرية ومن مدنها صور وعكا وبيسان وأذرعات.

الخامسة : فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية أريحا وعمان.

السادسة : الشراة وقصبتها صفد ومن مدنها مآب وعمان وتبوك وأذرح، وهذا الإقليم دخله العرب قبل الإسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الأمم القديمة.

ولما جاء الإسلام كان مهدًا عظيمًا من مهاد الحضارة العربية الإسلامية ولغةأهله عربية.

وحدود هذا الإقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التى على حدوده وحدود الجزيرة يقال لها الثغور، وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الإسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان.

وبهذا الإقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكا على بنى إسرائيل، واحتفل فى بنائه كثيرا ويعظمه جميع الأديان من موسوى وعيسوى وإسلامي.

٥- إقليم مصر : وبه سبع كور عى حسب التقويم القديم :

الأولى : الجفار وقصبتها الفرما، بها من المدن البقارة والواردة والعريش.

الثانية : الحوف وقصبتها بلبيس، وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرهما.

الثالثة : الريف وقصبتها العباسية، بها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة.

الرابعة : إسكندرية وقصبتها إسكندرية، وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الحمام.

الخامسة : مقدونيا وقصبتها الفسطاط ، ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس.

السادسة : الصعيد وقصبتها أسوان وبه من المدن قوص وإخميم والبلينا والفيوم وغيرها.

السابعة : الواحات.

وأمة هذا الإقليم كانت فى القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الأمم التى ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم، وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها، ولما جاء الإسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فاقاموا فى مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس فى عهد الدولة الأموية، وأقامت بالحوف "الشرقية" ، ثم اختلطت هذه الأمة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاف فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربى والدين الإسلامى وذلك بعد تملك الدولة العباسية.

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطا لايزالون على دينهم.

٦- إقليم المغرب وهو ثمانى كور :

الأولى : برقة وقصبتها برقة، وبها من المدن رمادة وطرابلس.

الثانية : إفريقية وقصبها القيروان، وبها من المدن أسفاقس وسوسة وتونس وبوة وجزيرة بنى زعناية - ومنستير.

الثالثة : تاهرت وقصبتها تاهر، وبها من المدن مطماطة ووهران وغيرهما.

الرابعة : سجلماسة وقصبتها سجلماسة، وبها من المدن درعة وأمصلى وتازروت.

الخامسة : فاس وقصبتها فاس ، وتسمى هذه الكورة السوس الأدنى، وأما فاس فمحدثة بعد عهد العباسيين ، ومن مدنها البصرة وورغة، وصنهاجة وهوارة وسلا.

السادسة : السوس الأقصى وقصبتها طرفانة، ومن مدنها أغمات وماسة وغيرهما.

السابعة : الأندلس وقصبتها قرطبة، وكانت لعهد بنى أمية تتبع أمير إفريقية وعليها والٍ من قبله، وهذا الإقليم كان يسكنه قبل الإسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر، إلا أنهم لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربى بها إلا بعد ذلك فى منتصف القرن الخامس، فأمة هذا الإقليم الغابة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربرى.

٧- إقليم المشرق وهو إقليم ذو جانبين :

الأول فى الشرق وهو ما كان شرقى جيحون أو أموداريا، ويسمى بما

وراء النهر أو هيطل، والثانى فى الغرب وهو ما كان غربى جيحون ويسمى خراسان.

أ ـ ما وراء النهر، قال البشارى : هذا الجانب أخصب بلاد اله تعالى وأكثرها خيرًا وفقهًا وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى ادين وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم.

وبهذا القسم ست كور :

الأولى : فرغانة وقصبتها أخسيكت، ومن مدنها : نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها.

الثانية : أسبيجاب وقصبتها أسبيجاب ، ومن مدنها فاراب وتزار وطراز وبلاسكون وغيرها.

الثالثة : الشاش وقصبتها بكث، ومن مدنها نكث وغيرها.

الرابعة : أشروسنة وقصبتها بنجكث.

الخامسة : اصغد وقصبتها سمرقند وهى مصر الإقليم.

السادسة : بخارى وقصبتها بخارى ، من مدنها بيكند.

وهذا الإقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة، ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن، فالكور هى الختل وقصبتها هلبك، ثم قاديان ومدينتها نير، ثم خوارزم وهى على حافتى جيحون، قصبتها العظمى شرقى النهر وهى كاث ، ولها قصبة أخرى غربية وهى الجرجانية وعلى النهر من المد ترمذ وكالف ونويدة زم وفرير وآمل.

بـ خراسان وبها تسع كور :

الأولى : بلخ قصبتها بلخ ، وبها ناحية طخارستان ومن مدنها ولالج والطالقان.

الثانية : غزنين وقصبتها غزنين وبها من المدن كابل.

الثالثة : بست وقصبتها بست ، وبعض الناس يجمع غزنين إلى بست ويجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان.

الرابعة : سجستان وقصبتها زرنج.

الخامسة : هراة وقصبتها هراة ، ومن مدنها باذغيس.

السادسة : جوزجانا وقصبتها اليهودية.

السابعة : مرو الشاهجان وهى القصبة، وبها ناحية مرو الروذ.

الثامنة : نيسابر والقصبة إيرانشهر، وبها من امدن بيهق وطوس ونساوأبيورد.

التاسعة : قهستان وقصبتها قاين.

وهذا الإقليم من أعمر الأقاليم الإسلامية، وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم، أما أهل ماوراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الإسلام قد شملهم لأول عهد العباسيين، وقد دخل العرب هذا الإقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا فى عهد الدولة الأموية وقد كثرت فتحهم فيما وراء النهر فى عهد قتيبة بن مسلم الباهلى العامل من قبل الحجاج، ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الإقليم وما يأتى بعد من

الأقاليم الفارسية، ولكن الدين الإسلامى شملهم فصار منهم أمة إسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الدينى ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء فى العلوم كافة.

قال البشارى فى أحسن التقاسيم : وألسنتهم مختلفة، أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة وجاج، وأهل طوس ونسا أحسن لسانا، وفى كلام سجستان حامل وخصومة يخرجونه من صدورهم يجهرون فيه، ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المرين غير أن فيه تحاملا وطولا ومدًا فى أواخر الكلم، ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح، ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملونًا بالقوة إلى آخر ما قال

٨- إقليم الديلم به خمس كور :

الأولى : قومس وقصبتها الدامغان، ومن مدنها سمتان وبسطام.

الثانية : جرجان وقصبتها شهرسان ومن مدنها أستراباذ وآبسكو.

الثالثة : طبرستان وقصبتها آمل وم مدنها سالوس وسارية.

الرابعة : الديلمان وقصبتها بروان.

الخامسة : الخزر وقصبتها أتل ، ومن مدنها بلغار وسمندر، وبهذه الكورة نهر أتل ، وهذا الإقليم لم يفش الإسلام به إلا فى عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيرا باللغة العربية.

٩- إقليم الرحاب وهو ثلاث كور :

الأولى : أران وقصبتها برذعة، ومن مدنها تفيس وشروان وباب الأبواب وملازكرد.

الثانية : أرمينية وقصبتها أردبيل ، ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا.

الثالثة : أذربيجان وقصبتها أردبيل ، ومن مدنها تبريز.

وهذا الإقليم به كثير من الأجناس والألسنة فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم ويخترقه نهر الكرد وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الإسلام بهذه البلاد إلا فى عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة.

١٠- إقليم الجبال وبه ثلاث كور :

الأولى : الرى وقصبتها الرى ، وبها من المدن آواة وساة وقزوين وأبهر.

الثانية : همذان وهى القصبة ومصر الإقليم.

الثالثة : أصفهان وقصبتها اليهودية.

١١- إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهى :

الأولى : السوس وهى تتاخم العراق والجبال.

الثانى : جنديسابور وهى القصبة وكانت مصر الإقليم.

الثالثة : تستر وهى القصبة وليس بالإقليم أجل منها .

الرابعة : عسكر مكرم وهى القصبة، وبها من المدن جويك وزيدان وسوق الثلاثاء.

الخامسة : الأهواز وبها من المدن تيرى ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى.

السادسة : الدورق كورة تتاخم العراق، من مدنها آزر وأجم وغيرهما وقصبتها الدورق.

السابعة : رامهر مزكورة تتاخم فارس وهى القصبة.

ولهذا الإقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزى .

٢ ١- إقيم فارس وبه ست كور :

الأولى : أرجان وهى القصبة.

الثانية : أردشير خرة وقصبتها سيراف ، وهى ممتدة على البحر.

الثالثة : درايجرد وهى القصبة ، وكانت فى القدم مصر الإقليم.

الرابعة : شيراز قصبتها على اسمها، وهى مصر الإقليم وبها من المدن البيضاء وفسا .

الخامسة : سابور وقصبتها شهرسان ومن مدنها كازرون والنويندجان وتوز.

السادسة : أصطخر وهى أوسع الكور وقصبتها على اسمها .

وبهذا الإقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها .

٣ ١- إقليم كرمان وبه خمس كور :

الأولى : بردسير وقصبتها على اسمها، ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند.

الثانية : نرماسير وهى اقصبة.

الثالثة : السيرجان وقصبتها على اسمها، وهى مصر الإقيم.

الرابعة : بم وهى تتاخم فارس.

الخامسة : جيرفت وهى على البحر.

٤ ١- إقليم اسند وبه خمس كور :

الأولى : مكران وقصبتها بنجبور.

الثانية : طوران وقصبتها قصدار.

الثالثة : السند قصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل.

الرابعة : يهند والقصبة باسمها.

الخامسة : قنوج وهى اقصبة.

وبهذا الإقليم نهر مهران وهو يشبه النيل فى الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح.

فهذه أربعة عشر إقليما منها ستة عربية وثمانية أعجمية، والمراد بكونها عربية، تغلب اللسان العربى على أهلها وإلا فأصل أقليم العرب هو جزيرتهم فحسب.

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منها جميعها الخراج إلى حضارة الدولة حيث يحمل منها ما بقى عن مصروفها وذلك شئ عظيم.

هذا هو الملك الطويل العريض الذى ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان، وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الأقاليم .

ففى بعض أيام بنى أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوالٍ واحد كما كان الحجاج ابن يوسف، فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحو، وله ولاة من قبله على الأقاليم أو الكور التى تحت يده وفى بعض الأحيان كانت تضم إفريقية كلها إلى والى مصر ويرسل من قبله واليا على إفريقية.

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوالٍ واحد بل كان للحجاز والٍ ولليمن والٍ، أما اليمامة وعمان فربما أضيفتا إلى والى العراق، كما كان الحجاج بن يوسف.

ولاية العهد والبيعة :

الأصل فى انتخاب الخليفة رضا الأمة، فمن ذلك يستمد قوته، هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم، لا إسناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة ﷺ ، وبعد أن انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضا الله سبحانه كما أنه عاهدهم على العمل فيهم بأحكام الدين من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيعة تشبيهاً له بفعل البائع والمشترى، فإنهما كانا يتصافحان بالأيدى عند إجراء عقد البيع.

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم ما يوجبه الدين وتحتمه الشريعة.

وقد سن أبو بكر رضى الله عنه طريقة أخرى فى انتخاب الخليفة، وهى أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة، وقد وافق الجمهور الإسلامى على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد.

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له ، وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط.

اتبع بنو العباس فى ولاية العهد الأسلوب الذى سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والإخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة، ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على

أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتي :

ولى السفاح عهده رجلين يلى أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على . فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدى عز عيه أن يلى بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فسام عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدى فأظهر عيسى إباء فسامه خطة لا يرضى بها إلا الذليل.

ويقال إن أبا جعفر سقاه شرابًا ليتلفه فكاد يموت منه، ولكنه برئ من علته.

ثم أجاب عيسى إلى طالب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى فى الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور.

لما ولى المهدى وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولى المهدى العهد ولده، فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع مارآه المهدى من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادى فهارون الرشيد.

جاء الهادى فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لأن الدفاع عن الرشيد كان قويا وقربت منية الهادى ، فأخرت النتائج السيئة ويقال إنه مات مسموماً. وأن الذى سمته هى أمه لأنه نحاها عن التدخل

فى شئون الحكم ومقابلة أصحاب الحاجات .

ولى الرشيد ففكر فى ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه إلى أخيه محمد الأمين، لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جليبة من بلاد فارس، وكان ذلك العقد "سنة ١٧٣" وسن الأمين لا تتجاوز ثلاث سنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولى العهد بعد الأمين وذلك برأى جعفر بن يحيى البرمكى وسعيه فعقد له " سة ١٨٣" ثم طلب عبد الملك بن صالح بن على من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى إلى همدان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم، فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر.

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه، والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين فى البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليها بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام وتقدم إلى الحجبة فى حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما، وقرئ الكتابان فى داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون.

وقد أكد الأمر فى العهدين تأكيداً بلغ الغاية من التشديد، ولكن طبيعة الملك غلابة، ما عتم الأمين أن استخلف حتى حاك فى صدره ماحاك فى صدر أسلافه وهو تقديم ابنه فى ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده بخراسان فأباه طبعاً، لأن من ورائه قوة تدفع عنه وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التى كانت بين جند الأمين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصراً شنيعاً وانتهى الأمر بخلع الأمين ثم قتله، وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة فى أكثر البلدان الإسلامية ولو كانت لخصومهم من آل على قوة منظمة لنجحوا وثلا عرش ملك العباسيين.

لم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق.

جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله، وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأقطع أكبرهم المنتصر إفريقية والمغرب كله والعاصم الثغور جميعاً الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسند ومكران، وأقطع ثانيهما خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وكور فارس، وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين.

حذا هذا الرجل حذو جده مع ما رأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم فى أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الإخوة من ولاية العهد فتمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه، وتولى

المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته ، فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة، وأما المعتز فأبى وقال : إن أردتم القتل فشأنكم، ثم أجاب بعد تهديد ووعيد وأشهد كلا الأخوين على نفسه بالخلع القضاة وبنى هاشم القواد ووجوه الناس ؛ هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلى العهد . وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد.

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالى عن أولاد المتوكل خوفاً أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم.

اختل نظام الخلافة ببغداد فى ذلك الوقت إذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاؤوا وبعد زمن يخلعونه ثم يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد ابن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد إلى أبنه المكتفى ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل فى الخلفاء حتى جاءت دولة بنى بويه، وفى عهدهم لم يكن للخلفاء إلا الاسم، والتوية والعزل لبنى بيه وجميع الخلفاء الذين ولوا فى عهدهم خلعوا إلا أحمد القادر بالله فإنه طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم.

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولاكو خان حفيد جنكيز خان موحد التتر وقتل المستعصم "سنة٦٥٦".

وخلاصة القول أن ولاية العهد فى النصف الأول من خلافة بنى العباس

كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد، فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانا عليه من العلم والعرفان. أما البيعة فكانت فى الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ثم زيدت عليه إيمان فى أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيراً فى أوائل عهد الدولة العباسية ، ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا فى البيت الحرام، وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية.

أولاهما : طلاق المكره، لأنه لا يخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق. من رأى فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سببا لإهانات شديدة أصابته فى عهد المنصور ثانى خلفاء العباسيين، وقد تغلب بسبب ذلك رأى فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع.

الثانية : إضافة الطلاق إلى الزوجة التى لم تكن وقت اليمين، فإن البيعة لم تكن لتكتفى بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك إلى من يتزوجهن الحالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة، وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين. قال فقهاء العراق: إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف، وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعى محمد بن إدريس، وقد تغلب طبعاً رأى فقهاء العراق.

مقتل مروان بن محمد

ذكر الراوندية وهم شيعة ولد العباس بن عبد المطلب، من أهل خراسان وغيرهم - من أن رسول الله ﷺ قُبض ﷺ وأن أحق الناس بالإمامة بعده العباس بن عبد المطلب ؛ لأنه عمه ووارثه وعصبته، لقول الله عز وجل : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ وأن الناس اغتصبوه حقه، وظلموه أمره، إلى أن رده الله إليهم، وتبرؤا من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وأجازوا بيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه بإجازته لها، وذلك لقوله: يا ابن أخى ، هلم إلى أن أبايعك فلا يختلف عليك اثنان، ولقول داود بن على على منبر الكوفة يوم بويع لأبى العباس : يا أهل الكوفة، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله ﷺ إلا على بن أبى طالب، وهذا القائم فيكم - يعنى أبا العباس السفاح -.

وقد صنف هؤلاء كتباً فى هذا المعنى الذى ادعوه ، منها كتاب صنفه عمرو بن بحر الجاحظ، وهو المترجم بكتاب "إمامة ولد العباس" يحتج فيه لهذا المذهب، ويذكر فعل أبى بكر فى فدك وغيرها وقصته مع فاطمة رضى الله عنها، ومطالبتها بإرثها من أبيها ﷺ ، واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أيمن، وما جرى بينها وبين أبى بكر من المخاطبة وما كثر بينهم من المنازعة، وما قالت ، وما قيل لها عن أبيها عليه السلام، من أنه قال : نحن معاشر الأنبياء نرث ولا نورث وما احتجت به من قوله عز وجل : ﴿وورث سليمان داود﴾ على أن النبوة لا تورث، فلم يبق إلا التوارث، وغير ذلك من الخطاب، ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب، ولا استقصى فيه الحجاج للراونية، وهم شيعة ولد العباس، لأنه لم يكن مذهبه، ولا كان يعتقده، ولكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً.

وقد صنف أيضا كتاباً استقصى فيه الحجاج عند نفسه، وأيده بالبراهين وعضده بالأدلة فيما تصوره من عقله، وترجمه بكتاب العثمانية، يحل فيه عند نفسه فضائل على عليه السلام ومناقبه، ويحتج فيه لغيره، طلبًا لإمانة الحق، ومضادة لأهله، والله متمم نوره ولو كره الكافرون.

ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر فى إمامة المروانية وأقوال شيعتهم، وهو كتاب إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان، فى الانتصار له من على بن أبى طالب رضى الله عنه وشيعته الرافضة، يذكر فيه رجال المروانية، ويؤيد فيه إمامة بنى أمية وغيرهم.

ثم صنف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية، يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه، من فضائل أمير المؤمنين على ومناقبه فيما ذكرنا.

وقد نقضها جماعة من متكلمى الشيعة : كأبى عيسى الوراق، والحسن بن موسى النخعى، وغيرهما من الشيعة ممن ذكر ذلك فى كتبه فى الإمامة مجتمعاً ومفترقاً.

وقد نقض على الجاحظ كتاب العثمانية أيضاً رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم، وأهل الزهد والديانة منهم، ممن يذهب إلى تفضيل على والقول بإمامة المفضول – وهو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى – وكانت وفاته سنة أربعين ومائتين، وفيها مات أحمد بن حنبل.

والذى ذهب إليه من تأخر من الراوندية وانتقل وتحير عن جملة الكيسانية القائلة بإمامة محمد بن الحنفية – وهم الجريانية أصحاب أبى مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية، وكان يلقب بجريان – أن محمد بن

الحنفية هو الإمام بعد على بن أبى طالب، وأن محمداً أوصى إلى ابنه أبى هاشم، وأن أبا هاشم أوصى إلى على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأن على بن عبد الله أوصى إلى ابنه محمد بن على، وأن محمداً أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام المقتول بحران، وأن إبراهيم أوصى إليه أخيه أبى العباس بن عبد الله بن الحارثية المقتول.

وقد تنوزع فى أمر أبى مسلم : فمن الناس من رأى أنه كان من العرب، ومنهم من رأى أنه كان عبداً فأعتق، وكان من أهل البرس والجامعين من قرية يقال لها خرطينة، وإليها تضاف الثياب البرسية المعروفة بالخرطينية، وتلك من أعمال الكوفة وسوادها، وكان قهرماناً لإدريس ابن إبراهيم العجلى، ثم آل أمره ونمت به الأقدار إلى أن اتصل بمحمد بن على، ثم بإبراهيم بن محمد الإمام، فأنفذه إبراهيم إلى خُراسان، وأمر أهل الدعوة بإطاعته والانقياد إلى أمره ورأيه، فقوى أمره وظهر سلطانه، وأظهر السواد، وصار زينة فى اللباس والأعلام والبنود، وكان أول من سود من أهل خراسان بنيسابور وأظهر ذلك فيهم أسيد بن عبد الله،

ثم نمى ذلك فى الأكثر من المدن والكور بخراسان، وقوى أمر أبى مسلم، وضعف أمر نصر بن سيار صاحب مروان بن محمد الجعدى على بلاد خراسان، وكانت له مع أبى مسلم حروب أكثر فيها أبو مسلم الحيل والمكايد من تفريقه بين اليمانية والنزارية بخراسان وغير ذلك مما احتال به على عدوه ، وقد كان لنصر بن سيار حروب كثيرة مع الكرمانى إلى أن قتل.

وطالت مكاتبة نصر بن سيار مروان، وإعلامه بما هو فيه، وإظهار أمر العباسية، وتزايده فى كل وقت؛ فكان فيما كتب به إليه إعلامه بحال أبى مسلم

له الرجل : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حمل صاحب إفريقية إليه جارية ذات بهاء وكمال، تامة المحاسن، شهية للمتأمل، فلما وقفت بين يديه تأمل حسنها وبيده كتاب ورد من الحجاج وهو بدير الجماجم مواقعا لابن الأشعث، فرمى بالكتاب عن يده، وقال لها : أنت والله مُنية النفس، فقالت الجارية : ما يمنعك يا أمير المؤمنين إذ كنت بهذا الوصف ؟

أألتذ بالعيش وابن الأشعث مُصاف لأبى محمد وقد هلكت فيه زعماء العرب؟ لاها الله إذاً، ثم أمر بصيانتها، فلما قتل ابن الأشعث كانت أول جارية خلا بها.

ولما يئس نصر بن سيار من إنجاد مروان كتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى عامل مروان على العراق يستمده، ويسأله النصر على عدوه.

فلم يجبه يزيد بن عمر عن كتابه، وتشاغل بدفع فتن العراق.

ودخلت خوارج اليمن مكة المدينة وعليهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى وبلخ بن عقبة الأزدى، وهما فيمن معهما يدعون إلى عبد الله بن يحيى الكندى، وكان قد سمى نفسه بطالب الحق، وخوطب بأمير المؤمنين ، وكان أباضى المذهب من رؤساء الخوارج ، وذلك فى سنة تسع وعشرين ومائة.

وفى سنة ثلاثين ومائة جهز مروان بن محمد جيشاً مع عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى ، فلقى الخوارج بوادى القرى، فقُتل بلخ، وفر أبو حمزة فى بقيتهم إلى مكة، فلحقه عبد الملك، فكانت بينهم وقعة قتل فيها أبوحمزة وأكثر من كان معه من الخوارج، وسار عبد الملك فى جيش مروان من أهل الشام يريد اليمن، وخرج عبد الله بن يحيى الكندى الخارجى من صنعاء، فالتقوا

بناحية الطائف وأرض جرش، فكانت بينهم حرب عظيمة قتل فيها عبد الله بن يحيى وأكثر من كان معه من الأباضية، ولحق بقية الخوارج ببلاد حضرموت، فأكثرها أباضية .

ولا فرق بينهم وبين من بعُمان من الخوارج فى هذا المذهب، وسار عبد الملك فى جيش مروان فنزل صنعاء، وذلك فى سنة ثلاثين ومائة، وقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك اتصل بالخوارج بالجزيرة خوفًا من مروان ، واحتوى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على بلاد إصطخر وغيرها من أرض فارس، إلى أن رفع عنها وصار إلى خراسان، فقبض عليه أبو مسلم.

وقوى أمر أبى مسلم، وغلب على أكثر خراسان ، وضعف أمر نصر بن سيار من عدم النجدة، فخرج عن خراسان حتى أتى الرى، وخرج عنها، فنزل ساوة بين بلاد همذان والرى، فمات بها كمدا.

وقد كان نصر بن سيار - لما صار بين الرى وخراسان - كتب كتابًا إلى مروان يذكر فيه خروجه عن خراسان، وأن هذا الأمر الذى أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد.

فلم يتم مروان قراءة هذا الكتاب حتى مثل أصحابه بين يديه ممن كان قد وكل بالطرق رسولا من خراسان من أبى مسلم إلى إبراهيم بن محمد الإمام يخبره فيه خبره، وما آل إليه أمره، فلما تأمل مروان كتاب أبى مسلم قال للرسول : لا ترع ، كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا، قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك، وإنما دفع إليك شيئاً يسيراً، وأمض بهذا الكتاب إلى إبراهيم ولا تعلمه بشىء مما جرى ، وخذ جوابه فائتنى به ، ففعل الرسول ذلك، فتأمل

مروان جواب إبراهيم إلي أبى مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه وغير ذلك من أمره ونهيه، فاحتبس مروان الرسول، وكتب إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك وهو على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكرار والحُميمة ليأخذ إبراهيم بن محمد فيشده وثاقًا.

ويبعث به إليه فى خيل كثيفة، فوجه الوليد إلى عامل البلقاء فأخذ إبراهيم وهو جالس فى مسجد القرية فأخذ وهو مُلفف، وحمل إلى الوليد، فحمله إلى مروان فحبسه فى السجن شهرين، وقد كان جرى بين إبراهيم ومروان خطب طويل حين مثل بين يديه، وأغلظ له إبراهيم، وأنكر كل ما ذكره له مروان من أمر أبى مسلم، فقال له مروان : يا منافق، أليس هذا كتابك إلى أبى مسلم جواباً عن كتابه إليك، وأخرج إليه الرسول، وقال : أتعرف هذا ؟ فلما رأى ذلك إبراهيم أمسك، وعلم أنه أتى من مأمنه.

واشتد أمر أبى مسلم، وكان فى الحبس مع إبراهيم جماعة من بنى هاشم وبنى أمية: فمن بنى أمية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان مروان قد خافهما على نفسه وخشى أن يخرجا عليه، ومن بنى هاشم : عيسى بن على ، وعبد الله بن على ، وعيسى بن موسى؛ فذكر أبو عبيدة الثعلبى – وكان معهم فى الحبس – أنه هجم عليهم فى الحبس وذلك بحران جماعة من موالى مروان من العجم وغيرهم فدخلوا البيت الذى كان فيه إبراهيم والعباس وعبد الله، فاقاموا عندهم ساعة، ثم خرجوا وأغلق باب البيت، فلما أصبحنا دخلنا عليهم، فوجدناهم قد أتى عليهم، ومعهم غلامان صغيران من خدمهم كالموتى، فلما رأونا أنسوا بنا، فسألناهم الخبر، فقالا: أما العباس وعبد الله فجعل على وجوههما مخاد وقعد فوقهما

فاضطربا ثم بردا، وأما إبراهيم فإنهم جعلوا رأسه فى جراب كان معهم فيه نورة مسحوقة، فاضطرب ساعة ثم خمد.

وقد ذكر فى كيفية قتل إبراهيم الإمام من الوجوه غير ما ذكرنا، وكذلك من قحطبة وابن هبيرة على الفرات ، وغرق قحطبة فيه، ودخول ابنه الحسن بن قحطبة الكوفة.

وسار مروان حتى نزل على الزاب الصغير، وعقد عليه الجسر، وأتاه عبد الله بن على فى عساكر أهل خراسان وقوادهم، وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فالتقى مروان وعبد الله بن على ، وقد كردس مروان خيله كراديس ألفًا وألفين، فكانت على مروان، فانهزم، وقتل وغرق من أصحابه خلق عظيم، فكان فيمن غرق فى الزاب من بنى أمية ذلك اليوم ثلثمائة رجل، دون من غرق من سائر الناس، وكان فيمن غرق فى الزاب فى ذلك اليوم من بنى أمية إبراهيم بن الوليد ابن عبد الملك المخلوع، وهو أخو يزيد الناقص، وقد قيل فى رواية أخرى : إن مروان كان قد قتل إبراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصلبه، وكانت هزيمة مروان من الزاب فى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ومضى مروان فى هزيمته حتى أتى الموصل فمنعه أهلها من الدخول إليها، وأظهروا السواد لما رأوه من تولية الأمر عنه، وأتى حران – وكانت داره، وكان مقامه بها – وقد كان أهل حران قاتلهم الله تعالى حين أزيل لعن أبى تراب – يعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه– عن المنابر يوم الجمعة امتنعوا من إزالته ، وقالوا : لا صلاة إلا بلعن أبى تراب، وأقاموا على ذلك سنة حتى كان من أمر المشرق وظهور المسودة ما كان ، وامتنع مروان من ذلك لانحراف

الناس عنهم، وخرج مروان فى أهله وسائر بنى أمية عن حران، وعبر الفرات، ونزل عبد الله بن على على باب حران، فهدم قصر مروان، وقد كان أنفق عليه عشرة آلاف ألف درهم، واحتوى على خزائن مروان وأمواله.

وسار مروان فيمن معه من خواصه وعياله حتى انتهى إلى نهر أبى فطرس من بلاد فلسطين والأردن فنزل عليه، وسار عبد الله بن على حتى نزل دمشق فحاصرها وفيها يومئذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك فى خمسين ألف مقاتل، وقد قيل : إن أصحاب عبد الله بن على قتلوه وأتى عبد الله بن على يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد ابن عبد الملك بن مروان، فحملهما إلي أبى العباس السفاح، فقتلهما وصلبهما بالحيرة، وقتل عبد الله بن على بدمشق خلقًا كثيراً، ولحق مروان بمصر، ونزل عبد الله بن على على نهر أبى فطرس، فقتل من بنى أمية هناك بضعًا وثمانين رجلا، وذلك فى يوم الأربعاء للنصف من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقتل بالبلقاء سليمان بن يزيد بن عبد الملك، وحمل رأسه إلى عبد الله بن على ، ورحل صالح بن على فى طلب مروان ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد، وعامر بن إسماعيل المذحجى، فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير، فبايتوه، وهجموا على عسكره وضربوا بالطبول، وكبروا ونادوا : يالثارات إبراهيم ، فظن من فى عسكر مروان أن قد أحاط بهم سائر المسودة فقتل مروان، وقد اختلف فى كيفية قتله فى المعركة فى تلك الليلة، وكان قتله ليلة الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان وأراد الكنيسة التى فيها بنات مروان ونساؤه إذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول عليهن، فأخذوا الخادم، فسئل عن أمره ، فقال : أمرنى مروان إذا هو قُتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه

فلا تقتلونى، فإنكم والله إن قتلتمونى ليفقدن ميراث رسول الله ﷺ فقالوا له : انظر ما تقول ، قال : إن كذبت فاقتلونى، هلموا فاتبعونى ؛ ففعلوا، فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا، فكشفوا ، فإذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بنى هاشم ، فوجه بها عامر ابن إسماعيل إلى عبد الله بن على ، فوجه بها عبد الله إلى أبى العباس السفاح، فتداولت ذلك خلفاء بنى العباس إلى أيام المقتدر، فيقال : إن البرد كان عليه فى يوم مقتله.

ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن على ، فلما دخلن عليه تكلمت ابنة مروان الكبرى ، فقالت : يا عم أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما يحب لك حفظه، وأسعدك فى الأمور كلها بخواص نعمه، وعمك بالعافية فى الدنيا والآخرة، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا، قال : إذا لا نستبقى منكم أحداً رجلا ولا امرأة ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الإمام فى محبه بحران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين ابن على وصلبه فى كناسة الكوفة، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يدى يوسف ابن عمر الثقفى؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعى مسلم بن عقيل بن أبى طالب بالكوفة؟

ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على على يدى عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحرم رسول الله ﷺ سبايا حتى ورد بهن على يزيد بن معاوية وقبل مقدمهن بعث إليه برأس الحسين بن على قد ثقب دماغه على رأس رمح يُطاف به كور الشام ومدائنها حتى قدموا به على يزيد

بدمشق كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله ﷺ موقف السبى يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطغام ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله ﷺ ، استخفافا بحقه ﷺ ، وجراءة على الله عز وجل، وكفراً لأنعمه، فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟

لو عدلتم فيه علينا!! قالت : يا عم أمير المؤمنين ليسعنا عفوكم إذاً، قال : أما العفو فنعم قد وسعكم، فإن أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن على ، وزوجت أختك من أخيه عبد الله بن صالح، فقالت : يا عم أمير المؤمنين، وأى أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بحران، قال : فإذا أفعل ذلك بكن إن شاء الله ، فألحقهن بحران، فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان، وشققن جيوبهن، وأعولن بالصياح والنحيب، حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان.

فكان مُلك مروان إلى أن بويع أبو العباس السفاح خمس سنين وشهرين وعشرة أيام ، وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعد صاحب الرسائل والبلاغات، وهو أول من أطال الرسائل، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب، واستعمل الناس ذلك بعده.

وذكر أن مروان قال لكاتبه عبد الحميد - حين أيقن بزوال ملكه -: قد احتجت أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابك تدعوهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى، وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتى، فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرت به على أنفع الأمرين لك، وأقبحهما بى، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله أو أقتل معك.

وذكر إسماعيل بن عبد الله القشيرى قال : دعانى مروان وقد وافى على الهزيمة إلى حران، فقال : يا أبا هاشم ، وما كان يكنينى قبلها، قد ترى ماجاء من الأمر وأنت الموثوق به، ولا مخبأ لعطر بعد عروس، فما الرأى؟ فقلت : ياأمير المؤمنين علام أجمعت ؟ قال : على أن أرتحل بموالى ومن تبعنى من الناس حتى أقطع الدرب وأميل إلى مدينة من مدن الروم فأنزلها، وأكاتب صاحبها، وأستوثق منه، فقد فعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم، وليس هذا عاراً بالملوك ، فلا يزال يأتينى من أصحابى الخائفُ والهاربُ والطامعُ فيكثر من معى، ولا أزال على ذلك حتى يكشف الله أمرى وينصرنى على عدوى، فلما رأيت ما أجمع عليه وكان الرأى ، ورأيت آثاره فى قومى من قحطان وبلاءه عندهم، فقلت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الرأى، تحكم أهل الشرك فى بناتك وحرمك، وهم الروم، ولا وفاء لهم،

ولا تدرى ما تأتى به الأيام، وأنت إن حدث عليك حادث بأرض النصرانية – ولا يحدث عليك إلا خير– ضاع من بعدك ، ولكن اقطع الفرات، ثم استنفر أهل الشام جنداً جنداً فإنك فى كنف وعزة، ولك فى كل جند صنائع، يسيرون معك حتى تأتى مصر، فإنها أكثر أرض الله مالا وخيلا ورجالا، ثم الشام أمامك وإفريقية خلفك؛ فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية قال : صدقت، وأستخير الله، فقطع الفرات، ووالله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان: ابن حمزة السلمى، وكان أخاه من الرضاعة، والكوثر بن الأسود الغنوى، ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئًا، بل غدروا به وخذلوه، فلما اجتاز ببلاد قنسرين وحناصرة أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته، ووثب به أهل حمص، وسار إلى دمشق ، فوثب به الحارث بن عبد

الرحمن الحرشي، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو القيسي، والمذحجيون جميعًا، ثم مر بفلسطين فوثب الحكم بن صنعان بن روح بن زنباع؛ لما رأوا من إدبار الأمر عنه، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله القشيرى قد غشه فى الرأى ولم يمحضه النصيحة ، وأنه فرط فى مشورته إياه؛ إذ شاور رجلا من قحطان موتوراً متعصباً مع قومه على أضدادهم من نزار، وأن الرأى كان الذى هم بفعله من قطع الدرب ونزول بعض حُصُون الروم ومكاتبته ملكها إلى أن يرتئى فى أمره.

وذكر المدائنى والعتبى وغيرهما أن مروان حين نزل على الزاب جرد من رجاله، ومن اختاره من سائر جيشه من أهل الشام والجزيرة وغيرهم، مائة ألف فارس على مائة ألف قارح ، فلما كان يوم الوقعة وأشرف عبد الله بن علىّ فى المسودة، وفى أوائلهم البنود السود يحملها الرجال على الجمال البُخت، وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب، قال مروان لمن قرب منه : أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا؟

أما ترون إلى أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع من الغمام سود ؟ فبينا هو كذلك إذ طار من أفرجة هناك قطعة من الغرايب سود، فاجتمعت على أول رايات عبد الله ابن علىّ ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود ، ومروان ينظر ؛ فتطير من ذلك فقال : أما ترون السواد قد اتصل بالسواد ؟ وكأن الغرايب كالسحب سواداً، ثم نظر إلى أصحابه المحاربين – وقد استشعروا الجزع والفزع والفشل – فقال : إنها لعدة، وما تنفع العدة إذا انقضت المدة؟

خلافة أبى العباس عبد الله بن محمد السفاح

وبويع أبو العباس السفاح - وهو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب - ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقيل : إنه بويع يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وقيل : فى النصف من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة، وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد المدان الحارثية، وركب إلى المسجد الجامع في يوم الجمعة؛ فخطب على المنبر قائما، وكانت بنو أمية تخطب قُعُوداً، فضج الناس وقالوا : أحييت السنة يا ابن عم رسول الله ﷺ ، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشسهر وعشرين يوما، ومات بالأنبار فى مدينته التى بناها، وذلك فى يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وقيل : ابن تسع وعشرين سنة، وكانت أمه تحت عبد الملك بن مروان، فكان له منها الحجاج بن عبد الملك، فلما توفى عبد الملك تزوجها محمد بن على بن عبد الله بن العباس، فولدت منه عبد الله بن محمد السفاح، وعبيد الله، وداود ، وميمونة.

سيرة أبى العباس السفاح

ولما حبس إبراهيم الإمام بحران ، وعلم أن لا نجاة له من مروان ، أثبت وصيته وجعلها إلى أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد، وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة وأن لا يكون له بعده بالحميمة لُبث ولا عرجة حتى يتوجه إلى الكوفة فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة، وأنه بذلك أتتهم الرواية، وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والنقباء،

ورسم له بذلك رسما أوصاه فيه أن عمل عليه ولايتعداه، ودفع الوصية بجميع ذلك إلى سابق الخوارزمى مولاه، وأمره إن حدث به حدث من مروان فى ليل أو نهار أن يجد السير إلى الحميمة حتى يدفع وصيته إلى أخيه أبى العباس، فلما قضى إبراهيم نحبه أسرع سابق فى السير حتى أتى الحميمة فدفع الوصية إلى أبى العباس ونعاه إليه، فأمره أبو العباس بستر الوصية وأن ينعاه، ثم أظهر أبو العباس أهل بيته على أمره، ودعا إلى مؤازرته ومكاشفته أخاه أبا جعفر عبد الله بن محمد، وعيسى بن موسى بن محمد ابن أخيه، وعبد الله بن على عمه، وتوجه أبو العباس إلى الكوفة مسرعاً، وهؤلاء معه فى خارجه ممن خف أهل بيته، فلقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب فى طريقهم إلى الكوفة، وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبد الله بن على فيمن كان معهم إلى الماء، فقالت الإعرابية : تالله ما رأيت وجوها مثل هذه مابين خليفة وخليفة وخارجى.

فقال لها أبو جعفر المنصور : كيف قلت يا أمة الله ؟ قالت : والله ليلينها هذا، وأشارت إلى السفاح، ولتخلفنه أنت ، وليخرجن عليك هذا، وأشارت إلى عبد الله بن على ، فلما انتهوا إلى دومة الجندل لقيهم داود بن على وموسى بن داود، وهما منصرفان من العراق إلى الحميمة من أرض الشراة، فسأله داود عن مسيره، فأخبره بسببه، وأعلمه بحركة أهل خراسان لهم مع أبى مسلم، وأنه يريد الوثوب بالكوفة ، فقال له داود : يا أبا العباس، تثب بالكوفة ومروان شيخ بنى أمية وزعيمهم فى أهل الشام والجزيرة مُطل على أهل العراق، وابن هُبيرة شيخ العرب فى جلة العرب بالعراق ؟ فقال أبو العباس : يا عماه، من أحب الحياة ذل.

فالتفت داود إلى ابنه موسى ، فقال : أى بنى ، صدق ابن عمك، ارجع بنا معه نحيا أعزاء أو نموت كراما، فعطفا ركابهما معه، وسار أبو العباس حتى دخل الكوفة.

وقد كان أبو سلمة حفص بن سليمان – حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام– أضمر الرجوع عما كان عليه من الدعوة العباسية إلى آل أبى طالب.

وقدم أبو العباس الكوفة فيمن ذكرنا من أهل بيته سرا، والمسودة مع أبى سلمة بالكوفة ، فأنزلهم جميعاً دار الوليد بن سعد فى بنى أود حى من اليمن.

وأخفى أبو سلمة أمر أبى العباس ومن معه، ووكل بهم وكيلا، وكان قدوم أبى العباس الكوفة فى صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفيها جرى البريد بالكتب لولد العباس، وقد كان أبو سلمة لما قتل إبراهيم الإمام خاف انتقاض الأمر وفساده عليه، فبعث بمحمد بن عبد الرحمن ابن أسلم وكان أسلم مولى لرسول الله ﷺ ، وكتب معه كتابين على نسخة واحدة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب، وإلى أبى محمد عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين! يدعو كل واحد منهما إلي الشخوص إليه ليصرف الدعوة إليه.

ويجتهد فى بيعة أهل خراسان له، وقال للرسول : العجل العجل ، فلا تكونن كوافد عاد، فقدم محمد بن عبد الرحمن المدينة على أبى عبد الله جعفر بن محمد فلقيه ليلا، فلما وصل إليه أعلمه أنه رسول أبي سلمة، ودفع إليه كتابه ، فقال له أبو عبد الله: وما أنا وأبو سلمة؟ وأبو سلمة شيعة لغيرى ، قال : إنى رسول ، فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت، فدعا أبو عبد الله بسراج ثم أخذ كتاب

أبى سلمة فوضعه على السراج حتى احترق، وقال للرسول : عرف صاحبك بما رأيت.

فخرج الرسول من عنده وأتى عبد الله بن الحسن فدفع إليه الكتاب فقبله وقرأه وابتهج به، فلما كان من غد ذلك اليوم الذى وصل إليه فيه الكتاب ركب عبد الله حماراً حتى أتى منزل أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق، فلما رآه أبو عبد الله أكبر مجيئه، وكان أبو عبد الله أسن من عبد الله، فقال له : يا أبا محمد ؟ قال : هذا كتاب أبى سلمة يدعونى إلى ما أقبله، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان ، فقال له أبو عبد الله : يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ وأنت أمرته بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم ؟ وهل تعرف منهم أحداً؟

فنازعه عبد الله بن الحسن الكلام، إلى أن قال : إنما يريد القوم ابنى محمداً لأنه مهدىُّ هذه الأمة. فقال أبو عبد الله جعفر : والله ما هو مهدى هذه الأمة، ولئن شهر سيفه ليقتلن، فنازعه عبد الله القول ، حتى قال له : والله ما يمنعك من ذلك إلا الحسد، فقال أبو عبد الله : والله ما هذا إلا نصح منى لك ، ولقد كتب إلي أبو سلمة بمثل ما كتب به إليك ، فلم يجد رسوله عندى ما وجد عندك، ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه، فانصرف عبد الله من عند جعفر مغضباً، ولم ينصرف رسول أبى سلمة إليه إلى أن بويع السفاح بالخلافة وذلك أن أبا حميد الطوسى دخل ذات يوم من العسكر إلى الكوفة فلقى سابقاً الخوارزمى فى سوق الكناسة فقال له : سابق ؟ قال : سابق فسأله عن إبراهيم الإمام، فقال : قتله مروان فى الحبس، وكان مروان يومئذ بحران، فقال أبو

حميد: فإلى من الوصية ؟ قال : إلى أخيه أبى العباس ، قال : وأين هو ؟ قال : معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من عُمُومته وأهل بيته، قال : مُذ متى هم هنا ؟ قال : من شهرين ، قال : فتمضى بنا إليهم ،

قال : غداً بينى وبينك الموعد فى هذا الموضع، وأراد سابق أن يستأذن أبا العباس فى ذلك، فانصرف إلى أبى العباس فأخبره، فلامه إذ لم يأت به معه إليهم، ومضى أبو حميد فأخبر جماعة من قُواد خراسان فى عساكر أبى سلمة بذلك، منهم أبو الجهم وموسى بن كعب، وكان زعيمهم، وغدا سابق إلي الموضع، فلقى أبا حميد، فمضيا حتى دخلا على أبى العباس ومن معه فقال : أيكم الإمام؟ فأشار داود ابن على إلى أبى العباس، وقال : هذا خليفتكم، فأكب على أطرافه يقبلها، وسلم عليه بالخلافة، وأبو سلمة لا يعلم بذلك، وأتاه وجوه القواد فبايعوه، وعلم أبو سلمة بذلك فبايعه، ودخلوا إلى الكوفة فى أحسن زى ، وضربوا له مصافا، وقُدمت الخيول، فركب أبو العباس ومن معه حتى أتوا قصر الإمارة، وذلك فى يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ثم دخل المسجد الجامع من دار الإمارة ؛ فحمد الله وأثنى عليه، وذكر تعظيم الرب ومنته، وفضل النبى ﷺ ، وقاد الولاية والوراثة حتى انتهت إليه، ووعد الناس خيراً، ثم سكت ، فتكلم عمه داود بن على وهو على المنبر دون أبى العباس، فقال : إنه والله ما كان بينكم وبين رسول الله ﷺ خليفة إلا علىّ عليه السلام وأمير المؤمنين هذا الذى خلفى، ثم نزلا.

ثم خرج أبو العباس إلى عسكر أبى سلمة فنزل فى حجرته، واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن على ، وبعث بعمه عبد الله بن على إلى أبى

عون عبد الملك بن يزيد، فسارا معًا إلى مروان، فكان من أمرهم ما قدمنا ذكره من التقائهم على الزاب، وهزيمة مروان بن محمد.

واتصل بأبى العباس السفاح ما كان من عامر بن إسماعيل وقتله لمروان ببوصير وقيل : إن ابن عم لعامر يقال له نافع بن عبد الملك كان قتله فى تلك الليلة فى المعركة وهو لايعرفه، وإن عامراً لما احتز رأس مروان واحتوى على عسكره دخل إلى الكنيسة التى كان فيها مروان ، فقعد على فرشه وأكل من طعامه، فخرجت إليه ابنة مروان الكبرى، وتعرف بأم مروان ، فقالت : ياعامر إن دهراً أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره، وحكمت فى ممكلته؛ لقادر أن يغير ما بك من نعمة.

وبلغ السفاح فعله وكلامها، فاغتاظ من ذلك ، وكتب إليه : "ويلك ! أما كان لك فى أدب الله عز وجل ما يزجرك عن أن تأكل من طعام مروان، وتقعد على مهاده، وتتمكن من وساده ؟ أما والله لولا أن أمير المؤمنين تأول ما فعلت على غير اعتقاد منك لذلك ولا شهوة لمسك من غضبه وأليم أدبه ما يكون لك زاجراً، ولغيرك واعظاً، فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين فتقرب إلى الله تعالى بصدقة تطفىء بها غضبه، وصلاة تظهر بها الاستكانة، وصُم ثلاثة أيام ، ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك".

ولما أتى أبو العباس برأس مروان ووضع بين يديه سجدة فأطال السجود ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذى لم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك ، والحمد لله الذى أظفرنى بك ، وأظهرنى عليك، ثم قال : ما أبالى متى طرقنى الموت ، قد قتلتُ بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين؛ وأحرقت شلو هشام بابن عمى زيد بن على ، وقتلت مروان بأخى إبراهيم .

وذكر أبو الخطاب عن أبى جعدة بن هبيرة المخزومى – وكان أحد وزراء مروان وسُماره، وقد كان لما ظهر أمر أبى العباس انضاف إلى جملته وصار فى عداد أصحابه وخواصه الذين اتخذهم – أنه كان فى ذلك اليوم حاضراً لمجلس أبى العباس ورأس مروان بين يديه، وهو يومئذ بالحميمة، وأن أبا العباس التفت إلى أصحابه فقال : أيكم يعرف هذا ؟ قال أبو جعدة : فقلت أنا أعرفه ، هذا رأس أبى عبد الملك مروان بن محمد خليفتنا بالأمس رضى الله عنه، قال : فحدقت إلىّ الشيعة فأخذتنى بأبصارها، فقال لى أبو العباس : فى أى سنة كان مولده ؟ قلت : سنة ست وسبعين ، فقام وقد تغير لونه غيظاً على ، وتفرق الناس من المجلس، وانصرفت وأنا نادم على ما كان منى، وتكلم الناس فى ذلك وتحدثوا به، فقلت : هذه زلة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبداً، فأتيت منزلى، فلم أزل باقى يومى أعهد وأوصى،

فلما كان الليل اغتسلت وتهيأت للصلاة، وكان أبو العباس إذا هم بأمر بعث فيه ليلا، فلم أزل ساهرا حتى أصبحت، فلما أصبحت ركبت بغلتى واستعرضت بقلبى إلى من أقصد فى أمرى، فلم أجد أحداً أولى من سليمان بن خالد مولى بنى زُهرة، وكانت له من أبى العباس منزلة عظيمة، وكان من شيعة القوم، فأتيته، فقلت : أذكرنى أمير المؤمنين البارحة؟ فقال : نعم ، جرى ذكرك، فقال : هو ابن أختنا، وفى لصاحبه، ونحن إن أوليناه خيراً كان لنا أشكر، فشكرت ذلك له، وجزيته خيراً ، ودعوت له، وانصرفت، فلم أزل آتى أبا العباس على ما كنت عليه لا أرى إلا خيراً، ونُمى الكلام الذى كان فى مجلس أبى العباس – حين أتى برأس مروان – فبلغ أبا جعفر وعبد الله بن على ، فكتب عبد الله بن على إلى أبى العباس يُعلمه بما بلغه من كلامى، وأنه ليس هذا يحتمل،

وكتب أبو جعفر يخبر بما بلغه من ذلك، ويقول : هو ابن أختنا ، ونحن أولى باصطناعه واتخاذ المعروف عنده، وبلغنى ما كان منهما فأمسكت ، وضرب الدهر ضرباته،

فبينما أنا ذات يوم عند أبى العباس بعد حين وقد تزايدت حالى عنده وأحظانى، فنهض الناس ونهضت ، فقال لى أبو العباس : على رسلك يا ابن هُبيرة، اجلس ، فجلست ، ونهض ليدخل فقمت لقيامه، فقال : اجلس ، فرفع الستر ودخل ، وثبت فى مجلسى ، فأقام مليا ثم رفع الستر فخرج فى ثوبى وشى رداء وجبة، فما رأيت أحسن منه ولا مما عليه قط، فلما رفع الستر نهضت، فقال : اجلس ، فجلست ، فقال : يا ابن هُبيرة، إنى ذاكر لك أمراً فلا يخرجن من رأسك إلى أحد من الناس،

ثم قال : قد علمت ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتل مروان، وعبد الله بن على عمى هو الذى قتله؛ لأن ذلك كان بجيشه وأصحابه، وأخى أبو جعفر - مع فضله وعلمه وسنه وإيثاره لأمر الله - كيف يسوغ إخراجه عنه؟ قال : فأطال فى مديح أبى جعفر ، فقلت : أصلح الله يا أمير المؤمنين !! لا أشير عليك، ولكنى أحدثك حديثاً تعتبره ، فقال : هاته، فقلت : كنا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية إذ ورد عليه كتاب عمر بن عبد العزيز بنعى سليمان ومصير الأمر إليه، فبعث إلىَّ ، فدخلت عليه، فرمى بالكتاب إلى فقرأته، ثم اندفع يبكى ، فقلت : أصلح الله الأمير !! لا تبك على أخيك، ولكن ابك على خروج الخلافة من ولد أبيك إلى ولد عمك، فبكى حتى اخضلت لحيته، قال : فلما فرغت من حديثى. قال لى أبو العباس : حسبك قد فهمت عنك، ثم قال: إذا شئت فانهض ، فما مضيت غير بعيد حتى قال لى : يا ابن هبيرة، فالتفت راجعًا ،

فقال لى : امض ، أما إنك قد كافأت هذا، وأدركت بثأرك من هذا، قال :فما أدرى من أى الأمرين أعجب؟ من فطنته أم من ذكره لما كان؟

وأبو جعدة بن هُبيرة هذا هو من ولد جعدة بن هبيرة المخزومى من فاختة أم هانىء بنت أبى طالب، وعلى وجعفر وعقيل أخواله.

قال المسعودى ، عن محمد بن الأسود ، قال : بينما عبد الله بن على يساير أخاه داود بن على ومعهما عبد الله بن الحسن بن الحسن: فقال داود لعبد الله : لم لا تأمر ابنيك بالظهور ؟ فقال عبد الله : هيهات لم يئن لهما بعد فالتفت إليه عبد الله بن على فقال : كأنك تحسب أن ابنيك هما قاتلا مروان، فقال : إن ذلك كذلك فقال عبد الله : هيهات.

أنا والله قاتله.

وقيل لعبد الله بن على : إن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يذكر أنه قرأ فى بعض الكتب أنه يقتل مروان عين ابن عين ، وقد أمل أن يكون هو، فقال عبد الله بن على : أنا والله ذلك، ولى عليه فضل ثلاثة أعين، أنا عبد الله بن على ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، وهو عمرو بن عبد مناف.

فلما صاف مروان عبد الله بن على أقبل مروان على رجل إلى جنبه فقال : من الرجل الذى كان يخاصم عندك عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الأقنى الحديد البصر الحسن الوجه؟ فقلت : يرزق الله البيان من يشاء، قال : إنه لهو، قلت : نعم، قال : من ولد العباس بن عبد المطلب هى ؟ قلت: أجل ، فقال مروان : إنا لله وإنا إليه راجعون، ويحك ! إنى ظننت أن الذى يحاربنى من ولد أبى طالب وهذا الرجل من ولد العباس واسمه عبد الله أتدرى لم صيرت الأمر

بعدى لابنى عبيد الله بعد عبد الله ومحمد اكبر من عبد الله؟ قلت : لم ؟ قال : لأنا خبرنا أن الأمر صائر بعدى إلى عبد الله وعبيد الله، فنظرت فإذا عبيد الله أقرب إلى عبد الله من محمد، فوليته دونه.

قال : وبعث مروان بعد أن حدث صاحبه بهذا الحديث إلى عبد الله ابن على فى خفية: إن الأمر يا ابن عم صائر إليك فاتق الله فى الحرام، قال : فبعث إليه عبد الله : إن الحق لنا فى دمك، والحق علينا فى حرمك.

وذكر مصعب الزبيرى عن أبيه قال : كانت أم سلمة بنت يعقوب ابن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومى عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، فهلك عنها، ثم كانت عند هشام فهلك عنها، فبينما هى ذات يوم جالسة إذ مر بها أبو العباس السفاح ، وكان جميلا وسيما، فسألت عنه ، فنسب لها، فأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها، وقالت لها : قولى له هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك، وكان معها مال عظيم وجوهر وحشم ، فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك، فقال : أنا مُملق لا مال عندى ،

ودفعت إليه المال، فأنعم لها، وأقبل إلى أخيها فسأله التزويج فزوجه إياها، فأصدقها خمسمائة دينار، وأهدى مائتى دينار ، ودخل عليها من ليلته، وإذا هى على منصة، فصعد عليها، فإذا كل عضو منها مكلل بالجوهر فلم يصل إليها، فدعت بعض جواريها فنزلت وغيرت لبسها ولبست ثياباً مصبغة وفرشت له فراشاًعلى الأرض دون ذلك، فلم يقدر يصل إليها، فقالت : لا يضرك هذا، كذلك الرجال كان يصيبهم مثل ما أصابك ، فلم تزل به حتى وصل إليها من ليلته، وحظيت عنده، وحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى، فولدت منه محمداً وريطة ، وغلبت عليه غلبة شديدة، حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها وبتأميرها حتى

أفضت الخلافة إليه، فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها لا إلى حرة ولا إلى أمة، ووفى لها بما حلف أن لا يغيرها، فلما كان ذات يوم في خلافته خلا به خالد بن صفوان فقال : يا أمير المؤمنين، إنى فكرت في أمرك ، وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة واقتصرت عليها فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجوارى ومعرفة أخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهى منهن فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء،

وإن منهن البضة البيضاء، والعتيقة الأدماء، والدقيقة السمراء، والبربرية العجزاء، من مولدات المدينة، تفتن بمحادثتها ، وتلذ بخلوتها ، وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن وحسن الحديث منهن؟ ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء، والسمراء اللمساء، والصفراء العجزاء، والمولدات من البصريات والكوفيات، ذوات الألسن العذبة، والقدود المهفهفة، والأوساط المخصرة، والأصداغ المزرفنة، والعيون المكحلة، والثدى المحققة وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن ، لرأيت شيئاً حسناً، وجعل خالد يجيد في الوصف، ويكثر في الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه، فلما فرغ كلامه قال له أبو العباس : ويحك يا خالد!! ما صك مسامعي والله قط كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعد على كلامك فقد وقع منى موقعًا،

فأعاد عليه كلامه خالد أحسن مما ابتدأه، ثم انصرف ، وبقى أبو العباس مفكرا فيما سمع منه، فدخلت عليه أم سلمة امرأته، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه، أو أتاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوى عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له، فقالت : فما قُلت لابن الفاعلة ؟ قال لها :

سبحان الله ينصحني وتشتمينه ؟ فخرجت من عنده مغضبة، وأرسلت إلى خالد جماعة من النجارية ومعهم الكامر كوبات ، وأمرتهم أن لا يتركوا منه عضواً صحيحاً ، قال خالد : فانصرفت إلى منزلى ، وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين، وإعجابه بما ألقيته إليه، ولم أشك أن صلته ستأتيني، فلم ألبث حتى صار إلي أولئك النجارية وأنا قاعد على باب دارى، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة والصلة، حتى وقفوا علىّ، فسألوا عنى ، فقلت : ها أنا ذا خالد، فسبق إلي أحدهم بهراوة كانت معه فلما أهوى بها إلى وثبت فدخلت منزلي، وأغلقت الباب عليه ، استترت ، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي، ووقع فى خلدى أنى أوتيت من قبل أم سلمة، وطلبنى أبو العباس طلباً شديداً،

فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا علىّ، وقالوا : أجب أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت، فركبت وليس على لحم ولا دم، فلم أصل إلى الدار حتى استقبلنى عدة رسل، فدخلت عليه فألقيته خالياً، فسكنت بعض السكون، فسلمت فأومأ إلى بالجلوس، ونظرت فإذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخيت، وحركة خلفها، فقال لى : يا خالد ، لم أرك منذ ثلاث ، قلت : كنت عليلا يا أمير المؤمنين، قال : ويحك !! إنك كنت وصفت لى فى آخر دخلة من أمر النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قط كلام أحسن منه، فأعده على ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى جهد، فقال : ويحك !! لم يكن هذا فى الحديث ، قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافى القدر يُغلى عليهن، قال أبو العباس : برئت من قرابتى من رسول الله ﷺ إن

كنت سمعت هذا منك فى حديثك، قال : وأخبرتك أن الأربعة من النساء شر مجموع لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه، قال : ويلك !! والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت ،

قال خالد : بلى والله، قال : ويلك !! وتكذبنى ؟ قال : وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : مُر فى حديثك ، قال : وأخبرتك أن أبكار الجوارى رجال، ولكن لا خصى لهنَّ ، قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستر، قلت : نعم وأخبرتك أيضاً أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وأن عندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بعينك إلى حرائر النساء وغيرهن من الإماء، قال خالد : فقيل من وراء الستار: صدقت والله يا عماه وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين، ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك، فقال لى أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل !؟ قال : فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة، قال خالد : فما شعرت إلا برسل أم سلمة قد صاروا إلىَّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام.

ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبى العباس السفاح وكان كثيراً ما يقول : إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً، ويختار أن يزداد جهلا، فقال له أبو بكر الهذلى : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك، ويدخل إلى امرأة أو جارية، فلا يزال يسمع سخفاً ، ويروى نقصاً ، فقال له الهذلى : لذلك فضلكم الله على العالمين، وجعل منكم خاتم النبيين.

وكان أبو العباس إذا حضر طعامه أبسط ما يكون وجهاً، فكان إبراهيم ابن محرمة الكندى إذا أراد أن يسأله حاجة أخرها حتى يحضر طعامه ثم يسأله، فقال له يوما : يا إبراهيم ، ما دعاك إلى أن تشغلنى عن طعامى

بحوائجك؟ قال : يدعونى إلى ذلك التماس النجح لما أسأل، قال أبو العباس : إنك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفطنة.

وكان إذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته لم يسمع من أحدهما فى الآخر شيئًا ولم يقبله، وإن كان القائل عدلا فى شهادته، وإذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منهما لصاحبه ولا عليه، ويقول : إن الضغينة القديمة تولد العداوة الممضة ، وتحمل على إظهار المسألة، وتحتها الأفعى التى إذا تمكنت لم تُبق.

وكان فى أول أيامه يظهر لندمائه، ثم احتجب عنهم، وذلك لسنة خلت من ملكه.

وكان يطرب من وراء الستر ، ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله ، أعد هذا الصوت.

وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا من مُطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة، ويقول : لا يكون سرورنا معجلا ، ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلا، وقد سبقه إلى هذا الفعل ملك من الملوك التى للفرس، وهو بهرام جور.

وحضره أبو بكر الهذلى ذات يوم ، والسفاح مُقبل عليه يحادثه بحديث لأنو شروان فى بعض حروبه بالمشرق مع بعض ملوك الأمم، فعصفت الريح فأذرت ترابا وقطعاً من الآجر من أعلى السطح إلى المجلس ، فجزع من حضر المجلس لوقوع ذلك، وارتاع له، والهذلى شاخص نحو أبى العباس لم يتغير كما تغير غيره، فقال له أبو العباس : لله أنت يا أبا بكر، لم أر كاليوم ، أما راعك ما راعنا ولا أحسست بما ورد علينا؟ فقال : يا أمير المؤمنين، ما جعل الله لرجل من

قلبين فى جوفه ، وإنما جعل للرجل قلب واحد ، فلما غمره السرور بفائدة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، والله عز وجل إذا أفرد بكرامته أحداً وأحب أن يبقى له ذكرها جعل تلك الكرامة على لسان نبى أو خليفة، وهذه كرامة خُصصت بها فمال إليها ذهنى، وشغل بها فكرى، فلو تقلبت الخضراء على الغبراء[1] ما أحسست بها، ولا وجمت لها[2] ، إلا بما يلزمنى من نفسى لأمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، فقال له السفاح، لئن بقيت لك لأرفعن منك وضيعًا لا تُطيف به السباع، ولا ينحط عليه العقاب.

وقد حكى عن عبد الله بن عياش المنتوف أنه قال : لم تتقرب العامة إلي الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع.

وقد حكى عن روح بن زنباع الخزاعى أنه كان يقول : إذا أردت أن يمكنك الملك من أذنه فأمكن أذنك من الإصغاء إلى حديثه، ولا يتعتب الرجل عندى إذا كان يصغى إلى حديثه، ولا يقدح ما قيل فيه فى قلبى لما تقدم له من حسن الاستماع عندى.

وقد حكى عن معاوية أنه كان يقول : يُغلب الملك حتى يُركب لشيئين : بالحلم عند سورته، والإصغاء إلى حديثه.

ووجدت فى سير الملوك من الأعاجم أن شيرويه بن أبرويز بينما هو فى بعض منتزهاته بأرض العراق، وكان لا يسايره أحد من الناس مبتدئا ، وأهل المراتب العالية خلف ظهره على مراتبهم ، فإن التفت يميناً دنا منه صاحب

---

(١) انقلبت السماء على الأرض .

(٢) وجمت لها : حزنت لها .

الجيش ، وإن التفت شمالا دنا منه المُوبذان، فأمر من دنا منهما بإحضار من أراد مسامرته، التفت فى مسيره هذا يميناً ، فدنا منه صاحب الجيش ، فقال : أين شداد بن جرثمة ؟ فأحضر ، فساير ، فقال له شيرويه : أفكرت فى حديث جدنا أردشير بن بابك حين واقع ملك الخزر، فحدثنى به إن كنت تحفظه، وكان شداد قد سمع هذا الحديث من أنو شروان ، وعرف المكيدة، وكيف كان أردشير أوقعها بملك الخزر، فاستعجم عليه شداد، وأوهمه أنه لا يعرفه ، فحدثه شيرويه بالحديث، فأصغى إليه الرجل بجوارحه كلها،

وكان مسيرهم على شاطئ نهر، فترك الرجل لإقباله على شيرويه النظر إلى موطئ حافر دابته، فزلت إحدى قوائم الدابة، فمالت بالرجل إلى اليمين ، فوقع فى الماء ، ونفرت الدابة ، فابتدرها حاشية الملك وغلمانه فأمالوها عن الرجل، وجذبوه فحملوه على أيديهم حتى أخرجوه فأغتم الملك لذلك، ونزل عن دابته وبسط له هنالك حتى تغذى فى موضعه، ودعا بثياب من خاص كسوته فألقيت على شداد وأكل معه، وقال له : غفلت عن النظر إلى موضع حافر دابتك، فقال : أيها الملك، إن الله إذا أنعم على عبد نعمة قابلها بمحنة، وعارضها ببلية، وعلى قدر النعم تكون المحن،

وإن الله أنعم علىّ بنعمتين عظيمتين هما إقبال الملك علىّ بوجهه من بين هذا السواد الأعظم وهذه الفائدة وهى تدبير الحرب حتى حدث بها عن أردشير حتى إنى لو دخلت إلى حيث تطلع الشمس أو تغرب لكنت رابحاً، فلما اجتمعت نعمتان جليلتان فى وقت واحد قابلتهما هذه المحنة، ولولا أساورة الملك ويُمن جده لكنت بعرض هلكة، وعلى ذلك فلو غرقت حتى ذهبت عن جديد الأرض لكان قد أبقى لى الملك ذكراً مخلداً ما بقى الضياء والظلام والجنوب والصبا فسر الملك

بذلك، وقال : ما ظننتك بهذا المقدار الذى أنت فيه، فحشا فاه جوهراً ودراً رائقاً ثميناً، واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره.

وأحسن المواقع من الملوك الاستماع منها، والأخذ عنها ، وقد كانت حكماء اليونانين تقول : إن الواجب على من أقبل عليه ملك أو ذو رياسة بحديث أن يصرف قلبه كله إلى ذلك، وإن كان يعرف الحديث الذى يسمعه من الملك، كأنه لم يسمعه قط، ويظهر السرور بالفائدة من الملك والاستبشار بحديثه، وإن فى ذلك أمرين: أحدهما ما يظهر من حسن أدبه، فإنه يعطى الملك حقه بحسن الاستماع لحديثه والاستغراب له منه كأنه لم يسمعه، وإظهار السرور والاستفادة منه؛ فالنفس إلى الفوائد من الملوك والحديث عنهم أشهى وأقرب منها إلى فوائد السوقة وما أشبهها.

وقد ذكر جماعة من الأخباريين كابن دأب وغيره نحو هذا المعنى عن معاوية بن أبى سفيان، ويزيد بن شجرة الرهاوى، وهو أن ابن شجرة كان يُساير ذات يوم معاوية وكان آنسا به، وإلى حديثه تائقاً ، ومعاوية مقبل عليه يحدثه عن جزعان يوم كان لبنى مخزوم وغيرهم من قريش، كان فيه حرب عظيمة فنى فيه خلق من الناس، وذلك قبل الإسلام ، وقيل : إن ذلك كان قبل الهجرة، وكانت لأبى سفيان فيه مكرمة وسابقة فى الرياسة، وهو أنه لما أشرف الفريقان على الفناء صعد على نشز من الأرض ثم صاح بالفريقين ، وأشار بكمه، فانصرف الفريقان جميعاً انقياداً إلى أمره، وكان معاوية مُعجبا بهذا الحديث، فبينما هو يحدثه به ويزيد بن شجرة مقبل عليه، وقد استخفتهما لذة المحدث والمستمع إذ صك جبين يزيد بن شجرة حجر عائر فأدماه، فجعلت الدما تسيل على وجهه ولحيته وثوبه، وغير ذلك، ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع،

فقال له معاوية : لله أنت يابن شجرة، أما ترى ما نزل بك ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا دم يسيل على ثوبك ، قال : أعتق ما أملك إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهانى حتى غمر فكرى وغطى على قلبى ، فما شعرت بشىء مما حدث، حتى نبهنى عليه أمير المؤمنين، فقال معاوية : لقد ظلمك من جعلك فى ألف من العطاء، وأخرجك عن عطاء أبناء المهاجرين والجماهير ممن حضر معنا بصفين، ثم أمر له وهو فى مسيره بخمسمائة ألف درهم، وزاده فى عطائه ألفا من الدراهم، وجعله بين جلده وثوبه. قال المسعودى : وقد قالت الحكماء فى هذا وأكثرت ، وأمرت بحسن الاستماع والصمت وأطنبت ، فقالوا : لا تحسن المحادثة إلا بحسن الفهم، وقالوا: تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، وحسن الاستماع هو إمهال المحدث حتى ينقضى حديثه. أدب الحديث وواجباته : أن لا يقتضب اقتضاباً، ولا يهجم عليه، وأن يتوصل إلى إجرائه بما يشاكله ، وأن يستنسب له ما يحسن أن يجرى فى عرضه حتى يكون بعض المفاوضة متعلقاً ببعض ، على حسب ما قالوا فى المثل: إن الحديث ذو شجون، يريدون بذلك تشعبه وتفرعه عن أصل واحد إلى وجوه من المعانى كثيرة؛ إذ كان العيش كله في الجليس الممتع، وقال رجل : والله ما أمل الحديث، فقال السامع : إنما يمل العتيق لا الحديث.

وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب أن من الأدب عدم إطالة الحديث من النقديم، وأن أحلى الحديث وأحسنه موقعاً أن تجتنب منة الأحاديث الطوال ذات المعانى المغلغلة والألفاظ الحشوية التى ينقضى باقتصاصها زمان المجلس، وتتعلق بها النفوس ، وتحتسى على أواخرها الكؤوس، فإن ذلك بمجالس القصاص ، أشبه منه بمجالس الخواص.

وكان أول من وقع عليه اسم الوزارة فى دولة بنى العباس أبو سلمة حفص ابن سليمان الخلال الهمدانى، مولى لسبيع ، وكان فى نفس أبى العباس منه شىء؛ لأنه كان حاول فى رد الأمر عنهم إلى غيرهم، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يشير عليه بقتله، ويقول له : قد أحل الله لك دمه؛ لأنه قد نكث وغير وبدل، فقال السفاح : ما كنت لأفتتح دولتى بقتل رجل من شيعتى ، لا سيما مثل أبى سلمة، وهو صاحب هذه الدعوة، وقد عرض نفسه، وبذل مهجته، وأنفق ماله، وناصح إمامه، وجاهد عدوه، وكلمه أبو جعفر أخوه وداود بن على عمه فى ذلك، وقد كان أبو مسلم كتب إليهما يسألهما أن يشيرا على السفاح بقتله، فقال أبو العباس : ما كنت لأفسد كثير إحسانه وعظيم بلائه وصالح أيامه بزلة كانت منه، وهى خطرة من خطر الشيطان، وغفلة من غفلات الإنسان، فقالا له : فينبغى يا أمير المؤمنين أن تحترس منه، فإنا لا نأمنه عليك ، فقال : كلا إن لآمنه فى ليلى ونهارى وسرى وجهرى ووحدتى وجماعتى، فلما اتصل هذا القول من أبى العباس بأبى مسلم أكبره وأعظمه، وخاف من ناحية أبى سلمة أن يقصده بمكروه، فوجه جماعة من ثقات أصحابه فى إعمال الحيلة فى قتل أبى سلمة، وقد كان أبو العباس يأنس بأبى سلمة ويسمر عنده، وكان أبو سلمة فكهاً ممتعاً أديباً عالماً بالسياسة والتدبير، فيقال : إن أبا سلمة انصرف ليلة من عند السفاح من مدينته بالأنبار، وليس معه أحد، فوثب عليه أصحاب أبى مسلم فقتلوه.

وكان أبو مسلم يقال له : أمين آل محمد، وأبو سلمة حفص بن سليمان يدعى وزير آل محمد.

وكان السفاح يعجبه المحادثة، ومفاخرات العرب من نزار واليمن، والمذاكرة بذلك، ولخالد بن صفوان ولغيره من قحطان أخبار حسان، ومفاخرات ومذاكرات ومنادمات ومسامرات مع أبى العباس السفاح.

خلافة أبى جعفر المنصور

بويع أبو جعفر المنصورُ عبدُ الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وهو بطريق مكة، أخذ له البيعة عمه عيسى بن علىّ، ثم لعيسى بن موسى من بعده، يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، والمنصور يومئذ ابن إحدى وأربعين سنة، وكان مولده فى ذى الحجة سنة خمس وتسعين، وكانت أمه أم ولد يقال لها سلامة بربرية ، وكانت وفاته يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة؛ فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة إلا تسعة أيام، وهو حاج عند وصوله إلى مكة في الموضع المعروف ببستان بنى عامر من جادة العراق، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، ودُفن بمكة مكشوف الوجه لأنه كان مُحرمًا، وقيل : إنه مات بالبطحاء عند بئر ميمون، ودُفن بالحجون، وهو ابن خمس وستين سنة، والله أعلم.

سيرة المنصور

ذكر عن سلامة أم المنصور أنها قالت : رأيت لما حملت بأبى جعفر المنصور كأن أسداً خرج من قُبلى فأقعى وزأر وضرب بذنبه، فأقبلت إليه الأسد من كل ناحية، فكلما انتهى إليه أسد منها سجد له.

وحدث على بن محمد المدائنى أن المنصور قال : صحبت رجلا ضريراً إلى الشام وكان يريد مروان بن محمد .

قال وحججت سنة إحدى وأربعين ومائة ، فنزلت على الحمارة فى جبلى زرُود فى الرمل أمشى لنذر كان علىَّ ، فإذا أنا بالضرير، فأومأت إلى من كان

معى أنى يتأخروا ، فتأخروا ، ودنوت منه، فأخذت بيده فسلمت عليه : فقال : من أنت جعلنى الله فداك فما أثبتك معرفة؟ قلت : رفيقك إلى الشام فى أيام بنى أمية وأنت متوجه إلى مروان، فسلم علىّ وتنفس.

فقلت له : كم كان مروان أعطاك ؟ فقال : أغنانى فلا أسأل أحداً بعده، فقلت : كم ؟ فقال : أربعة آلاف دينار وخلع وحملان ، قلت : وأين ذاك ؟ قال : بالبصرة، قلت : أتثبتنى معرفة ؟ قال : أما معرفة الصحبة فقد لعمرى وأما معرفة النسب فلا، فقلت : أنا أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين، فوقع عليه الإفكل ، وقال : يا أمير المؤمنين أعذر فإن ابن عمك محمداً ﷺ قال " جُبلت النفوسُ على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها"، قال أبو جعفر : فهممت والله به ثم تذكرت الحرمة والصحبة، فقلت للمسيب : أطلقه فأطلقه ثم بدا لى فى مُسامرته رأى، فأمرت بطلبه فكأن البيداء أبادته.

وحدث الربيع قال : اجتمع عند المنصور عيسى بن على، وعيسى بن موسى، ومحمد بن على ، وصالح بن على ، وقُثم بن العباس، ومحمد بن جعفر، ومحمد بن إبراهيم، فذكروا خلفاء بنى أمية وسيرهم وتدبيرهم، والسبب الذى به سلبوا عزهم ، فقال المنصور : أما عبد الملك فكان جباراً لا يبالى ما صنع، وأما سليمان فكانت همته بطنه وفرجه، وأما عمر بن عبد العزيز فكان أعور بين عُميان، وكان رجل القوم هشام، ولم تزل بنو أمية ضابطين لما مُهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه، ويصونون ما وهب الله لهم منه مع كسبهم معالى الأمور ورفضهم أدانيها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات، وركوب اللذات ، من معاصى الله عز وجل ؛ جهلاً منهم باستدراجه، وأمنا منهم لمكره، مع اطراحهم صيانة الخلافة، واستخفافهم بحق

الله تعالى وحق الرياسة، وضعفهم عن السياسة، فسلبهم الله العز ، وألبسهم الذل، ونفى عنهم النعمة؛ فقال صالح ابن على : يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هارباً فيمن اتبعه سأل ملك النوبة عن حالهم وهيئتهم وما نزل بهم، وكيف كانت سيرتهم، فأخبره بجميع ذلك ، فركب إلى عبد الله ليسأله عن شيء من أمورهم،

والسبب الذى به زالت النعمة عنهم، وكلمهُ بكلام سقط عنى حفظه، ثم أشخصه عن بلده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به ليحدثه عن أمره فعل ، فأمر المنصور بإحضاره فى مجلسه، فلما مثل بين يديه قال له : يا عبد الله قص علىَّ قصتك وقصة ملك النوبة، قال : يا أمير المؤمنين ، قدمت إلي النوبة، فأقمت بها ثلاثاً ، فأتانى ملكها، فقعد على الأرض وقد أعددت له فراشاً له قيمة فقلت له: ما منعك من القعود على فراشنا ؟ فقال : لأنى ملك، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله عز وجل إذ رفعه الله،

ثم قال : لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا، قال : فلم تطئون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم فى كتابكم ؟ فقلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا لجهلهم، قال : فلم تلبسون الديباج والحرير والذهب وهو محرم عليكم فى كتابكم ودينكم؟ فقلت : ذهب منا الملك فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا، فأطرق إلى الأرض يقلب يده وينكت فى الأرض أخرى ، ويقول : عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا علينا فى ديننا، ثم رفع رأسه فقال : ليس كما ذكرت، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله ، وركبتم ما عنه نُهيتم، وظلمتم فيما ملكتم؛ فسلبكم الله العز، وألبسك الذل بذنوبكم ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها فيكم، وأنا خائف أن

يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فينالنى معكم، وإنما حق الضيافة ثلاث؛ فتزود ما احتجت إليه وارحل عن أرضى ففعلت، فتعجب المنصور وأطرق مليًا، فرق له وهم بإطلاقه، فأعلمه عيسى ابن علي أن فى عنقه بيعة له، فأعاده إلى الحبس.

قال المسعودى : ولعشر سنين خلت من خلافة المنصور توفى أبو عبد الله محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، سنة ثمان وأربعين ومائة، ودفن بالبقيع مع أبيه وجده، وله خمس وستون سنة، وقيل : إنه سم ، وعلى قبورهم فى هذا الموضع من البقيع رخامة عليها مكتوب : بسم الل الرحمن الرحيم، الحمد لله مُبيد الأمم، ومحيى الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن على بن أبى طالب، وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد رضى الله عنهم!

وذكر لأبى جعفر تدبير هشام فى حرب كانت له ، فبعث إلى رجل كان ينزل برُصافة هشام يسأله عن تلك الحرب ، فقدم عليه الرجل، فقال له : أنت صاحب هشام ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : فأخبرنى كيف فعل فى حرب دبرها فى سنة كذا وكذا ، قال : فعل رضى الله عنه فيها كذا وكذا ، وفعل رحمه الله كذا وكذا، فأغاظ ذلك المنصور، فقال له : قم عليك غضب الله، تطأ بساطى وتترحم على عدوى ؟ فقام الشيخ وهو يقول : إن لعدوك قلادة فى عنقى، ومنة في رقبتى لا ينزعها إلا غاسلى، فأمر المنصور برده، وقال : كيف قلت : قال : إنه كفانى الطلب، وصان وجهى عن السؤال ، فلم أقف على باب عربى ولا أعجمى منذ رأيته، أفلا يجب لى أن أذكره إلا بخير وأتبعه بثنائى : فقال : بلى ، لله أم نهضت عنك ! أشهد أنك نهيض حرة وغراس كريم ، ثم استمع منه ،

وأمر له بجائزة ، فقال : يا أمير المؤمنين، ما آخذها لحاجة ، وما هو إلا أن أتبجح بحبائك وأتشرف بصلتك ، فأخذ الصلة، فقال له المنصور : مت إذا شئت، لله أنت ! لو لم يك لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً، وقال لجلسائه بعد خروجه عنه، فى مثل هذا تحسن الصنيعة، ويُوضعُ المعروف، ويُجاد بالمصون ، وأنى فى عسكرنا مثله ؟

ودخل معن بن زائدة على المنصور ، فلما نظر إليه قال : هيه يامعن، تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم .

على قوله :

معن بن زائدة الذى زيدت به　　　شرف على شرف بنو شيبان

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله :

مازلت يوم الهاشمية معلنـا　　　بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته ، وكنت وقاءه　　　من وقـع كل مهنـد وسـنان

فقال : أحسنت يا معن، وكان معن من أصحاب يزيد بن عمر بن هُبيرة، وكان مستتراً حتى كان يوم الهاشمية - وقد كان سعت فيه عدة من أهل خراسان - فإنه حضر وهو مُعتم متلثم، فلما نظر إلى القوم قد وثبوا على المنصور تقدم، ثم جعل يضربهم بالسيف، قدامه، فلما أخرجوا وتفرقوا عنه قال : من أنت : فحسر عن وجهه، وقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة، فلما انصرف المنصور أمنه وحباه وأكرمه وكساه ورتبه.

ودخل معن بن زائدة يوماً على المنصور ، فقال له . ما أسرع الناس إلى حسد قومك!

وذكر ابن عياش المنتوف أن المنصور كان جالساً فى مجلسه المبنى على طاق باب خراسان من مدينته التى بناها وأضافها إلى اسمه، وسماها مدينة المنصور، مُشرفا على دجلة، وكان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة فى الأعلى من طاقة المعقود مجلسًا يُشرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه، وكانت أربعة أبواب شوارع محدقة وطاقات معقودة، فأول أبوابها باب خراسان، وكان يسمى باب الدولة؛ لإقبال الدولة العباسية من خُرَاسان ، ثم باب الشام ، وهو تلقاء الشام ، ثم باب الكوفة ، وهو تلقاء الكوفة، ثم باب البصرة، وهو تلقاء البصرة، بينما المنصور جالس فى هذا المجلس من أعالى باب خُرَاسان إذ جاء سهم عائر حتى سقط بين يديه، فذعر منه المنصور ذعراً شديداً ثم أخذه فجعل يقلبه.

وإذا على جانب السهم مكتوب : همذان منها رجل مظلوم فى حبسك، فبعث من فوره بعدة من خاصته، ففتشا الحبوس والمطابق، فوجدوا شيخا في بنية من الحبس فيه سراج يسرج وعلى بابه بارية مسبلة، وإذا الشيخ مُوثق بالحديد متوجه نحو القبلة يردد هذه الآية ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ فسألوه عن بلده، فقال : همذان ، فحمل ، ووضع بين يدى المنصور، فسأله عن حاله فأخبره أنه رجل من أبناء مدينة همذان، وأرباب نعمها، وأن واليك علينا دخل بلدنا، ولى ضيعة فى بلدنا تُساوى ألف ألف درهم، فأراد أخذها منى ، فامتنعت فكبلنى فى الحديد، وحملنى وكتب إليك أنى عاص، فطرحت فى هذا المكان ، فقال : منذ كم لك فى الحبس ؟ قال : منذ أربعة أعوام ، فأمر بفك الحديد عنه، والإحسان إليه، والإطلاق له ، وأنزله أحسن منزل، ورده إليه ، فقال له : يا شيخ قد رددنا عليك ضيعتك بخراجها ما عشت وعشنا، وأما مدينتك

همذن فقد وليناك عليها. وأما الوالى فقد حكمناك فيه، وجعلنا أمره إليك، فجزاه خيراً ، ودعا له بالبقاء ، وقال : يا أمير المؤمنين أما الضيعة فقد قبلتها، وأما الولاية فلا أصلح لها، وأما واليك فقد عفوت عنه، فأمر له لمنصور بمال جزيل، وبر واسع، واستحله وحمله إلى بلده مكرماً ، بعد أن صرف الوالى وعاقبه على ما جنى من انحرافه عن سنة العدل وواضحة الحق، وسأ الشيخ مكاتبته فى مهماته وأخبار بلده، وإعلامه بما يكون من ولاته على الحرب والخراج.

وقال المنصور يوماً لسالم بن قتيبة : ما ترى فى أمر أبى مسلم ؟ قال : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فقال : حسبك يا ابن قتيبة، لقد أودعتها أذنا واعية.

وقد كان عبد الله بن على خالف على المنصور ، ودعا إلى نفسه من كان معه من أهل الشام وغيرهم ، فبايعوه وزعم أن السفاح جعل الخلافة من بعده لمن انتدب لقتل مروان ، فلما بلغ المنصور ذلك من فعل عبد له كتب إليه : سأجعل نفسى منك حيث جعلتها وللدهر أيام لهن عواقب ثم بعث إليه بأبى مسلم، فكانت له معه حروب كثيرة ببلاد نصيبين في الموضع المعروف بدير الأعور، وصبر الفريقان جميعا شهوراً على حربها، واحتفرا الخنادق، ثم انهزم عبد الله بن على فيمن كان معه، وسار فى نفر من خواصه إلى البصرة، وعليها أخوه سليمان بن علي عم المنصور، فظفر أبو مسلم بما كان فى عسكر عبد الله، فبعث إليه المنصور بيقطين بن موسى لقبض الخزائن ،

فلما دخل يقطين على أبى مسلم قال : السلام عليك أيها الأمير، قال : لا سلم الله عليك يا ابن اللخناء ! أوتمن على الدماء ولا أوتمن على الأموال ؟ فقال له: ما أبدى هذا منك أيها الأمير ؟ قال : أرسلت صاحبك لقبض مافى يدى من

الخزائن ، فقال له : امرأته طالق ثلاثا إن كان أمير المؤمنين وجهني إليك لغير تهنئتك بالظفر، فاعتنقه أبو مسلم، وأجلسه إلى جانبه، فلما انصرف قال لأصحابه : والله إني لأعلم أنه قد طلق زوجه ثلاثا ولكنه وفى لصاحبه.

خلاف أبي مسلم للمنصور وقتله

وسار أبو مسلم من الجزيرة وقد أجمع على خلاف المنصور، واجتاز على طريق خراسان متنكباً للعراق يريد خراسان ، وسار المنصور من الأنبار يريد المدائن، نزل برومية المدائن التي بناها كسرى ، وكتب إلى أبي مسلم، إني قد أردت مذاكرتك بأشياء لم يحتملها الكتاب، فاقبل فإن مقامك عندنا قليل ، فقرأ الكتاب ومضى على حاله ، فسرح إليه المنصور جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، وكان واحد أهل زمانه، وداهية عصره، وكانت المعرفة بينه وبين أبي مسلم قديمة بخراسان ، فأتاه فقال : أيها الأمير، ضربت الناس عن عرض لأهل هذا البيت، ثم تنصرف على هذه الحالة ؟

ما أمن أن يعيبك من هناك ومن ههنا، وأن يقال : طلب بثأر قوم ثم نقض بيعتهم، فيخالفك من تأمن مخالفته إياك ، وإن الأمر لم يبلغ عند خليفتك ما تكره، ولا أرى أن تنصرف على هذه الحال، فأراد أن يجيب إلي الرجوع ، فقال له مالك بن الهيثم : لا تفعل ، فقال لمالك : ويلك !! لقد بليت بإبليس وما بليت بمثل هذا قط، يعني الجريري ، فلم يزل به حتى أقبل به على المنصور ، وكان أبو مسلم يجد خبره في الكتب السالفة ونعته وأنه يقتل بالروم، وكان يكثر من قول ذلك، وأنه يقتل بالروم على حسب ما وجد في الملاحم وأنه يميت دولة ويحيي أخرى ، فلما دخل على المنصور وقد تلقاه الناس رحب به وعانقه قال له : كدت

أن تمضى قبل أن أقضى عليك بما أريد، قال : فقد أتيت ياأمير المؤمنين فأمر بأمرك، فأمر بالانصراف إلى منزله، وانتظر فيه الفرص والغوائل، فركب أبو مسلم إلى المنصر مراراً وهو لا يظهر له شيئًا ، ثم ركب وقد أظهر له التجنى ، فسار أبو مسلم إلى عيسى بن موسى، وكان له فيه رأى جميل، فسأله الركوب معه إلى المنصور ليعذله بحضرته، فأمره أن يتقدمه إلى المنصور فإنه بالأثر ، فتقدم أبو مسلم إلى مضرب المنصور، وهو على دجلة برومية المدائن، فدخل وجلس تحت الشراع - وقيل الرواق - فأخبر أن المنصور يتوضأ للصلاة ،

وكان المنصور قد تقدم إلى صاحب حرسه عثمان بن نهيك فى عدة فيهم شبيب ابن رواح المروروذى وأبو حنيفة حرب بن قيس، وأمرهم أن يقوموا خلف السرير الذي كان وراء أبى مسلم وأمرهم أنه إذا عابه وظهر صوته لا يظهروا، فإذا صفق بيد على يد فليظهروا، وليضربوا عنقه وما أدركوا منه بسيوفهم، وجلس المنصور، فقام أبو مسلم من موضعه ودخل فسلم عليه، فرد عليه ، وأذن له بالجلوس، وحادثه ساعة، ثم أقبل يعاتبه ويقول : فعلت وفعلت ، فقال أبو مسلم: ليس يقال هذا لى بعد بلائى وما كان منى، فقال له : يا ابن الخبيثة وإنما فعلت ذلك بجدنا وحُظوظنا، ولو كان مكانك أمة سوداء لأجزت ، ألست الكاتب إلى تبدأ بنفسك ، والكاتب إلى تخطب آسية بنت على وبرعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ؟ لقد ارتقيت لا أم لك مُرتقى صعبًا، فأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعتذر إليه ، فقال المنصور ، وهو آخر ما كلمه به : قتلنى الله إن لم أقتلك ، وذكر له قتله لسليمان ابن كثير ، ثم صفق بإحدي يديه على الأخرى ، فخرج إليه القوم ، فبدره عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف قطعت نجاد سيف أبى مسلم، وضربه شبيب بن راح فقطع رجله، واعتورته السيوف،

فخطت أجزاؤه ، وأتوا عليه، والمنصور يصيح : اضربوا قطع الله أيديكم، وقد كان أبو مسلم عند أول ضربة قال : استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك، قال : لا أبقانى الله أبدًا إن أبقيتك ! وأى عدو أعدى لى منك ؟

وكان قتله فى شعبان من سنة ست وثلاثين ومائة ، وفيها كانت بيعة المنصور، وهزيمة عبد الله بن على ، وأدرج أبو مسلم فى بساط.

ودخل عيسى بن موسى فقال : يا أمير المؤمنين ، أين أبو مسلم ؟ فقال : قد كان ههنا آنفًا، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد عرفت طاعته ونصيحته، ورأى إبراهيم الإمام فيه، فقال له المنصور: يأنوك خلق الله ما أعلم فى الأرض عدواً أعدى لك منه، هاهو ذاك فى البساط، فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون.

ودخل عليه جعفر بن حنظلة فقال له المنصور : ما تقول فى أمر أبى مسلم فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخذت من رأسه شعرة اقتل ثم اقتل ثم اقتل، فقال المنصور : وفقك الله ! ها هو فى البساط، فلما نظر إليه قتيلا قال : يأمير المؤمنين، عُد هذا اليوم أول خلافتك، وقد كان السفاح هم بقتله برأى المنصور ثم رجع عن قتله، وأقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم بين يديه طريحا.

ودعا المنصور بنصر بن مالك ، وكان على شرطة أبى مسلم، فقال : استشارك أبو مسلم بالمسير إلىَّ فنهيته ؟ قال : نعم ، قال : ولم ؟ قال : سمعت أخاك إبراهيم الإمام يحدث عن أبيه قال : لا يزال المرء يزداد فى عقله إذا ما محض النصيحة لمن شاوره، فكنت له كذلك، وأنا الآن لك كذلك.

واضطرب أصحاب أبى مسلم ففرقت فيهم الأموال، وعلموا بقتله، فأمسكوا رغبة ورهبة.

وخطب المنصور الناس بعد قتله أبا مسلم فقال : أيها الناس، لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة ، فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته فى فلتات لسانه، وسقطات أفعاله، وأبداها الله لإمامه الذى بادر بإعزاز دينه به ، وإعلاء حقه بفلجه، إنا لم نبخسكم حقوقكم ، ولم نبخس الدين حقه عليكم، إن من نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه ما فى هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح لنا دمه، ثم نكث بيعته ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

ولما نمى قتل أبى مسلم إلى خُرَاسان وغيرها من الجبال اضطربت الخرمية، وهى الطائفة التى تدعى بالمسلمية القائلون بأبى مسلم وإمامته، وقد تنازعوا فى ذلك بعد وفاته : فمنهم من رأى أنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلا، وفرقة قطعت بموته وقالت بإمامة ابنته فاطمة، وهؤلاء يُدعون الفاطمية، وأكثر الخرمية الكردكية واللود شاهية وهاتان الفرقتان أعظم الخرمية، ومنهم كان بابك الخرمى الذى خرج على المأمون والمعتصم بالبدين من أرض الران وأذربيجان،

وأكثر الخرمية ببلاد خراسان والرى وإصبهان وأذربيجان وكرج أبى دُلف والبرج الموضع المعروف بالرذ والورسنجان ثم ببلا الصيروان والصيمرة وأريوجان من بلاد ماسبذان وغيرها من تلك الأمصار، أكثر هؤلاء فى القرى والضيا ع، وسيكون لهم عند أنفسهم شأن وظهور يراعونه وينتظرونه فى المستقبل من الزمان ، ويعرفون هؤلاء بخراسان وغيرها بالباطنية، فاجتمعت الخرمية ـ حين علمت بقتل أبى مسلم ـ بخراسان ، فخرج فيهم رجل يقال له بسنفاد من

نيسابور يطلب بدم أبى مسلم فسار فى عسكر عظيم من بلاد خراسان إلى الرى، فغلب عليها وعلى قومس وما يليها، وقبض على ما كان بالرى من خزائن أبى مسلم، فكثر جمع بسنفاد بمن حوله من أهل الجبال وطبرستان، ولما اتصل خبر مسيرهم بالمنصور سرح إليه جمهور بن مرار العجلى فى عشرة آلاف رجل ، وتلاه بالعساكر، فالتقوا بين همذان والرى على طرف المفازة، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً ، فقتل بسنفاد ، وولي أصحابه ؛ فقتل منهم ستون ألفاً وسبي منهم سبايا وذرارى كثيرة، وكان بين خروجه إلى مقتله سبعون ليلة، وذلك فى سنة ست وثلاثين ومائة بعد قتل أبى مسلم بأشهر.

وفى سنة خمس وأربعين ومائة كان ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبي طالب رضى الله عنهم بالمدينة، وكان قد بويع له فى كثير من الأمصار ، وكان يُدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه ، وكان مستخفياً من المنصور، ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم ، ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة دعا المنصور إسحاق بن مسلم العقيلى ، وكان شيخاً ذا رأى وتجربة، فقال له : أشر علىّ فى خارجى خرج على ، قال : صف لى الرجل ، قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ ذو علم وزهد وورع ، قال : فمن تبعه ؟ قال : ولد على وولد جعفر وعقيل وولد عمر ابن الخطاب وولد الزبير بن العوام وسائر قريش وأولاد الأنصار، قال له : صف لى البلد الذى قام به ، قال : بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة، ففكر ساعة ثم قال : اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال، فقال المنصور فى نفسه : قد خرف الرجل : أسأله عن خارجى خرج بالمدينة يقول لى اشحن البصرة بالرجال،

فقال له : انصرف ياشيخ، ثم لم يكن إلا يسير حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة، فقال المنصور على بالعقيلى ، فلما دخل عليه أدناه ثم قال له : إنى كنت قد شاورتك فى أمر خارجي خرج بالمدينة فأشرت على أن أشحن البصرة بالرجال أو كان عندك من البصرة علم ؟ قال : لا ، ولكن ذكرت ى خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد، ثم ذكرت لى البلد الذى هو فيه فإذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلت : إنه رجل سيطلب غير موضعه، ففكرت فى مصر فوجدتها مضبوطة، والشام والكوفة كذلك، وفكرت فى البصرة فخفت عليها منه لخلوها ، فأشرت بشحنها،

فقال له المنصور : أحسنت ، وقد خرج بها أخوه ، ما الرأي فى صاحب المدينة ؟ قال : ترميه بمثله، إذا قال : أنا ابن رسول الله ﷺ ، قال هذا : وأنا ابن عم رسول الله ﷺ ، فقال المنصور لعيسى بن موسى : إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش، وإما أن تكفينى ما أخلف ورائى وأخرج أنا إليه، فقال عيسى : بل أقيك بنفسى يا أمير المؤمنين، وأكون الذى يخرج إليه، فأخرجه إليه من الكوفة فى أربعة آلاف فارس وألفى راجل، وتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف، فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة، ولما اتصل بإبراهيم قتل أخيه محمد بن عبد الله وهو بالبصرة صعد المنبر فنعاه.

وقد كان تفرق إخوة محمد وولده فى البلدان يدعون إلى إمامته؛ فكان فيمن توجه ابنه علي بن محمد إلى مصر، فقتل بها، وسار ابنه عبد الله إلي خراسان فهرب لما طلب إلى السند، فقال هناك، وسار ابنه الحسن إلى اليمن ؛ فحبس فمات فى الحبس ، وسار أخوه موسي إلى الجزيرة، ومضى أخوه يحيي الرى ثم إلى طبرستان، ومضى أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب فأجابه

خلق من الناس، وبعث المنصور من اغتاله بالسم فيما احتوى عليه من مدن المغرب ، وقام ولده إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مقامه فعرف البلد بهم، فقيل : بلد إدريس بن إدريس، وبنائه المدينة المعروفة بالمهدية ، ومضى إبراهيم أخوه إلى البصرة وظهر بها ، فأجابه أهل فارس والأهواز وغيرهما من الأمصار وسار من البصرة فى عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة ممن يذهب إلي قول البغداديي من المعتزلة وغيرهم، ومعه عيسى بن زيد بن على بن الحسن بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فسير إليه المنصور عيسى ابن موسى وسعيد بن سلم فى العساكر، فحارب حتى قتل فى الموضع المعروف بباخمرى، ذلك على ستة عشر فرسخاً من الكوفة من أرض الطفّ .

وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعمائة رجل ، وقيل : خمسمائة رجل.

وروى بعض الأخباريين عن حماد التركى قال : كان المنصور نازلا فى دير على شاطئ دجلة فى الموضع الذى يسمى الخلد، ومدينة السلام ، إذ أتى الربيع فى وقت الهاجرة، والمنصور نائم فى البيت الذى هو فيه، وحماد قاعد على الباب والخريطة بيد الربيع، بخروج محمد بن عبد الله فقال : يا حماد افتح الباب، فقال : الساعة هجع أمير المؤمنين ، فقال : افتح ثكلتك أمك، قال : فسمع المنصور كلامه، فنهض يفتح الباب بيده وتناول منه الخريطة، فقرأ ما يها من الكتب وتلا هذه الآية : ﴿ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فساداً، والله لايحب المفسدين ﴾ .

ثم أمر بإحضار الناس والقواد والموالى وأهل بيته وأصحابه، وأمر حمادا التركى بإسراج الخليل، وأمر سليمان بن مجالد بالتقدم، والمسيب بن زهير فأخرج الأقوات ثم خرج فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبى ﷺ .

أما والله لقد عجزوا عن أمر قمنا له، فما شكروا القائم ولا حمدوا الكافى، ولقد مهدوا فاستوعروا ، وغبطوا فغمطوا، فماذا تحاول منى ؟ أسقى رنقاً على كدر ؟ كلا والله ، لأن أموت معززاً أحب إلى من أن أحيا مستذلا، ولئن لم يرض العفو منى ليطلبن مالا يوجد عندى ، والسعيد من وعظ بغيره ، ثم قال : يا غلام ، قدم ، فركب من فوره إلى معسكره، وقال : اللهم لا تكلنا إلي خلقك فنضيع، ولا إلي أنفسنا فنعجز فلا تكلنا إلا إليك.

وذكر أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر فاستطابها، فقال : أراد إبراهيم أن يحرمنى هذا وأشباهه.

وذكر أن المنصور قال يوماً لجلسائه بعد قتل محمد وإبراهيم : تالله ما رأيت رجلا أنصح من الحجاج لبنى مروان ، فقام المسيب بن زهير الضبى فقال: يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الأرض خلقاً أعز علينا من نبينا ﷺ ، وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك، وفعلا ذلك ، فهل نصحناك أم لا ؟ فقال له المنصور : اجلس لا جلست.

وكان قبض على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على رضى الله عنه ومحمد وإبراهيم ابنى عبد الله وعلى كثير من أهل بيته، وذلك فى سنة أربع وأربعين ومائة فى مُنصرفه من الحج، فحملا من المدينة إلي الزبدة من جادة

العراق، وكان ممن حمله مع عبد الله بن الحسن إبراهيم بن الحسن بن الحسن، وأبو بكر بن الحسن بن الحسن، وعلى الخير، وأخوه العباس، وعبد الله بن احسن بن الحسن والحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين بن على ، وجدتهما فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

فجرد المنصور بالربذة محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان فضربه ألف سوط، وسأله عن ابنى أخيه محمد وإبراهيم ، فأنكر أن يعرف مكانهما، فسألت جدته العثمانى فى ذلك الوقت ، ارتحل المنصور عن الربذة وهو فى قبة، وأوهن القوم بالجهد ، فحملوا على المحامل المكشوفة ، فمر بهم المنصور فى قبته على الجمازة فصاح به عبد الله بن الحسن : يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر، فصيرهم إلى الكوفة ، وحبسوا فى سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل، وخلى منهم سليمان وعبد الله ابنى داود بن الحسن ابن الحسن وموسى بن عبد الله بن الحسن والحسن بن جعفر، وحبس الآخرين ممن ذكرناهم حتى ماتوا، وذلك على شاطئ الفرات بالقرب من قنطرة الكوفة، وكان قد هدم عليهم الموضع، وكانوا يتوضؤن فى مواضعهم فاشتدت عليهم الرائحة ، فاحتال بعض مواليهم حتى أدخل إليهم شيئاً من الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المنتنة ، وكان الورم يبدو فى أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفؤاد فيموت صاحبه .

وذكر من وجه آخر أنهم لما حبسوا فى هذا الموضع أشكل عليهم أوقات اصلاة فجزؤا القرآن خمسة أجزاء ، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من حزبه، وكان عدد من بقى منهم خمسة ، فمات إسماعيل بن الحسن،

فترك عندهم حتى جيف، فصعق داود بن الحسن فمات، وأتى برأس إبراهيم بن عبد الله فوجه به المنصور مع الربيع إليهم، فوضع الرأس بين أيديهم وعبد الله يصلى فقال له إدريس أخوه : أسرع فى صلاتك يا أبا محمد، فالتفت إليه وأخذ الرأس فوضعه فى حجره وقال له : أهلا وسهلا يا أبا القاسم، والله لقد كنت ما علمتك - من الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ - إلى آخر الآية. فقال له الربيع : كيف أبو القاسم فى نفسه .

ثم التفت إلى الربيع فقال له : قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعيمك أيام ، والملتقي يوم القيامة، قال الربيع : ما رأيت المنصور قط أشد انكساراً منه فى الوقت الذي بلغته فيه هذه الرسالة.

قال المسعودى : ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته صعد المنبر بالهاشمية، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على محمد ﷺ ، ثم قال : يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دعوتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا، إن ولد ابن أبى طالب تركناهم والذى لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه فما أفلح، وحكم الحكمين؛ فاختلفت عليه الأمة، وافترقت الكلمة،

ثم وثب عليه شيعه وأنصاره وثقاته فقتلوه، ثم قام بعده الحسن بن على رضى الله عنه فوالله ما كان برجل ، عرضت عليه الأموال فقبلها، ودس إليه معاوية إنى أجعلك ولى عهدى ، فخلعه وانسلخ له مما كان فيه، وسلمه إليه،

وأقبل على النساء يتزوج اليوم واحدة ويطلق غداً أخرى ، فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن على رضى الله عنه، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن، أهل هذه المدرة السود ، وأشار إلى الكوفة ، فوالله ما هى لى بحرب فأحاربها، ولا هى لى بسلم فأسالمها، فرق الله بينى وبينها ! فخذله وأبرؤوا أنفسهم منه ، فأسلموه حتى قتل، ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه، فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه، وقد كان أبى محمد بن على ناشده الله فى الخروج ،

وقال له : لا تقبل أقاويل أهل الكوفة فإنا نجد فى علمنا أن بعض أهل بيتنا يُصلب بالكناسه، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب، وناشده الله بذلك عمى داود وحذره رحمه الله غدر أهل الكوفة. فلم يقبل، وتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة، ثم وثب بنو أمية علينا فابتزونا شرفنا، وأذهبوا عزنا، والله ما كان لهم عندنا برة يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد، فصرنا مرة بالطائف، ومرة بالشام، ومرة بالسراة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم، يا أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل وأظهر لنا حقنا، وأصار إلينا أمرنا وميراثنا من نبينا ﷺ ، فقر الحق فى قراره ، وأظهر الله مناره، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا عينا حسداً منهم لنا وبغياً علينا ،

بما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه، وجبناً من بنى أمية، وجراءة علينا، إنى والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر من جهالة ولا عن ظنة ولقد كنت تبلغنى عنهم بعض السقم ولقد كنت سميت لهم

رجالا فقلت : قم أنت يا فلان ، فخذ معك من المال كذا وكذا ، وقم أنت يا فلان فخذ معك من المال كذا وكذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوا المدينة فلقوهم فدسوا ذلك المال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم لى ، فاستحللت به دماءهم، وحلت عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على ، ثم قرأ فى درج المنبر (وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا فى شك مريب).

قال المسعودى : وقال المنصور للربيع يوماً : اذكر حاجتك ، قال : يا أمير المؤمنين ، حاجتى أن تحب الفضل ابنى فقال له : ويحك !! إن المحبة إنما تقع بأسباب، قال : يا أمير المؤمنين، قد أمكنك الله من إيقاع السبب ، قال : وما ذاك ؟ قال : تُفضل عليه ، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك، وإذا أحبك أحببته قال : والله قد أحببته قبل إيقاع السبب ، ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شىء ؟ قال : لأنك إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه، وصغر عندك كبير إساءته، وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان، وحاجته إليك كحاجة الشفيع العريان.

وقال المنصور يوما للربيع : ويحك يا ربيع !! ما أطيب الدنيا لولا الموت، قال له : ما طابت إلا بالموت ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لولا الموت لم تقعد هذا المقعد، قال : صدقت.

وذكر إسحاق بن الفضل قال : بينما أنا على باب المنصور إذ أتى عمرو بن عبيد فنزل عن حماره، وجلس ، فخرج إليه الربيع ، فقال له : قم أبا عثمان، بأبى أنت وأمى ؟ فلما دخل على أبى جعفر أمر أن تفرش له لُبود بقربه، وأجلسه إليه بعدما سلم ، ثم قال : يا أبا عثمان ، عظنى بموعظة، فوعظه ؟ بمواعظ ، فلما أراد النهوض قال : أمرنا لك بعشرة آلاف ، قال : لا حاجة لى فيها، قال

أبو جعفر : والله لتأخذنها، قال : لا والله لا آخذها، وكان المهدى حاضراً، فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت عمرو إلى أبى جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد ابنى ، وهو المهدى ، وهو ولى عهدى ، قال : أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو م لباس الأبرار، ولقد سميته باسم ما استحقه عملا، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه، ثم أقبل عمرو على المهدى فقال : نعم يا ابن أخى ، إذا حلف أبوك أحنثه عمك، لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك، فقال له المنصور : هل لك م حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم ، قال : ما هى ؟ قال : أن لا تبعث إلى حتى آتيك، قال : إذاً لا نلتقى، قال : هى حاجتى ، فمضى وأتبعه المنصور بطرفه، ثم قال :

كلكم يمشى رويد   كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور بعد ما بايع للمهدى ، فقال له : يا أبا عثمان هذا ابن أمير المؤمنين، وولىُّ عهد المسلمين، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين، أراك قد وطدت له الأمور، وهى تصير إليه ، وأنت عنه مسئول ، فاستعبر المنصور وقال له ، عظنى يا عمرو ، قال : يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، وإن هذا الذى أصبح في يديك لو بقى في يد غيرك لم يصل إليه، فاحذر ليلة تمخض بيوم لا ليلة بعده.

ومات عمرو بن عبيد فى أيام المنصور سنة أربع وأربعين ومائة وقيل سنة خمس وأربعن ومائة ويكنى أبا عثمان، وهو عمرو بن عبيد بن باب ، مولى بنى تميم، وكان جده باب من سبى كابل من رجال السند، وكان شيخ المعتزلة فى وقته ومفتيها، وله خطب ورسائل، وكلام كثير فى العدل والتوحيد وغير ذلك.

وفى سنة إحدى وأربعين ومائة شخص المنصور إلى بيت المقدس فصلى فيه لنذر كان عليه وانصرف.

وفى سنة ست وأربعين ومائة مات هشام بن عروة بن الزبير وهو ابن خمس وثمانين ، وكان إذا أسمعه رجل كلاماً قال : أنا أرفع نفسى عنك، ثم نازع على بن الحسن، فأسرع إليه هشام، فقال له على : إنى أدعوك إلى ما كنت تدعو إليه.

وفى سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة بن ثابت مولى تيم اللات من بكر بن وائل فى أيام المنصور ببغداد، توفى وهو ساجد فى صلاته، وهو ابن تسعين سنة وفيها مات عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المكىُّ ، مولى خالد ابن أسيد، ويكنى أبا الوليد، وهو ابن سبعين سنة، وفيها مات محمد بن إسحاق بن يسار مولى قيس بن محرمة من بنى المطلب، ويكى أبا عبد الله، ويقال مات سنة إحدى ، ويقال : سنة اثنتين وخمسين ومائة.

وفى سنة سبع خمسين مات الأوزاعى، ويكنى أبا عمرو عبد ارحمن ب عمرو من أهل الشام، وإنما كان منزله فيهم، ولم يكن منهم، وذلك بدمشق فأضيف إليهم، وكان من سبى أهل اليمن فى آخر أيام المنصور، وله تسعون سنة.

وفى أيام المنصور مات ليث بن أبى سليم الكوفى، مولى عنبسة بن أبى سفيان، سنة ثمان وخمسين ومائة وفى سنة ست وخمسين ومائة مات سوار بن عبد الله القاضى، وفى سنة أربع وخمسين ومائة مات أبو عمرو بن العلاء فى أيام المنصور، وهو عالم القراءات واللغة المشهور .

وطال حبس عبد الله بن على بأمر المنصور، وأقام فى محبسه تسع سنين، وقيل غير ذلك فلما أراد المنصور الحج فى سنة تسع وأربعين ومائة حوله من عنده إلى عيسى بن موسى، وأمره بقتله، وأن لا يعلم بذلك أحداً، فبعث عيسى بن موسى إلى بن أبى ليلى وابن شبرمة ، فشاورهما فى ذلك، فقال بن أبى ليلى : امض بما أمرك به أمير المؤمنين، وقال بن شبرمة : لا تفعل، فأبى أن يقتله، وأظهر لأبى جعفر أنه قتله، وشاع ذلك، وكلم بنو على المنصور فى أخيهم عبد الله ، فقال لهم : هو عند عيسى بن موسى ، فلما قدموا مكة أتوا عيسى بن موسى فسألوه عنه ؛ فقال : قد قتله، فرجعوا إلى أبى جعفر، فقالوا : زعم عيسى أنه قد قتله فاظهر أبو جعفر الغضب على عيسى . وقال : يقتل عمى ؟ والله لأقتلته، وكان أبو جعفر أحب أن يكون عيسى قتله فيقتله به فيستريح منهما جميعاً، قال: فدعا به ، فقال : لم قتلت عمى ؟ قال : أنت أمرتنى بقتله، قال : لم أمرك بذلك، فقال : هذا كتابك إلىّ فيه، قال : لم أكتبه، فلما رأى الجد من المنصور، وتخوف على نفسه. قال : هو عندى لم أقتله، قال : ادفعه إلى أبى الأزهر المهلب ابن أبى عيسى، دفعه إليه، فلم يزل عنده محبوساً، ثم أمره بقتله، فدخل عليه ومعه جارية له فبدأ بعبد الله فخنقه حتى مات، ثم مده على الفراش، ثم أخذ الجارية ليخنقها فقالت : يا عبد الله ، قتلة غير هذه، فكان أبو الأزهر يقول : مارحمت أحداً قتلته غيرها، فصرفت وجهى عنها، وأمرت بها فخنقت ، ووضعتها معه على الفراش، وأدخلت يدها تحت جنبه ويده تحت جنبها كالمعتنقين، ثم أمرت بالبيت فهدم عليهما، ثم أحضرنا القاضى ابن علاثة وغيره فنظروا إلى عبد الله والجارية معتنقين على تلك الحال، ثم أمر به فدفن فى مقبرة أبى سويد بباب الشام من بغداد فى الجانب الغربى.

قال المسعودى : وذكر عبد الله بن عياش المنتوف قال : قال المنصور يوماً ونحن عنده : أتعرفون جباراً أول اسمه عين قتل جباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين ، وجباراً أول اسمه عين ؟ قال : قلت : نعم يا أمير المؤمنين، عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فقال المنصور : أتعرفون خليفة أول اسمه عين قتل جباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين، وجباراً أول اسمه عين ؟ قلت: نعم ، أنت يا أمير المؤمنين، قتلت عبد الرحمن بن مسلم ، وعبد الجبار بن عبد الرحمن، وعمك عبد الله ابن على سقط عليه البيت، قال : فما ذنبى إن كان سقط عليه البيت ؟ قلت : لا ذنب لك ، فتبسم .

وفاة المنصور

وكان مولد المنصور فى السنة التى مات فيها الحجاج بن يوسف، وهى سنة خمس وتسعين، وكان يقول : ولدت فى ذى الحجة، وأعذرت فى ذى الحجة ، ووليت الخلافة فى ذى الحجة، وأحسب المنية تكون فى ذى الحجة، فكان كما ذكر.

وحدث الفضل بن الربيع قال : كنت مع المنصور فى السفر الذى مات فيه فنزل منزلا من المنازل ، فبعث إلىَّ وهو فى قبة ووجهه إلى الحائط ، فقال لى : ألم أنهك أن تدع العامة يدخلون هذه المنازل فيكتبوا فيها مالا خير فيه ؟ قلت : وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال : أما ترى على الحائط مكتوباً :

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنِوك ، وأمر اللـه لابد نـازل

قال : قلت : والله ما أرى على الحائط شيئاً، وإنه لنقى أبيض، قال والله ،

قلت : والله ، قال : إنها والله إذا نفسى نعيت إلى الرحيل، بادر فى إلى حرم ربى وأمنه هارباً من ذنوبى وإسرافى على نفسى. فرحلنا وقد ثقل، حتى إذا بلغنا بئر ميمون ، قلت له : هذه بئر ميمون، وقد دخلت الحرم قال : الحمد لله فتوفى بها .

وكان المنصور من الحزم وصواب الرأى وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف، وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزماً، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعاً، وكان كما قال زياد : لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره، وخلف أبو جعفر ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار، وكان مع هذا يضن بماله، وينظر فيما لاينظر فيه العوام، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرءوس والأكارع والجلود، وعليه الحطب والتوابل، ومن كرمه أنه وصل عمومته وهم عشرة فى يوم واحد بعشرة آلاف درهم، وأسماؤهم : عبد الله بن على ، وعبد الصمد بن على وإسماعيل بن على ، وعيسى بن على ، وداود بن على ، وصالح بن على ، وسليمان بن على ، وإسحاق بن على ، ومحمد بن على ، ويحيى بن على ، وكان يعمل فى بناء مدينة بغداد التى بناها وعرفت به فى كل يوم خمسون ألف رجل.

وكان له من الولد : المهدى وجعفر، وأمهما أم موسى الحميرية، وتوفى جعفر فى حياة أبيه المنصور، وسليمان وعيسى ويعقوب وجعفر الأصغر، من كردية، وصالح الملقب بالمسكين، وبنت تسمى عالية.

قال المسعودى : وللمنصور أخبار حسان مع الربيع وعبد الله بن عياش وجعفر بن محمد وعمرو بن عبيد وغيرهم، وله خطب ومواعظ وسير وسياسات فى الملك، قد أتينا على أكثرها .

خلافة المهدى محمد بن عبد الله

بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس

ويكنى أبا عبد الله، وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله بن ذى سهم بن أبى سرح، من ولد ذى رُعين من ملوك حِمْيَر.

أخذ له البيعة بمكة الربيع مولاه يوم السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وأتاه بنعى أبيه وبيعته منارة مولاه، فأقام يومين بعد ذلك، ثم خطب الناس فنعى أباه ودعا إلى بيعته وبويع بيعة العامة، وكان مولده سنة سبع وعشرين ومائة، وخرج من مدينة السلام فى سنة تسع وستين ومائة يريد بلاد قرماسين من بلاد الدينور، وقد وصف له طيب ماسبذان من بلاد السيروان وجرجان، فعدل إلى الموضع المعروف بأرزن والران، فمات بقرية يقال لها ردين ليلة الخميس لسبع بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة، فكانت خلافته عشر سنين وشهراً وخمسة عشر يوماً، وقبض وله ثلاث وأربعون سنة، وصلى عليه هارون الرشيد ، وكان موسى الهادى غائباً بجرجان، وقيل : إنه مات مسموماً فى قطائف أكلها، ولبست حُسنة جاريته وغيرها من حمشه المسوحَ والسواد جزعا عليه.

سيرة المهدى

ذكر الفضل بن الربيع قال : دخل شريك القاضى على المهدى يوماً فقال له : لابد أن تجيبنى إلى خصلة من ثلاث خصال قال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : إما أن تلى القضاء، أو تحدث ولدى وتعلمهم، أو تأكل عندى أكلة، ففكر ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسى فاحتسبه وقدم إلى الطباخ أن يصلح له

ألوانا من المخ المعقود بالسكر الطبرزذ والعسل، فلما فرغ من غدائه قال له القيم على المطبخ: يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً، قال الفضل بن الربيع : فحدثهم والله شريك بعد ذلك، وعلم أولادهم، وولى القضاء لهم، ولقد كتب بأرزاقه إلى الجهبذ فضايقه فى النقص، فقال له الجهبذ : إنك لم تبع بزاً ، قال له شريك : بلى والله لقد بعت أكبر من البز، لقد بعت دينى.

وقال الفضل بني الربيع : خرج المهدى متنزها ومعه عمرو بن ربيع مولاه، وكان شاعرا، فانقطع عن العسكر، والناس فى الصيد، وأصاب المهدى جوع شديد، فقال لعمرو : ويحك ! ارتد لى إنساناً نجد عنده ما نأكل، فما زال عمرو يطوف إلى أن وجد صاحب مبقلة وإلي جانبها كوخ له ، فصعد إليه فقال له : هل عندك شئ يؤكل ؟ قال : نعم، رقاق من خبز شعير ورثيثة، وهذا البقل والكراث، فقال له المهدى : إن كان عندك زيت فقد أكملت ، قال : نعم عندى فضلة منه، فقدم إليهما ذلك ، فأكلا أكلا كثيراً، وأمعن المهدى حتى لم يبق فيه فضلة.

ووافى العسكر، ولحقته الخزائن والخدم والموكب ، فأمر لصاحب المبقلة بثلاث بدر دراهم[1].

قال : وعار به فرسه مرة أخرى ، وقد خرج للصيد، فدفع إلى خباء أعرابى وهو جائع، فقال يا أعرابى هل عندك قِرى فإنى ضيفك ؟ قال : أراك طريرا جسيما عميما، فإن احتملت الموجود قربنا لك ما يحضرنا، قال : هات ما عندك فأخرج له خبز ملة، فأكلها ، وقال : طيبة، هات ما عندك ، فأخرج إليه

(١) البدرة كيس به عشرة آلاف درهم .

لبنا فى كرش فسقاه ، فشرب، وقال : طيب ، هات ما عندك فأخرج له فضلة نبيذ فى ركوة، فشرب الأعرابى واحداً وسقاه: فلما شرب قال المهدى : أتدرى من أنا ؟ قال : لا والله ، قال : أنا من خدم الخاصة، قال : بارك الله فى موضعك وحباك من كنت، ثم شرب الأعرابى قدحًا وسقاه ، فلما شرب قال له : يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : نعم ذكرت أنك من خدم الخاصة، قال : لست كذلك قال : فمن أنت ؟

قال : أنا أحد قواد المهدى ، قال : رحبت دارك ، وطاب مزارك، ثم شرب الأعرابى قدحًا وسقاه: فلما شرب الثالث قال : يا أعرابى، أتدرى من أنا ؟ قال : نعم ، زعمت أنك أحد قواد المهدى ، قال : فلست كذلك قال : فمن أنت ؟ قال : أمير المؤمنين بنفسه، فأخذ الأعرابى ركوته فوكاها ، فقال له المهدى : اسقنا، قال : لا والله لا تشرب منها جرعة فما فوقها ، قال : ولم ؟ قال : سقيتك قدحاً فزعمت أنك من خدم الخاصة، فاحتملناها لك ، ثم سقيناك آخر فزعمت أنك أحد قواد المهدى فاحتملناها لك ، ثم سقيناك الثالث فزعمت أنك أمير المؤمنين، ولا والله ما آمن أن أسقيك الرابع فتقول : إنك رسول الله ، فضحك المهدى ، وأحاطت به الخيل، فنزل إليه أبناء الملوك والأشراف، فطار قلب الأعرابى، فلم يكن همه إلا النجاة بنفسه، وجعل يشتد فى عدوه فقال له المهدى : لا بأس عليك، وأمر له بصلة جزيلة من مال وكسوة وبزة وآلة، فقال : أشهد أنك صادق، ولو ادعيت الرابعة والخامسة لخرجت منها ، فضحك المهدى منه حتى كاد أن يقع عن فرسه حين ذكر الرابعة والخامسة، وجعل له رزقًا، وألحقه بخواصه.

وكان وزيره أبو عبيدالله معاوية بن عبد الله الأشعرى، وهو جد محمد ابن عبد الوهاب الكاتب وكان كاتبه قبل الخلافة، فقتل المهدى ابناً لأبى عبيد الله

على الزندقة، فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه فعزله وعاش أبو عبيد الله إلى سنة سبعين ومائة، ثم اختص المهدى يعقوب بن داود السلمى، وخرج كتابه على الدواوين: إن أمير المؤمنين قد آخاه، وكان يصل إليه فى كل وقت دون الناس كلهم، ثم اتهمه بشىء من أمر الطالبيين، فهم بقتله، ثم حبسه فبقى فى حبسه إلى أيام الرشيد، فأطلقه الرشيد، وقد قيل فى أمره: إنه كان يرى الإمامة فى الأكبر من ولد العباس، وأن غير المهدى من عمومته كان أحق بها منه.

وكان المهدى محبباً إلى الخاص والعام ؛ لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم، والكف عن القتل، وأمن الخائف، وإنصاف المظلوم، وبسط يده فى الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار، سوى ما جباه فى أيامه، فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة النهرى خازن بيوت أمواله، فرمى بالمفاتيح بين يديه، وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ؟ ففرق المهدى عشرين خادماً فى جباية الأموال ، فوردت الأموات بعد أيام قلائل فتشاغل أبو حارثة النهرى بقبضها وتصحيحها عن الدخول على المهدى ثلاثة أيام فلما دخل عليه قال : ما أخرك ؟ فقال : الشغل بتصحيح الأموال ، فقال : أنت أعرابى أحمق، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا إذا احتجنا إليها،

قال أبو حارثة : إن الحادثة إذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه فى استخراج الأموال وحملها ، وقيل : إنه فرق فى عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلاف ألف درهم، فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه خطيبًا فقال : وللمهدى أشباه، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر، والأسد الخادر، والبحر الزاخر، فأما القمر الزاهر فأشبه منه حسنه وبهاه ، وأما الربيع الباكر فأشبه

منه طيبه وهواه، وأما الأسد الخادر فأشبه منه غرته ومضاه، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وسخاه.

وكانت الخيزران أم الهادى والرشيد فى دارها المعروفة باشتاس، وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات بنى هاشم، وهى على بساط أرمنى وهُن على نمارق أرمنية، وزينب بنت سليمان بن على أعلاهن مرتبة، فبينما هن كذلك إذ دخل خادم لها فقال : بالباب امرأة ذات حسن وجمال فى أطمار رثة تأبى أن تخبر باسمها وشأنها غيركن ، وتروم الدخول عليكن ، وقد كان المهدى تقدم إلى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان بن على ، وقال لها : اقتبسى من آدابها، وخذى من أخلاقها ؛ فإنها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا، فقالت الخيزران للخادم: ائذن لها، فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال فى أطمار رثة، فتكلمت فأوضحت عن بيان على لسان فقالوا لها: من أنت ؟ قالت : أنا مزنة امرأة مروان بن محمد، وقد أصارنى الدهر إلى ما ترين ، ووالله ما الأطمار الرثة التى علىَّ إلا عارية[1]،

وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر على بادرة إلينا تزيل موضع الشرف، فقصدناكم لنكون فى حجابكم على أية حال كانت، حتى تأتى دعوة من له الدعوة، فاغرورقت عينا الخيزران ونظرت إليها زينب بنت سليمان بن على ، فقالت لها : لا خفف الله عنك يا مزنة ، أتذكرين وقد دخلت عليك بحران وأنت على هذا البساط بعينه، ونساء قرابتكم على هذه النمارق فكلمتك فى جثة إبراهيم الإمام، فانتهرتنى وأمرت بإخراجى، وقلت : ما للنساء والدخول على الرجال فى آرائهم؟

(١) البدرة كيس به عشرة آلاف درهم .

فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك؛ لقد دخلت إليه فحلف أنه ما قتله، وهو كاذب، وخيرنى بين أن يدفنه أو يدفع إليه جثته فاخترت جثته وعرض على مالا فلم أقبله؛ فقالت مزنة : والله مانظن هذه الحالة أدتنى إلى ما ترينه إلا بالفعال التى كانت منى؛ وكأنك استحسنته فحرضت الخيزران على فعل مثله، إنما كان يجب أن تحضيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر؛ لتحرز بذلك نعيمها، وتصون بها دينها؛

ثم قالت لزينب : يا بنت عم؛ كيف رأيت صنيع الله بنا فى العقوق فأحببت التأسى بنا ؛ ثم ولت باكية وكرهت الخيزران أن تخالف زينب فيها فغمزت الخيزران بعض جواريها، فعدلت بها إلى بعض المقاصير، وأمرت بتغيير حالها والإحسان إليها، فلما دخل المهدى عليها. وقد انصرفت زينب وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه فى كل عشية. قصت عليه الخيزران قصتها، وما أمرت به من تغيير حالها، فدعا بالجارية التى ردتها؛ فقال لها : لما رددتها إلى المقصورة ما الذى سمعتها تقول : قالت : لحقتها فى الممر الفلانى وهى تبكى فى خروجها مؤتسية وهى تقرأ ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة .. والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ ؛ ثم قال للخيزران : والله والله لو لم تفعلى بها مافعلت ما كلمتك أبدا، وبكى بكاء كثيراً،

وقال : اللهم إنى أعوذ بك من زوال النعمة؛ وأنكر فعل زينب، وقال : لولا أنها أكبر نسائنا لحلفت ألا أكلمها؛ ثم بعث إليها بعض الجوارى إلى مقصورتها التى أخليت لها، وقال للجارية : اقرئى عليها السلام منى وقولى لها يا بنت عم إن أخواتك قد اجتمعن عندى، ولولا أنى أغمك جلبناك؛ فلما سمعت الرسالة علمت مراد المهدى ؛ وقد حضرت زينب بنت سليمان، فجاءت مزنة

تسحب أذيالها؛ فأمرها بالجلوس؛ ورحب بها واستدناها ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن على ، ثم تفاوضوا أخبار أسلافهم، وأيام الناس، والدول وتنقلها، فما تركت لأحد فى المجلس كلاماً، فقال لها المهدى : يا بنت عم، والله لولا أنى لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم من أمرنا شيئا لتزوجتك، ولكن لا شىء أصون لك من حجابى، وكونك مع أخواتك فى قصرى : لك ما لهن، وعليك ما عليهن، إلى أن يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على الخلق، ثم أقطعها مثل مالهن من الإقطاع وأخدمها وأجازها، فأقامت فى قصره إلى أن قبض المهدى وأيام الهادى وصدراً من أيام الرشيد، وماتت فى خلافته، لا يفرق بينها وبين نساء بنى هاشم وخواص حرائرهم وجواريهم فلما قُبضت جزع الرشيد والحرم جزعا شديداً.

وحدث الرياشى عن الأصمعى : دخل عبد الله بن عمرو بن عتبة على المهدى يعزيه بالمنصور، فقال : أجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك الله له فيما خلفه فيه، ولا مصيبة أعظم من فقد إمام والد، ولا عُقبى أجل من خلافة الله على أولياء الله، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية، واحتسب عند الله أفضل الرزية.

وكان أبو العتاهية وهو إسماعيل بن القاسم بائع جرار، وكان من أسهل الناس لفظاً وأقدرهم على وزن الكلام، وكان حُلو الألفاظ، حتى إنه يتكلم بالشعر فى جميع حالاته ، ويخاطب به جميع أصناف الناس قد جعله شعراً ونثاراً.

وحدث المبرد محمد بن يزيد أن ربطة بنت أبى العباس السفاح وجهت إلى عبد الله بن مالك الخزاعى فى شراء رقيق للعتق، وأمرت جاريتها عتبة ـ وكانت

لها ثم صارت إلى الخيزران بعدها ـ أن تحضر ذلك ، فإنها لجالسة إذ جاء أبو العتاهية فى زى متنسك فقال : جعلنى الله فداك !! أنا شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة، فإن رأيت أعزك الله أن تأمرى بشرائى وعتقى فعلت مأجورة، فاقبلت على عبد الله فقالت : إنى لأرى هيئة جميلة، وضعفاً ظاهراً، ولساناً فصيحاً ، رجلا بليغًا ، فاشتره وأعتقه، فقال : نعم ، فقال أبو العتاهية : أتأذنين لى أصلحك الله فى تقبيل يدك شكراً لك على جميل فعلك وما أوليتنى فأذنت له، فقبل يدها وانصرف، فضحك عبد الله بن مالك ، وقال : أتدرين من هذا ؟ قالت : لا ، قال : هذا أبو العتاهية، وإنما حتال عليك حتى قبل يدك فسترت وجهها خجلا، وقالت سوأة لك يا أبا العباس، أمثلك يعبث؟ إنما اغتررنا بكلامك، وقامت فلم تعد إليه.

وروى ابن عياش وابن دأب أن المنصور كان قد ضم الشرقى بن القطامى إلى المهدى ، حيث خلفه بالرى، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب، ومكارم الأخلاق، ودراسة الأخبار، قراءة الأشعار، فقال له المهدى ذات ليلة: ياشرقى أرح قلبى بشئ يُلهيه، قال : نعم أصلح الله الأمير، ذكروا أنه كان فى ملوك الحيرة ملك له نديمان قد نزلا من قلبه منزلة مكينة، وكانا لا يفارقانه فى لهوه وأنسه ومنامه ويقظته، ومُقامه وظعنه وكان لا يقطع أمراً دونهما، ولا يصدر إلا عن رأيهما، فغبر بذلك دهراً طويلا، فبينما هو ذات ليلة فى شربه ولهوه إذ غلب عليه الشراب فأزال عقله، فدعا بسيفه وانتضاه، وشد عليهما فقتلهما، وغلبته عيناه فنام، فلما أصبح سأل عنهما .

فأخبر بما كان منه، فأكب على الأرض عاضا لها تأسفًا عليهما وجزعاً لفراقهما. وامتنع من الطعام والشراب، ثم حلف لا يشرب شراباً يزعج قلبه ما

عاش ، وواراهما، وبنى على قبريهما قبة، وسماهما الغريين، وسن أن لا يمر بهما أحد من الملك فمن دونه إلا سجد لهما، وكانا إذا سن الملك منهم سُنّة توارثوها، وأحيوا ذكرها ولم يميتوها، وجعلوها عليهم حكما واجباً، وفرضاً لازمًا، وأوصى بها الآباء أعقابهم ، فغبر الناس بذلك دهراً طويلا، لا يمر بقبريهما أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما؛ فصار ذلك سُنّة لازمة وأمراً كالشريعة والفريضة، وحكم فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يحكم له بخصلتين يجاب إليهما كائناً ما كانتا.

قال : فمر يوماً قصار معه كارة ثياب وفيها مُدُقته. فقال الموكلون بالغريين للقصار : اسجد فأبى أن يفعل، فقالوا له : إنك مقتول إن لم تفعل، فأبى ؛ فرفعوه إلى الملك وأخبروه بقصته، فقال : ما منعك أن تسجد ؟ قال : سجدت ولكن كذبوا عليَّ، قال : الباطل قلت ؛ فاحتكم فى خصلتين فإنك مُجاب إليهما، وإنى قاتلك بعد، قال : لابد من قتلى يقول هؤلاء على " قال : لابد من ذلك قال : أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقتى هذه ، قال له الملك : يا جاهل، لو حكمت على أن أجرى على من تخلف وراءك ما يغنيهم كان أصلح لهم، قال : ما أحكم إلا بضربة لرقبة الملك، فقال الملك لوزرائه: ما ترون فيما حكم به هذا الجاهل ؟ قالوا : نرى أن هذه سنة أنت سننتها وأنت أعلم بما فى نقض السنن من العار والنار وعظيم الإثم،

وأيضاً إنك متى نقضت سنة نقضت أخرى. ثم يكون ذلك لمن بعدك كما كان لك ، فتبطل السنن ، قال : فارغبوا إلى القصار أن يحكم بما شاء ويعفينى من هذه؛ فإنى أجيبه إلى ما شاء الله ولو بلغ حكمه شطر مُلكى، فرغبوا إليه، فقال : ما أحكم إلا بضربة فى عنق الملك. قال : فلما رأى الملك ذلك وما عزم

عليه القاصر قعد له مقعداً عاماً وأحضر القصار فأبدى مُدُقته وضرب بها عنق الملك فأوهنه وخر مغشياً عليه، فأقام وقيذاً ستة أشهر، وبلغت به العلة إلى أن كان يسقى الما بالقطر، فلما أفاق وتكلم أكل وشرب واستقل سأل عن القصار، فقيل : إنه محبوس ، فأمر بإحضاره فحضر، فقال : لقد بقيت لك خصلة فاحكم بها، فإنى قاتلك لا محالة إقامة للسنة قال القصار : فإذا كان لابد من قتلى فإنى أحكم أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى ، فلما سمع ذلك خر على وجهه من الجزع، وقال : ذهبت نفسى والله إذاً ،

ثم قال للقصار: ويلك !! دع عنك مالا ينفعك فإنه لم ينفعك منه ماضى، واحكم بغيره وأنفذه لك كائنا ما كان ، قال : ما أرى حقى إلا فى ضربة أخرى، فقال الملك لوزرائه : ماترون ؟ قالوا : تموت على السنة أصلح لك ،قال : ويلكم !! إن ضرب الجانب الآخر ما شربت الماء البارد أبداً لأنى أعلم ما قد نالنى، قالوا : فما عندنا حيلة، فلما رأى ماقد أشرف عليه قال للقصار: أخبرنى ألم أكن قد سمعتك تقول يوم أتى بك الموكلون بالغريين إنك قد سجدت وإنهم كذبوا عليك ، قال : قد كنت قلت ذلك فلم أصدق ، قال : فكنت سجدت ؟ قال : نعم ، فوثب الملك من مجلسه وقبل رأسه، وقال : أشهد أنك صادق، وأنهم كذبوا عليك، وقد وليتك موضعهم، وجعلت إليك بأسهم، وأمرهم فى تأديبهم فضحك المهدى حتى فحص برجليه، وقال : أحسنت، ووصله.

وقال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدى ، وأتى سفيان الثورى ، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة، ولم يسلم تسليم الخلافة، والربيع قائم على رأسه متكىء على سيفه يرقب أمره ، فأقبل المهدى بوجه طلق وقال له : يا سفيان، تفر منا ههنا وههنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك

الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكم فى يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل، فقال له الربيع : يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ ائذن لى أن أضرب عنقه، فقال له : اسكت ويلك، ما يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم، اكتبوا بعهده على قضاء الكوفة، على أن لا يعترض عليه فى حكم، فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج ورمى به فى الدجلة وهرب، فطلب فى كل بلد ، فلم يوجد.

وقال على بن يقطين: كنا مع المهدى بماسبذان، فقال لى يوماً : أصبحت جائعاً فأتتنى بأرغفة ولحم بارد، ففعلت ، فأكل ثم دخل البهو ونام، وكنا نحن فى الرواق، فانتبهنا لبكائه، فبادرنا إليه مسرعين، فقال أما رأيتم ما رأيت ؟ قلنا : ما رأينا شيئًا، قال : وقف علىَّ رجلٌ لو كان فى ألف رجل ما خفى على صوته ولا صورته.

قال المسعودى : وكانت وفاة زفر بن الهذيل الفقيه صاحب أبى حنيفة النعمان بن ثابت سنة ثمان وخمسين ومائة، وفيها كانت بيعة المهدى كما قدمناه.

ومات سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى بالبصرة، وكان من تميم، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ويكنى أبا عبد الله، فى أيام المهدى، وذلك فى سنة إحدى وستين ومائة.

ومات ابن أبى ذئب، وهو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة، ويكنى أبا الحارث ، بالكوفة سنة تسع وخمسين ومائة، وذلك فى أيام المهدى.

وفى سنة ستين ومائة مات شعبة بن الحجاج، ويكنى أبا بسطام، وهو

مولى لبنى شقرة من الأزد، وفيها توفى عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى ، وفى سنة ست وستين ومائة مات حماد بن سلمة فى أيام المهدى.

قال المسعودى : وللمهدى أخبار حسان، ولما كان فى أيامه من الكوائن والحروب وغيرها، وقد أتينا عل مبسوطه وكذلك من مات فى سلطانه من الفقهاء وأصحاب الحديث وغيرهم.

خلافة موسى الهادى

وبويع موسى بن محمد الهادى يوم الخميس لسبع بقين من المحرم ، وهو ابن أربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر، صبيحة الليلة التى كانت فيها وفاة والده المهدى، وذلك فى سنة تسع وستين ومائة، وتوفى بعيساباذ نحو مدينة السلام سنة سبعين ومائة ، لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول من هذه السنة، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وكان يكنى أبا جعفر، وأمه الخيزران بنت عطاء، أم ولد حرشية، وهى أم الرشيد، وأتته البيعة وهو ببلاد طبرستان وجرجان فى حرب كانت هناك.

سيرة موسى الهادى

كان موسى قاسى القلب ، شرس الأخلاق، صعب المرام، كثير الأدب، محباً له ، وكان شديداً ، شجاعاً بطلا جواداً ، سخياً.

حدث يوسف بن إبراهيم الكاتب وكان صاحب إبراهيم بن المهدى ، عن إبراهيم، أنه كان واقفا بين يديه وهو على حمار له ببستانه المعروف به ببغداد إذ قيل له : قد ظفر برجل من الخوارج ، فأمر بإدخاله، فلما قرب منه الخارجى أخذ سيفاً من بعض الحرس، فأقبل يريد موسى، فتنحيت وكل من معنى عنه، وإنه لواقف على حماره ما يتحلحل، فلما أن قرب منه الخارجى صاح موسى : اضربا عنقه، وليس وراءه أحد، فأوهمه، فالتفت الخارجى لينظر، وجمع موسى نفسه ثم ظهر عليه فصرعه، فأخذ السيف من يديه، فضرب عنقه، قال : فكان خوفنا منه أكثر من الخارجى ، فوالله ما أنكر علينا تنحينا، ولا عدلنا على ذلك، ولم يركب حماراً بعد ذلك اليوم ، وما فارقه سيفه.

وكان عيسى بن دأب يجالسه، وكان من أهل الحجاز، وكان أكثر أهل عصره أدباً وعلماً ومعرفة بأخبار الناس، وأيامهم، وكان الهادى يدعو له متكأ ، ولم يكن غيره يطمع منه فى ذلك، وكان يقول له : يا عيسى، ما استطلت بك يوماً ولا ليلة، ولا غبت عنى إلا ظننت أنى لا أرى غيرك.

وذكر عيسى بن دأب أنه رفع إلى الهادى أن رجلا من بلاد المنصورة - من بلاد السند من أشرافهم وأهل الرياسة فيهم من آل المهلب بن أبى صفرة - ربى غلاماً سنديا أو هنديًا، وأن الغلام هوى مولاته، فراودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاه فوجدها معه، فجب ذكر الغلام وخصاه، ثم عالجه إلى أن برىء فاقام مدة، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع، فغاب الرجل عن منزله وقد أخذ السندى الصبيين فصعد بهما إلى أعالى سور الدار إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فإذا هو بابنيه مع الغلام على السور،

فقال : يا فلان، عرضت ابنى للهلاك ، فقال : دع ذا عنك، والله لو لم تجب نفسك بحضرتى لأرمين بهما، فقال له : الله الله فى وفى ابنى ، قال : دع عنك هذا، فوالله ماهى إلا نفسى، وإنى لأسمح بها من شربة ماء ، وأهوى ليرمى بهما، فأسرع مولاه فأخذ مُدية فجب نفسه، فلما رأى الغلام أنه قد فعل رمى بالصبيين فتقطعا، وقال : ذاك الذى فعلت لفعلك بى، وقتل هذين زيادة، فأمر الهادى بالكتاب إلى صاحب السند بقتل الغلام وتعذيبه بأفظع ما يمكن من العذاب، وأمر بإخراج كل سندى فى مملكته، فرخص السند فى أيامه حتى كانوا يتداولون بالثمن اليسير.

وكان الهادى قد استوزر الربيع، وضم إليه ما كان لعمر بن بزيع من الزمام ثم إنه ولى عمر بن بزيع الوزارة وديوان الرسائل، وأفرد الربيع بالزمام،

فمات الربيع فى هذه السنة، وقيل : إن الهادى سقاه شربة لأجل جارية كان قد وهبها له المهدى كانت قبل ذلك للربيع، وقيل غير ذلك.

وظهر فى أيامه الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، وهو المقتول بفخ، وذلك على ستة أميال من مكة، يوم التروية وكان على الجيش الذى حاربه جماعة من بنى هاشم : منهم سليمان بن أبى جعفر، ومحمد بن سليمان بن على، وموسى بن عيسى، والعباس بن محمد بن على، فى أربعة آلاف فارس؛ فقتل الحسين وأكثر من كان معه، وأقاموا ثلاثة أيام لم يواروا حتى أكلتهم السباع والطير.

وكان معه سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، فأسر فى هذا اليوم وضربت رقبته بمكة صبراً، وقتل معه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن على ، وأسر الحسن بن محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على وضرب عنقه صبراً، وأخذ لعبد الله بن الحسن بن على وللحسين بن على الأمان، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، وقتلا بعد ذلك. فسخط الهادى على موسى بن عيسى لقتل الحسين بن على بن الحسن بن الحسن وترك المصير به إليه ليحكم فيه بما يرى وقبض أموال موسى، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار، فبكى الهادى وزجرهم، وقال : أتيتمونى مستبشرين كأنكم أتيتمونى برأس رجل من الترك أو الديلم، إنه رجل من عترة رسول الله ﷺ ، ألا إن أقل جزائكم عندى ألا أثيبكم شيئاً.

وكان الهادى كثير الطاعة لأمه الخيزران، مجيباً لها فيما تسأل من الحوائج للناس، فكانت المواكب لا تخلو من بابها.

فكلمته ذات يوم فى أمر، فلم يجد إلى إجابته فيه سبيلا، فاعتل عليها بعلة، فقالت : لابد من إجابتى، قال : لا أفعل، قالت : فإنى قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب الهادى ، وقال : ويل لابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها، والله لاقضيتها لك، قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال : إذاً والله لا أبالى وحمى وقامت وهى مُغضبة، فقال : مكانك ، فاستوعبى كلامى، والله ، وإلا نُفيت من قرابتى من رسول الله ﷺ ، لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى، أو من خاصتى ، أو من خدمى، لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التى تغدو إلى بابك كل يوم؟ أمالك مُغزل يشغلك، أو مُصحف يذكرك، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمى، فانصرفت وما تعقل ماتطأ؛ فلم تنطق عنده بحلو ولا مر بعدها.

وذكر ابن دأب ، قال : دعانى الهادى فى وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعونى فى مثله، فدخلت إليه، فإذا هو جالس فى بيت صغير شتوى، وقدامه جزء صغير ينظر فيه، فقال لى : يا عيسى ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين، قال : إنى أرقت فى هذه الليلة، وتداعت إلى الخواطر، واشتملت على الهموم، وهاج لى ما جرت إليه بنو أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دمائنا، فقلت : يا أمير المؤمنين، هذا عبدالله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فطرس فلاناً وفلاناً حتى أتيت على تسمية أكثر من قتل منهم، وهذا عبد الصمد بن على قد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على.

قال ابن دأب : فسر والله الهادى ، وظهرت منه أريحية. ثم تغلغل بنا الكلام والحديث إلى أخبار مصر وعيوبها وفضائلها وأخبار نيلها، فقال لى

الهادى : فضائلها أكثر ، قلت : يا أمير المؤمنين هذه دعوى المصريين لها بغير برهان أو ردوه، والبينة على الدعوى، وأهل العراق يأبون هذه الدعوى، ويذكرون أن عيوبها أكثر من فضائلها، قال : مثل ماذا ؟ قلت : يا أمير المؤمنين من عيوبها أنها لا تمطر، وإذا أمطرت كرهوا ذلك، وابتهلوا إلى الله بالدعاء وقد قال الله عز وجل ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾ فهذه رحمة مجللة لهذا الخلق وهم لها كارهون، وهى لهم ضارة غير موافقة لا يزكو عليها زرعهم ولا تخصب عليها أرضهم، ومن عيوبها الريح الجنوبية التى يسمونها المريسية

وذلك أن أهل مصر يسمون أعالى الصعيد إلى بلاد النوبة مريس، فإذا هبت الريح المريسية - وهى الجنوبية- ثلاثة عشر يوماً تباعاً اشترى أهل مصر الأكفان والحنوط وأيقنوا بالوباء القاتل، والبلاء الشامل، ثم من عيوبها اختلاف هوائها، لأنهم فى يوم واحد يغيرون ملابسهم مراراً كثيرة، فيلبسون القمص مرة ، والمبطنات أخرى، والحشو مرة ، وذلك لاختلاف جواهر الساعات بها، ولتباين مهاب الهواء فيها فى سائر فصول السنة من الليل والنهار، وهى تمير ولا تمتار[1]، فإذا أجدبوا هلكوا. وأما نيلها فكفاك الذى هو عليه من الخلاف لجميع الأنهار، من الصغار والكبار، وليس بالفرات ولا الدجلة ولا نهر بلخ ولا سيحان ولا جيحان شىء من التماسيح ، وهى فى نيل مصر ضارة بلا منفعة، ومفسدة غير مصلحة.

قال ويحك !! ما النواقيل التى ترى النيل فيها؟ قلت : القلال والكيزان يسمونها بهذا الاسم، قال : لأنه لا يتمتع بالماء إلا فى الآنية، لخوف مباشرة

(١) لا تشترى الميرة .

الماء فى النيل من التمساح، لأنه يختطف الناس وسائر الحيوان ، قال : إن هذا النهر قد منع هذا النوع من الحيوان مصالح الناس منه، وقد كنت متشوقا إلى النظر إليها، فلقد زهدتنى عنها بوصفك لها.

قال ابن دأب : ثم سألنى الهادى عن مدينة دنقلة، وهى دار مملكة النوبة، كم المسافة بينها وبين أسوان ؟ قلت : قد قيل أربعون يوماً على شاطئ النيل عمائر متصلة.

قال ابن دأب : ثم قال لى الهادى : إيها يا ابن دأب، دع عنك ذكر المغرب وأخباره، وهلم بنا إلى ذكر فضائل البصرة والكوفة وما زادت به كل واحدة منهما على الأخرى ، قال : قلت : ذكر عن عبد الملك بن عمير، أنه قال : قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع مصعب بن الزبير، فما رأيت شيخاً قبيحاً إلا ورأيت فى وجه الأحنف منه شبهاً، كان صعل الرأس، أجخى العين، أعصف الأذن، باخق العين، ناتيء الوجه، مائل الشدق، متراكب الأسنان، خفيف العارضين، أحنف الرجل، ولكنه كان إذا تكلم جلى عن نفسه، فجعل يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ونفاخره بالكوفة، فقلنا الكوفة أغدى وأمرأ وأفسح وأطيب، فقال له رجل : والله ما أشبه الكوفة إلا بشابة صبيحة الوجه كريمة الحسب ولا مال لها؛ فإذا ذكرت ذكرت حاجتها، فكف عنها طالبها، وما أشبه البصرة إلا بعجوز ذات عوارض موسرة، فإذا ذكرت ذكر يسارها، وذكرت عوارضها، فكف عنها طالبها،

فقال الأحنف: أما البصرة فإن أسفلها قصب، وأوسطها خشب، وأعلاها رُطب، نحن أكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً، ونحن أكثر قنداً ونقداً، والله مآتى

البصرة إلا طائعاً، ولا أخرج منها إلا كارها؛ قال : فقام إليه شاب من بكر بن وائل فقال : يا أبا بحر، بم بلغت فى الناس ما بلغت؟ فوالله ما أنت بأجملهم، ولا بأشرفهم، ولا بأشجعهم؛ قال : يا ابن أخى، بخلاف ما أنت فيه، قال : وما ذاك؟ قال : بتركى ما لايعنينى كما عناك من أمرى ما لاينبغى أن يعنيك.

ولأهل البصرة وأهل الكوفة ومن شرب من دجلة مناظرات كثيرة فى مياههم ومنافعها ومضارها، منها ما عاب به أهل الكوفة أهل البصرة، فقالوا: ماؤكم كدر زهلك زفر، فقال لهم أهل البصرة : من أين يأتى ماءنا الكدر وماء البحر صافٍ وماء البطيحة صاف، وهما يمتزجان وسط بلادنا؟ قال الكوفيون: من طباع الماء العذب الصافى إذا خالط ماء البحر صارا جميعاً إلى الكدورة، وقد يُروق الإنسان ماء أربعين ليلة، فإن جعل منه شيئاً فى قارورة أزبد وتكدر.

وقد افتخر أهل الكوفة بمائهم - الذى هو الفرات - على ماء دجلة، وهو ماء البصرة ! فقالوا : ماؤنا أعذب المياه وأغداها، وهو أصح للأجسام من ماء دجلة، والفرات خير من النيل، فأما دجلة فإن ماءها يقطع شهوة الرجال، ويذهب بصهيل الخيل، ولا يذهب بصهيلها إلا مع ذهاب نشاطها، ونقصان قواها، وإن لم يتدسم النازلون عليها أصابهم قحول فى عظامهم ويبس فى جلودهم، وسائر من نزل من العرب على دجلة لا يكادون يسقون خيلهم منها ويسقونها من الآبار والركاء، لاختلاط مياهها واختلاف أنواعها إذ ليست بماء واحد لمصب الأنهار إليها كالزابين وغيرهما، وسبيل المشروب غير المأكول، لأن اختلاف المأكل غير ضار، واختلاف الأشربة كالخمر والنبيذ وغيره من الأنبذة إذا شربه الإنسان كان ضاراً، وإذا كان فضيلة مائنا على دجلة فما ظنك بفضيلته على ماء البصرة وهو يختلط بماء البحر، ومن الماء المستنقع فى أصول

القصب الهروى، وقد قال الله تعالى : ﴿ هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج ﴾ ، والفرات أعذب المياه عذوبة، وإنما اشتق الفرات لكل ماء عذب من ماء الكوفة.

وقد طعن أيضًا أهل الكوفة على أهل البصرة، فقالوا: البصرة أسرع الأرض خراباً، وأخبثها ترابًا، وأبعدها من السماء، وأسرعها غرقاً.

وقد أجاب أهل البصرة أهل الكوفة عما سألوا عنه وعابوهم به، وكذلك من شرب من دجلة، وعابوا أهل الكوفة، وذكروا عيوبها، وما يؤثر عن سكانها من الشح على المأكول والمشروب والغدر وقلة الوفاء.

رغبة الهادى فى خلع الرشيد من ولاية العهد

وقد كان الهادى أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد، ويجعلها لابنه جعفر بن موسى، وحبس يحيى بن خالد البرمكى، وأراد قتله، فقال له يحيى وكان القيم بأمر الرشيد: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان ما أسأل الله أن يُعيذنا منه، وأن لا يبلغناه، وينسأ فى أجل أمير المؤمنين، أيظن أن الناس يُسلمون لجعفر بن أمير المؤمنين الأمر ولم يبلغ الحنث، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟ قال : ما أظن ذلك ، قال : فتأمن أن يسمو إليها جلة أهل بيتك فتخرج من ولد أبيك إلى غيرهم؟ فتكون قد حملت الناس على النكث، وهونت عليهم أيمانهم، ولو تركت بيعة أخيك على حالها، وبُويع لجعفر بعده كان آكد، فإذا بلغ مبلغ الرجال سألت أخاك أن يقدمه على نفسه، قال : نبهتنى والله على أمر لم أكن قد انتبهت له، ثم عزم بعد ذلك على خلعه رضى أم كره، وأمر بالتضييق

عليه فى الأكثر من أموره، فأشار عليه يحيى أن يستأذنه فى الخروج إلى الصيد، وأن يطيل التشاغل بذلك، فإن مدة موسى قصيرة على ما أوجبته قضية المولد، واستأذنه الرشيد، فأذن له، فسار إلى شاطئ الفُرات من بلاد الأنبار وهيت، وتوسط البر مما يلى السماوة، وكتب الهادى إليه يأمره بالقدوم فأكثر الرشيد التعلل، وبسط الهادى لسانه فى شتمه، وسنح للهادى الخروج نحو بلاد الحديثة، فمرض هناك، وانصرف وقد ثقل فى العلة، فلم يجسر أحد من الناس على الدخول عليه إلا صغار الخدم ، ثم أشار إليهم أن يحضروا الخيزران أمه، فصارت عند رأسه،

فقال لها : أنا هالك فى هذه الليلة، وفيها يلى أخى هارون، وأنت تعلمين ما قضى به أصل مولدى بالرى، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى، مما أوجبته سياسة الملك، لا موجبات الشرع من برك، ولم أكن بك عاقا، بل كنت لك صائنا وبراً واصلا، ثم قضى قابضا على يدها، واضعا لها على صدره.

وكان مولده بالرى ، وكذلك مولد هارون الرشيد، فكانت تلك الليلة فيها وفاة الهادى ، وولاية الرشيد، ومولد المأمون.

ويقال : إن الهادى أوقف بين يديه رجلا من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة، فجعل الهادى يذكره ذنوبه، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين، اعتذارى مما تقرعنى به رد عليك، وإقرارى بما ذكرت يوجب ذنبا على.

وحدث عدة من الأخباريين من ذوى المعرفة بأخبار الدولة، أن موسى قال لهارون أخيه: كأنى بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا، وتؤمل ما أنت عنه بعيد، ومن دون ذلك خرط القتاد، فقال له هارون : ياأمير المؤمنين من تكبر وضع، ومن

تواضع رفع ، ومن ظلم خذل، وإن وصل الأمر إلى وصلت من قطعت، وبررت من حرمت، وصيرت أولادك أعلى من أولادى، وزوجتهم بناتى، وقضيت بذلك حق الإمام المهدى ، فانجلى عن موسى الغضب، وبان السرور فى وجهه، وقال : ذلك الظن بك يا أبا جعفر، ادن منى، فقام هارون فقبل يده، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه، فقال موسى : والشيخ الجليل، والملك النبيل، لا جلست إلا معى فى صدر المجلس، ثم قال : ياخزانى !! احملوا إلى أخى الساعة ألف ألف دينار، فإذا فتح الخراج فاحمل إليه نصفه، فلما أراد هارون الانصراف قُدمت دابته إلى البساط.

قال عمرو الرومى : فسألت الرشيد عن الرؤيا، فقال : قال المهدى : رأيت فى منامى كأنى دفعت إلى موسى قضيباً ، وإلى هارون قضيباً ، فأما قضيب موسى فأورق أعلاه قليلا، وأما قضيب هارون فأورق من أوله إلى آخره، فقص الرؤيا على الحكيم ابن إسحاق الصيمرى، وكان يعبرها، فقال له : يملكان جميعاً، فأما موسى فتقل أيامه، وأما هارون فيبلغ آخر ما عاش خليفة، وتكون أيامه أحسن الأيام، ودهره أحسن الدهور.

قال عمرو الرومى : فلما أفضت الخلافة إلى هارون زوج حمدونة ابنته من جعفر بن موسى، وفاطمة من إسماعيل بن موسى ، ووفى له ما وعده.

وحدث عبد الله بن الضحاك، عن الهيثم بن عدى ، قال : وهب المهدى موسى الهادى سيف عمرو بن معد يكرب الصمصامة، فدعا به موسى بعدما ولى الخلافة، فوضعه بين يديه، وملء مكتل دنانير.

خلافة هارون الرشيد

وبويع هارون الرشيد بن المهدى يوم الجمعة صبيحة الليلة التى مات فيها الهادى، بمدينة السلام، وذلك لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة، ومات بطوس بقرية يقال لها سناباذ، يوم السبت لأربع ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر، وقيل : ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشرة يوما وولى الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة وشهرين ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر.

سيرة هارون الرشيد

ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد دعا بيحيى بن خالد فقال له : يا أبت، أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويُمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر ، ودفع خاتمه إليه.

وماتت ريطة بنت أبى العباس السفاح لشهور خلت من أيام الرشيد، وقيل: فى آخر أيام الهادى، وماتت الخيزران أم الهادى والرشيد فى سنة ثلاث وسبعين ومائة،ومشى الرشيد أمام جنازتها، وكانت غلة الخيزران مائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم، وفيها مات محمد بن سليمان، وقبض الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها؛ فكان مبلغها نيفا وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات، وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة ألف درهم.

وحكى أن محمد بن سليمان ركب يوماً بالبصرة وسوار القاضى يسايره في جنازة ابنة عم له، فاعترضه مجنون كان بالبصرة يعرف برأس النعجة، فقال

له : يا محمد ، أمن العدل أن تكون غلتك فى كل يوم مائة ألف درهم وأنا أطلب نصف درهم فلا أقدر عليه؟ ثم التفت إلى سوار فقال : إن كان هذا عدلا فأنا أكفر به ، فأسرع إليه غلمان محمد، فكفهم عنه، وأمر له بمائة درهم.، فلما انصرف محمد وسوار معه اعترضه رأس النعجة فقال له : لقد كرم الله منصبك، وشرف أبوتك، وحسن وجهك، وعظم قدرك، وأرجو أن يكون ذلك لخير يريده الله بك، وأن يجمع الله لك الدارين، فدنا منه سوار فقال : يا خبيث، ما كان هذا قولك فى البداءة، فقال له : سألتك بحق الله وبحق الأمير إلا ما أخبرتنى فى أى سورة هذه الآية (فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) قال : فى براءة ، قال : صدقت ، فبرىء الله ورسوله منك، فضحك محمد ابن سليمان حتى كاد يسقط عن دابته.

ولما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار دخل إليه عبد الصمد بن شبيب بن شبة، فقال له محمد : كيف ترى بنائى؟ قال : بنيت أجل بناء، بأطيب فناء، وأوسع فضاء، وأرق هواء ، على أحسن ماء، بين صرارى وحسان وظباء، فقال محمد : بناء كلامك أحسن من بنائنا، وقيل : إن صاحب الكلام والبانى للقصر هو عيسى بن جعفر، على ما حدث به محمد بن زكرياء الغلابى، عن الفضل بن عبد الرحمن بن شبيب بن شبة.

وفى سنة خمس وسبعين ومائة مات الليث بن سعد، المصرى، الفهمى، ويكنى أبا الحارث، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وكان قد حج سنة ثلاث عشرة ومائة وسمع من نافع.

وفى سنة خمس وسبعين ومائة مات شريك بن عبد الله بن سنان النخعى القاضى ، وكان يكنى أبا عبد الله، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وكان مولده

ببخارى، وليس بشريك بن عبد الله بن أبى أنمر الليثي، لأن ابن أبى أنمر مات فى سنة أربعين ومائة، وبينهما تسع وثلاثون سنة، وكان شريك بن عبد الله النخعى يتولى القضاء بالكوفة أيام المهدى ، ثم عزله موسى الهادى ، وكان شريك - مع فهمه وعلمه - ذكياً فطناً، وكان قد جرى بينه وبين مصعب ابن عبد الله كلام بحضرة المهدى فقال له مصعب : أنت تنتقص أبا بكرو وعمر، فقال : والله ما أنتقص جدك وهو دونهما.

وذكر معاوية عند شريك بالحلم، فقال : ليس بحليم من سفه الحق وقاتل على بن أبى طالب.

وشم من شريك رائحة النبيذ، فقال له أصحاب الحديث، لو كانت هذه الرائحة منا لاستحيينا، فقال : لأنكم أهل الريبة.

ومات فى أيام الرشيد أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبى عامر، الأصبحى، وهو ابن تسعين سنة، وحمل به ثلاث سنين، وذلك فى ربيع الأول، وقيل : إنه صلي عليه ابن أبى ذئب، على ماذكر من التنازع في وفاة ابن أبى ذئب، وذكر الواقدى أن مالكا كان يأتى المسجد، ويشهد الصلوات والجمع والجنائز، ويعود المرضى، ويقضى الحقوق، ثم ترك ذلك كله، ثم قيل له فيه، فقال : ليس كل إنسان يقدر أن يتكلم بُعذره.

وسعى به إلى جعفر بن سليمان، وقيل له : إنه لا يرى أيمان بيعتكم شيئًا فضربه بالسياط، ومُد لذلك حتى انخلع كتفاه.

وفى السنة التى مات فيها مالك كانت وفاة حماد بن زيد، وهى سنة تسع وسبعين ومائة.

وفى سنة إحدى وستين ومائة مات عبد الله بن المبارك ، المروزى، الفقيه، بهيت بعد منصرفه من طرسوس.

وفى سنة اثنتين وثمانين ومائة مات أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضى وهو ابن تسع وستين سنة، وهو رجل من الأنصار، وولى القضاء سنة ست وستين ومائة فى أيام خروج الهادى إلى جُرجان، وأقام على القضاء إلى أن مات خمس عشرة سنة.

قال المسعودى : وقد كانت أم جعفر كتبت مسألة إلى أبى يوسف تستفتيه فيها، فأفتاها بما وافق مرادها على حسب ما أوجبته الشريعة عنده وأداه اجتهاده إليه، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقان من فضة فى كل حق لون من الطيب، وجام ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير، وغلمان وتخوت من ثياب، وحمار وبغل، فقال له بعض من حضره : قال رسول الله ﷺ « من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها» فقال أبو يوسف : تأولت الخبر على ظاهره، والاستحسان قد منع من إمضائه، ذاك إذ كان هدايا الناس التمر واللبن، لا فى هذا الوقت وهدايا الناس اليوم العين والورق وغيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وذكر الفضل بن الربيع قال : صار إلىَّ عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، فقال : إن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على قد أرادنى على البيعة له، فجمع الرشيد بينهما، فقال الزبيرى لموسى : سعيتم علينا وأردتم نقض دولتنا، فالتفت إليه موسى فقال : ومن أنتم؟ فغلب على الرشيد الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف حتى لا يظهر منه، ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا الذى ترى المشنع علىَّ خرج والله مع أخى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على على جدك المنصور.

وليس سعايته يا أمير المؤمنين حُبا لك، ولا مراعاة لدولتك، ولكن بغضا لنا جميعاً أهل البيت، ولو وجد من ينتصر به علينا جميعاً لكان معه، وقد قال باطلا، وأنا مستحلفه، فإن حلف أنى قلت ذلك فدمى لأمير المؤمنين حلالٌ ، فقال الرشيد احلف له يا عبد الله، فلما أراده موسى على اليمين تلكأ وامتنع، فقال له الفضل : لم تمنع وقد زعمت آنفاً أنه قال لك ما ذكرته؟ قال عبد الله : فأنا أحلف له، قال موسى : قل تقلدت الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى حولى وقوتى إن لم يكن ما حكيته عنى حقًا، فحلف له، فقال موسى : الله أكبر، حدثنى أبى عن جدى عن أبيه عن جده علىٍّ عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاثة» والله ما كذبت ولا كُذبت، وها أنا يا أمير المؤمنين بين يديك وفى قبضتك، فتقدم بالتوكيل على ، فإن مضت ثلاثة أيام ولم يحدث على عبد الله بن مصعب حادث فدمى لأمير المؤمنين حلال، فقال الرشيد للفضل : خذ بيد موسى فليكن عندك حتى أنظر فى أمره.

قال الفضل : فوالله ما صليت العصر من ذلك اليوم حتى سمعت الصراخ من دار عبد الله بن مصعب، فأمرت من يتعرف خبره، فعرفت أنه قد أصابه الجذام، وأنه قد تورم واسود ، فصرت إليه، فوالله ماكدت أعرفه لأنه صار كالزق العظيم ثم اسود حتى صار كالفحم، فصرت إلى الرشيد فعرفته خبره، فما انقضى كلامى حتى أتى خبر وفاته، فبادرت بالخروج، وأمر بتعجيل أمره والفراغ منه، وتوليت الصلاة عليه، فلما دلوه فى حفرته لم يستقر فيها حتى انخسفت به وخرجت منه رائحة مفرطة النتن، فرأيت أحمال شوك تمر فى الطريق فقلت : على بذلك الشوك، فأتيت به، فطرح فى تلك الوهدة، فما استقر حتى انخفست ثانية، فقلت على بألواح ساج، فطرحت على موضع قبره، ثم

طرح التراب عليها، وانصرفت إلى الرشيد فعرفته الخبر وما عاينت من الأمر فأكثر التعجب من ذلك، وأمرنى بتخلية موسى بن عبد الله رضى الله عنه، وأن أعطيه ألف دينار، وأحضر الرشيد موسى فقال له : لم عدلت عن اليمين المتعارفة بين الناس؟ قال : لأنا روينا عن جدنا رضى الله عنه عن النبى ﷺ «من حلف بيمين مجد الله فيها استحيا الله من تعجيل عقوبته. وما من أحد حلف بيمين كاذبة نازع الله فيها حوله وقوته إلا عجل الله له العقوبة قبل ثلاث».

وقيل : إن صاحب هذا الخبر هو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على أخو موسى بن عبد الله، رضوان الله عليهم!.

وكان يحيى قد سار إلى الديلم مستجيراً، فباعه صاحب الديلم من عامل الرشيد بمائة ألف درهم، فقتل ، رحمه الله!.

وقد روى من وجه آخر- على حسب تباين النسخ وطرق الرواية فى ذلك فى كتب الأنساب والتواريخ أن يحيى ألقى فى بركة فيها سباع قد جُوعت، فأمسكت عن أكله، ولاذت بناحية، وهابت الدنو إليه، فبنى عليه ركن بالجص والحجر وهو حى.

وقد كان محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على رضى الله عنه سار إلى مصر، فطلب، فدخل المغرب، واتصل ببلاد تاهرت السفلى، واجتمع إليه خلق من الناس، فظهر فيهم بعدل وحسن استقامة ، فمات هنالك مسموماً .

وفى سنة ثمانية وثمانين ومائة حج الرشيد، وهى آخر حجة حجها، فذكر عن أبى بكر بن عياش - وكان من علية أهل العلم - أنه قال وقد اجتاز الرشيد

بالكوفة فى حال منصرفه من هذه الحجة: لا يعود إلى هذه الطريق، ولا خليفة من بنى العباس بعده أبداً، فقيل له : أضرب من الغيب؟ قال : نعم ، قيل : بوحى؟ قال : نعم ، قيل : إليك ؟ قال ، لا، إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك أخبر عن على عليه السلام المقتول فى هذا الموضع، وأشار إلى الموضع الذى قتل فيه على بالكوفة، رضى الله عنه!

وفى سنة تسع وثمانين ومائة ـ وذلك فى أيام الرشيد ـ مات على بن حمزة الكسائى صاحب القراءات، ويكنى أبا الحسن، وكان قد شخص مع الرشيد إلى الرى فمات بها، وكذلك مات محمد بن الحسن الشيبانى القاضى، ويكنى أبا عبد الله، ودفن بالرى وهو مع الرشيد، وتطير من وفاة محمد بن الحسن لرؤيا كان رآها فى نومه.

وفى هذه السنة كانت وفاة يحيى بن خالد بن برمك.

وفى سنة ثمان وثمانين ومائة كان سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح ابن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، فحدث يموت بن المزرع عن الرياشى، قال : سمعت الأصمعى يقول : كنت عند الرشيد، وأتى بعبد الملك بن صالح يرفُل فى قيوده، فلما نظر إليه قال : هيه يا عبد الملك، كأنى والله أنظر إليك وشؤ بوبها قد همع، وإلى عارضها قد لمع، وكأنى بالوعيد قد أقلع عن براجم بلا معاصم، ورؤوس بلا غلاصم، مهلا مهلا بنى هاشم، والله سهل لكم الوعر، وصفا لكم الكدر، وألقت إليكم الأمور أزمتها، فخذوا حذركم منى قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل، فقال له عبد الملك : أفذا أتكلم أم توأماً؟ فقال : توأماً، قال : فاتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، وراقبه فى رعاياك التى استرعاك، قد سهلت لك والله الوعور، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور.

قال : فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد، فقال له : يا عبد الملك، بلغنى أنك حقود، فقال : أصلح الله الوزير!! إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندى إنهما لباقيان في قلبى، فالتفت الرشيد إلى الأصمعى، فقال : يا أصمعى حررها فوالله ما احتج أحد للحقد بمثل ما احتج به عبد الملك، ثم أمر به فرد إلى محبسه، ثم التفت إلى الأصمعى، فقال : والله والله يا أصمعى لقد نظرت إلى موضع السيف من عنقه مراراً، يمنعنى من ذلك إبقائى على قومى فى مثله.

حدث يوسف بن إبراهيم بن المهدى ، قال : حدثنى سليمان الخادم الخراسانى مولى الرشيد، أنه كان واقفاً على رأس الرشيد بالحيرة وهو يتغدى إذ دخل عليه عون العبادى ، وكان صاحب الحيرة، وفى يده صحفة فيها سمكة منعوتة بالسمن فوضعها بن يديه ومعه محبس قد اتخذ لها، فحاول الرشيد أكل شىء منها فمنعه جبريل بن بختيشوع، وأشار جبريل إلى صاحب المائدة أن يشيلها عن المائدة ويعزلها له، ففطن له الرشيد، فلما رفعت المائدة وغسل الرشيد يده وخرج جبريل أمرنى الرشيد باتباعه وأن أكبسه فى منزله وهو يأكل فأرجع إليه بخبره، ففعلت ما أمرنى به وأحسب أن أمرى لم يخف على جبريل فيما تبينت من تحرزه، فإنه صار إلى موضع من دار عون ، ودعا بالطعام فأحضر له، وفيه السمكة، فدعا بأقداح ثلاثة، فجعل فى واحد منها قطعة من السمك وصب عليها خمراً من خمر طيرناباذ - وهى قرية بين الكوفة والقادسية ذات كروم وأشجار ونخل ورياض تخرقها الأنهار من كل البقاع من الفرات، شرابها موصوف بالجودة كوصف القطربلى - فصبه على السمكة وقال : هذا أكل جبريل،

وجعل فى قدح أخر قطعة منها، وصب عليها ماء بثلج شديد البرودة، وقال: هذا أكل أمير المؤمنين أعزه الله إن لم يخلط السمك بغيره، وجعل فى القدح الثالث قطعة من السمكة وجعل قطعاً من اللحم من ألوان مختلفة، من شواء ومن حلوى ومن بوارد ويقول ، ومن سائر ما قدم إليه من الألوان ، من كل واحد منها جزأ يسيراً مثل اللقمة، واللقمتين، وصب عليها ماء بثلج، قال : هذا أكل أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره، من الطعام ودفع الثلاثة الأقداح إلى صاحب المائدة، وقال : احتفظ بها إلى أن ينتبه أمير المؤمنين أعزه الله، ثم أقبل جبريل على السمكة فأكل منها حتى تضلع، وكان كلما عطش دعا بقدح من الخمر الصرف فشربه، ثم نام، فلما انتبه الرشيد من نومه سألنى عما عندى من خبر جبريل، وهل أكل من السمكة شيئاً أم لم يأكل ؟

فأخبرته بالخبر، فأمر بإحضار الأقداح الثلاثة فوجد ما فى القدح الأول - وهو الذي ذكر جبريل أنه أكله وصب عليه الخمر الصرف - قد تفتت وانماع واختلط، ووجد ما فى القدح الثانى الذى قال جبريل إنه أكل أمير المؤمنين وصب عليه الماء بالثلج - قد ربا وصار على النصف مما كان ، ونظر إلي القدح الثالث - الذي قال جبريل وهذا أكل أمير المؤمنين إن خلط السمك بغيره - قد تغيرت رائحته وحدثت له سهوكة شديدة كاد الرشيد أن يتقايأ حين قرب منه، فأمرنى بحمل خمسة آلاف دينار إلى جبريل وقال : من يلومنى على محبة هذا الرجل الذي يدبرنى بهذا التدبير؟ فأوصلت إليه المال.

وذكر عبد الله بن مالك الخزاعى - وكان على دار الرشيد وشرطته - قال : أتانى رسول الرشيد فى وقت ماجاءنى فيه قط، فانتزعنى من موضعى، ومنعنى من تغيير ثيابى، فراعنى ذلك منه فلما صرت إلى الدار سبقنى الخادم، فعرف

الرشيد خبرى، فأذن لى فى الدخول عليه، فدخلت ، فوجدته قاعداً على فراشه؛ فسلمت ، فسكت ساعة، فطار عقلى وتضاعف الجزع علىّ ثم قال لى : يا عبد الله، أتدرى لم طلبتك فى هذا الوقت؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين، قال : إنى رأيت الساعة فى منامى كأن حبشياً قد أتانى ومعه حربة فقال لى : إن لم تخل عن موسى بن جعفر الساعة وإلا نحرتك بهذه الحربة، فاذهب فخل عنه، فقلت : يا أمير المؤمنين، أطلق موسى بن جعفر؟ ثلاثاً ، قال : نعم امض الساعة حتى تطلق موسى ابن جعفر واعطه ثلاثين ألف درهم، وقل له : إن أحببت المقام قبلنا فلك عندى ما تحب، وإن أحببت المضى إلى المدينة فالإذن فى ذلك إليك، قال : فمضيت إلى الحبس لأخرجه، فلما رآنى موسى وثب إلى قائما وظن أنى قد أُمرت فيه بمكروه. فقلت :لا تخف، وقد أمرنى أمير المؤمنين بإطلاقك، وأن أدفع إليك ثلاثين ألف درهم، وهو يقول لك : إن أحببت المقام قبلنا فلك ما تحب، وإن أحببت الإنصراف إلى المدينة فالأمر فى ذلك مُطلق إليك. وأعطيته الثلاثين ألف درهم، وخليت سبيله، وقلت : لقد رأيت من أمرك عجباً، قال : فإنى أخبرك : بينما أنا نائم إذ أتانى النبى ﷺ فقال : ياموسى، حبست مظلوما فقل هذه الكلمات فإنك لا تبيت هذه الليلة فى الحبس، فقلت : بأبى وأمى ما أقول؟ فقال : قل يا سامع كل صوت ، وياسابق الفوت، ويا كاسى العظام لحما ومنشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنى وباسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذى لم يطلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليما ذا أناة لا يقوى على أناته، يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبداً، ولا يُحصى عدداً، فرج عنى ، فكان ماترى.

ودخل ابن السماك على الرشيد يوما وبين يديه حمامة تلتقط حبا، فقال له: صفها وأوجز، فقال: كأنما تنظر من ياقوتتين، وتلتقط بدرتين، وتطأ على عقيقتين.

ودخل معن بن زائدة على الرشيد وقد كان وجد عليه، فمشى فقارب الخطو فقال له هارون : كبرت والله يا معن، قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين قال : وإن فيك على ذلك لبقية، قال : هى لك يا أمير المؤمنين، قال : وإنك لجلد، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين. فرضى عنه وولاه.

قال : وعرض كلامه هذا على عبد الرحمن بن زيد زاهد أهل البصرة فقال: ويح هذا !! ما ترك لربه شيئا.

وقال الرشيد يوما لمعن بن زائدة: إنى قد أعددتك لأمر كبير، فقال : يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعد لك منى قلبا معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطة بطاعتك، وسيفاً مشحوذاً على عدوك، فإن شئت فقل، وقيل : إن هذا الجواب من كلام يزيد بن مزيد.

وقال الكسائى : دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام، فقال : اقعد ، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه، ولم يبق الا خاصته ، فقال لى : يا علىُّ ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ؟ قلت: ما أشوقنى إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما.

فأمر بإحضارهما، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس، فسلما على أبيهما بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء. فأمرهما بالدنو منه فدنوا فصير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما، ففعلت، فما سألتهما عن شىء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسر بذلك

الرشيد حتى تبينته فيه. ثم قال لى : يا علىُّ ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما؟ فقلت : يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكنت فى الثرى عروقه، وعذبت مشاربه، أبوهما أغر، نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، يحكمان بحكمه، ويستضيئان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلبان فى سعادته، فامتع الله أمير المؤمنين بهما، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما.

فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب ألسنا ولا أحسن ألفاظا ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظا منهما، ودعوت لهما دعاء كثيراً، وأمن الرشيد على دعائى، ثم ضمهما إليه، وجمع يده عليهما، فلم يبسطها حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره، ثم أمرهما بالخروج، فلما خرجا أقبل علىّ فقال : كأنك بهما وقد حُم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وبلغ الكتاب أجله، قد تشتت كلمتهما، واختلف أمرهما، وظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء، وتقتل القتلى، وتهتك ستور النساء، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم فى عداد الموتى، قلت : أيكون ذلك يا أمير المؤمنين لأمر رؤى فى أصل مولدهما أو لأثر وقع لأمير المؤمنين فى مولدهما؟ فقال : لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء.

وصية الرشيد لمؤدب الأمين

قال الأحمر النحوى : بعث إلىَّ الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت قال : يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، ورِوه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع

الكلام وبدأه، وامنعه الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ، ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة.

ويقال : إن العمانى الشاعر قام بحضرة الرشيد خطيبا فلم يزل يقرظ محمداً ويُحرضه على تجديد العهد له، فلما فرغ من كلامه قال له : أبشر يا عمانى بولاية العهد له، فقال : إلىّ والله يا أمير المؤمنين سُرور العشب بالغيث، والمرأة البزور بالولد، والمريض المدنف بالبرء، لأنه نسيج وحده، وحامى مجده، وشبيه حده، قال : فما تقول فى عبد الله ؟ قال : مرعى ولا كالسعدان، فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله! من أعرابى ما أعرفه بمواضع الرغبة، أما والله إنى لأتعرف فى عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدى ، وعن نفس الهادى ، والله لو شاء الله أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته إليها.

قال الأصمعى : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقا شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى.

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما، ثم قال لمسرور الخادم: على بيحيى، فما لبث أن أتاه فقال : يا أبا الفضل، إن رسول الله ﷺ مات فى غير وصية والإسلام جذع، والإيمان جديد، وكلمة العرب مجتمعة، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف، وأعزها بعد الذل، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر، وكان من خبره ما قد علمت، وإن أبى بكر صير الأمر إلى عمر، فسلمت الأمة له، ورضيت بخلافته، ثم صيرها عمر شورى ؛ فكان بعده ما قد بلغك من الفتن

حتى صارت إلى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته، وأحمد طريقته، أثق بحسن سياسته، وآمن ضعفه ووهنه، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم، فيه مافيه من الانقياد لهواه، والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والإماء فى رأيه؛ وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الرأى، الموثوق به فى الأمر العظيم؛ فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية. فأشر علىّ فى هذا الأمر برأيك مشورة يعلم فضلها ونفعها، فإنك بحمد الله مُبارك الرأى لطيف النظر، فقال :يا أمير المؤمنين، إن كل زلة مستقالة وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد، فإن الخطأ فيه غير مأمون، والزلة فيه لا تستدرك، وللنظر فيه مجلس غير هذا؛ فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة، فأمرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد.

ودخلت أم جعفر على الرشيد فقالت : ما أنصفت ابنك محمداً حيث وليته العراق وأعريته عن العدد والقواد، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه، فقال لها : وما أنت وتميز الأعمال واختبار الرجال؟ إنى وليت ابنك السلم، وعبد الله الحرب، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم، ومع هذا فإنا أتخوف ابنك على عبد الله، ولا نتخوف عبد الله على ابنك إن بويع.

وفى سنة ست وثمانين ومائة خرج الرشيد حاجاً ومعه ولیا عهده : الأمين والمأمون، وكتب الشرطين بينهما وعلقهما فى الكعبة.

وحكى عن إبراهيم الحجبى أن الكتاب لما رُفع ليعلق بالكعبة وقع، فقلت فى نفسى : وقع قبل أن يرفع، إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه.

ويروى أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به، وأراد الخروج من الكعبة رد جعفر بن يحيى ، وقال له : إن غدرت بأخيك خذلك الله، حتى فعل ذلك ثلاثاً فى كلها يحلف له، وبهذا السبب اضطغنت أم جعفر على جعفر بن يحيى ؛ فكانت أحد من حرض الرشيد على أمره، وبعثه على ما نزل به.

قال المسعودى : وفى سنة سبع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون كان أمره إليه، إن شاء أن يقره أقره، وإن شاء أن يخلعه خلعه.

وفى هذه السنة – وهى سنة سبع وثمانين ومائة – توفى الفضيل بن عياض ويكنى أبا على ، وكان مولده بخراسان ، وقدم الكوفة ، وسمع من المنصور ابن المعتمر وغيره، ثم تعبد وانتقل إلى مكة فأقام بها إلى أن مات.

حدث سفيان بن عُيينة قال : دعانا الرشيد، فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعاً رأسه بردائه، فقال لى : يا سفيان ، أيهم أمير المؤمنين؟ فقلت : هذا، وأومأت إلى الرشيد، فقال له : أنت ياحسن الوجه، الذى أمر هذه الأمة فى يدك وعنقك؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً، فبكى الرشيد، ثم أتى كل رجل منا ببدرة، فكل قبلها إلا الفضيل، فقال له الرشيد : يا أبا على ، إن لم تستحلها فأعطها ذا دين ، وأشبع بها جائعاً ، واكس بها عرياناً، فاستعفه منها ، فلما خرجنا قلت له : يا أبا على ، أخطأت، ألا أخذتها وصرفتها فى أبواب البر، فأخذ بلحيتى ثم قال : يا أبا محمد، أنت فقيه البلد والمنظور إليه وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لى.

وقبض موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ببغداد مسموماً، لخمس عشرة سنة خلت من ملك الرشيد، سنة ست وثمانين ومائة، وهو ابن أربع وخمسين سنة.

وحدث أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال : كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد فى عتبة، فوعده بتزويجها وأنه يسألها فى ذلك : فإن أجابت جهزها وأعطاه مالا عظيما، ثم إن الرشيد سنح له شغل استمر به، فحجب أبو العتاهية عن الوصول إليه، فدفع إلى مسرور الخادم الكبير ثلاث مراوح، فدخل بها على الرشيد وهو يتبسم، وكانت مجتمعة، فلما قرأ الرشيد شعره .

قال : قاتله الله !! ما أحسن ما قال ، ثم دعا به، وقال ضمنت لك يا أبا العتاهية وفى غد نقضى حاجتك إن شاء الله، وبعث إلى عتبة إن لى إليك حاجة فانتظرينى الليلة في منزلك، فاكبرت ذلك وأعظمته، وصارت إليه تستعفيه، حلف أن لا يذكر لها حاجته إلا فى منزلها، فلما كان فى الليل سار إليها ومعه جماعة من خواص خدمه، فقال لها : لست أذكر حاجتى أو تضمنين قضاءها، قالت : أنا أمتك وأمرك نافذ فى ما خلا أمر أبى العتاهية فإنى حلفت لأبيك رضى الله عنه بكل يمين يحلف بها بر وفاجر وبالمشى إلى بيت الله الحرام حافية كلما انقضت عنى حجة وجبت علىّ أخرى لا أقتصر منها على الكفارة، وكلما أفدت شيئا تصدقت به إلا ما أصلى فيه، وبكت بين يديه، فرق لها ورحمها وانصرف عنها، وغدا عليه أبو العتاهية وهو لا يشك فى الظفر بها فقال له الرشيد: والله ما قصر فى أمرك، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لى بذلك، وشرح له الخبر، قال أبو العتاهية: فلما أخبرنى بذلك مكثت مليا لا أدرى أين أنا، ثم قلت : الآن يئست منها إذ ردتك، وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك.

إسحاق الموصلى والرشيد

حدث إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : بينما أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه إذ طرب لغنائى، وقال : لا تبرح ، ولم أزل أغنيه حتى نام ، فأمسكت، ووضعت العود فى حجرى ، وجلست مكانى، فإذا بشاب صبيح الوجه حسن القد عليه مقطعات خز وهيئة جميلة، فدخل وسلم وجلس، فجعلت أعجب من دخوله فى ذلك الوقت إلى ذلك الموضع بغير استئذان، ثم قلت فى نفسى : عسى بعض ولد الرشيد ممن لا نعرفه ولم نره، فضرب بيده إلى العود، فأخذه ووضعه فى حجره وجسه، فرأيت أنه جس أحسن خلق الله، ثم أصلحه إصلاحاً ما أدرى ماهو، ثم ضرب ضربا، فما سمعت أذنى صوتا أجود منه.

ثم وضع العود من حجره، وقال : يا عاض بظر أمه، إذا غنيت فغن هكذا، ثم خرج ، فقمت على أثره، فقلت للحاجب : من الفتى الذى خرج الساعة؟ فقال: ما دخل هنا أحد ولا خرج قلت : نعم الساعة مر بين يدى فتى صفته كيت وكيت، قال :لا والله مادخل أحد ولا خرج فبقيت متعجباً، ورجعت إلى مجلسى، وانتبه الرشيد ، فقال : ما شأنك ؟ فحدثته القصة، فبقى متعجباً، وقال : لقد صادفت شيطاناً، ثم قال : أعد علىَّ الصوت، فأعدته عليه، فطرب طرباً شديداً، وأمر لى بجائزة، وانصرفت.

وحدث إبراهيم الموصلى قال : جمع الرشيد ذات يوم المغنين، فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر، وكنت فيهم، وحضر معنا مسكين المدنى، ويعرف بأبى صدقة، وكان يوقع بالقضيب، مطبوعاً حاذقاً، طيب العشرة، مليح البادرة، فاقترح الرشيد ـ وقد عمل فيه النبيذ ـ صوتاً، فأمر صاحب الستارة ابن جامع

أن يغنيه، ففعل، فلم يطرب عليه، ثم فعل مثل ذلك بجماعة ممن حضر، فلم يحرك منه أحد ، فقال صاحب الستارة لمسكين المدنى : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغنيه، قال إبراهيم : فاندفع فغناه، فأمسكنا جميعا مُتعجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا فى صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة، قال إبراهيم : فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول وقد رفع صوته : يامسكين أعده، فأعاده بقوة ونشاط واجتماع قلب، فأحسن فيه كل الإحسان .

فقال الرشيد : أحسنت والله يامسكين وأجملت، ورفعت الستارة بيننا وبينه، قال مسكين : يا أمير المؤمنين إن لهذا الصوت خبراً عجيبا قال : وماهو؟ قال : كنت عبداً خياطاً لبعض آل الزبير، وكان لمولاى علىَّ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين، فإذا دفعت ضريبتى تصرفت فى حوائجى، وكنت مُولعا بالغناء محبا له فخطت يوما قميصا لبعض الطالبيين، فدفع إلىَّ درهمين وتغديت عنده وسقانى أقداحا، فخرجت وأنا جذلان، فلقيتنى سوداء على رقبتها جرة وهى تغنى هذا الصوت، فأذهلنى عن كل مُهم، وأنسانى كل حاجة، فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر إلا ألقيت علىَّ هذا الصوت، فقالت : وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين، فأخرجت والله يا أمير المؤمنين الدرهمين فدفعتهما إليها، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب فى صدرى،

ثم انصرفت إلى مولاى، فقال لى : هلم خراجك، فقلت : كان وكان ، فقال: يا ابن اللخناء، ألم أتقدم إليك أنى لا أقبل لك عذرا فى حبة تكسرها؟ وبطحنى وضربنى خمسين جريدة بأشد ضرب يكون وحلق لحيتى ورأسى، فبت يا أمير المؤمنين من أسوأ خلق الله حالا، وأنسيت الصوت مما نالنى ، فلما أصبحت

غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه ، وبقيت متحيراً لا أعرف اسمها ولا منزلها، إذ نظرت بها مقبلة، فأنسيت كل ما نالنى وملت إليها، فقالت : أنسيت الصوت ورب الكعبة،

فقلت : الأمر كما ذكرت، وعرفها ما مر بى من حلق الرأس واللحية، فقالت : وحق القبر ومن فيه[1] لا فعلت إلا بدرهمين ، فأخرجت جلمى[2] ورهنته على درهمين، فدفعتهما إليها، فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت، فمرت فيه ، ثم قالت : كأنى بك وقد أخذت مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار، من الخليفة، ثم اندفعت تغنيه وتوقع على جرتها، فلم تزل تردده حتى رسخ فى صدرى، ثم مضت ، وانصرفت إلى مولاى وجلا، فقال : هلم خراجك ، فلويت لسانى ، فقال: يا ابن اللخناء، ألم يكفك ما مر عليك بالأمس؟ فقلت : إنى أعرفك أنى اشتريت بخراجى أمس واليوم هذا الصوت، واندفعت أغنيه، فقال لى : ويحك !! معك مثل هذا الصوت منذ يومين ولم تعلمنى، امرأته طالق لو كنت قلته أمس لأعتقتك فأما حلق الرأس واللحية فلا حيلة لى فيهما، وأما خراجك فقد وهبته الله لك إلى أن ينبت شعرك، قال : فضحك الرشيد وقال : ويلك !! ما أدرى أيما أحسن : حديثك، أم غناؤك[3]؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء، فقبضه وانصرف.

---

(١) لا يجوز الحلف بغير الله .

(٢) الجلم : المقص .

(٣) بعض المؤرخين ينكر أن الرشيد كان يسمع الغناء ويلهو ويقولون أنه كان يحج عاما ويغزو عاما .

الرشيد يجرى حلبة الخيل

وأجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة ، فلما أرسلت صار إلى مجلسه فى صدر الميدان حيث توافى إليه الخيل، فوقف على فرسه وكان فى أوائلها سوابق من خيله يقدمها فرسان فى عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه، فتأملها فقال: فرسى والله، ثم تأمل الآخر فقال : فرس ابنى المأمون، قال : فجاءا يحتكان أمام الخيل، وكان فرسه السابق وفرس المأمون الثانية، فسر بذلك، ثم جاء الخيل بعد ذلك ، فلما انقضى المجلس وهم بالانصراف قال الأصمعى - وكان حاضراً وقد تبين سرور الرشيد - للفضل بن الربيع : يا أبا العباس، هذا يوم من الأيام فأحب أن توصلنى إلى أمير المؤمنين، وقام الفضل فقال : يا أمير المؤمنين، هذا الأصمعى يذكر شيئاً من أمر الفرسين يزيد الله به أمير المؤمنين سروراً، قال : هاته، فلما دنا قال : ما عندك يا أصمعى ؟ قال : يا أمير المؤمنين، كنت وابنك اليوم فى فرسيكما ، كما قالت الخنساء :

جارى أباه فاقبلا وهما يتنازعان ملاءة الحضر

حدث إبراهيم بن المهدى قال : استزرت الرشيد بالرقة، فزارنى، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريص مثل قريص السمك ، فاستصغر القطع، وقال : لم صغر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك، قال : فيشبه أن يكون فى هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه: يا أمير المؤمنين، فيها أكثر من مائة وخمسين، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئًا دون أن يُحضره ألف درهم فلما حضر المال أمر أن يتصدق به. وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك فى إنفاقك

على جام سمك ألف درهم، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال : اخرج من دار أخى ، ثم انظر أول سائل تراه فادفعه إليه، قال إبراهيم : وكان شراء الجام على الرشيد بمائتين وسبعين دينارا، فغمزت بعض خدمى للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير إليه، وفطن الرشيد فقال له : ياغلام إذا دفعته إلى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل ما من مائتى دينار فإنه خير منها، ففعل الخادم ذلك، فوالله ما أمكن خادمى أن يخلصه من السائل إلا بمائتى دينار.

الرشيد وإبراهيم بن المهدى

وقال إبراهيم بن المهدى : كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة وهو يريد نحو الموصل والمدادون يمدون، والشطرنج بين أيدينا، فلما فرغنا قال لى الرشيد: يا إبراهيم ما أحسن الأسماء عندك ؟ قلت : اسم رسول الله ﷺ ، قال : فما الثانى بعده ؟ قلت : اسم هارون اسم أمير المؤمنين، قال : فما أسمجها؟ قلت إبراهيم ، فزارنى وقال : ويلك !! أليس هو اسم إبراهيم خليل الرحمن جل وعز، قلت بشؤم هذا الاسم لقى ما لقى من نمروذ، قال : وإبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، قلت : لا جرم لما سمى بهذا الاسم لم يعش، قال : فإبراهيم الإمام، قلت: بحرقة اسمه قتله مروان الجعدى فى جراب النورة، وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد خلع، وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل، ولم أجد أحداً سمى بهذا الاسم إلا رأيته مقتولا أو مضروباً أو مطروداً، فما انقضى كلامى حتى سمعت ملاحاً على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته : يا إبراهيم ياعاض كذا وكذا من أمه مد، فالتفت إلىَّ الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين، أصدقت قولي إن أشأم الأسماء إبراهيم فضحك حتى فحص برجله.

قال : وكنت يوماً عنده فإذا رسول عبد الله قد أتى ، ومعه أطباق خيزران عليها مناديل، ومعه كتاب، فجعل الرشيد يقرأ الكتاب ويقول : بره الله ووصله فقلت : يا أمير المؤمنين من هذا الذى أطنبت فى شكره حتى نشركك فى جميل شكره ؟ قال : هذا عبد الله بن صالح، ثم كشف المنديل، فإذا أطباق بعضها فوق بعض : فى أحدها فستق، وفى الآخر بندق، إلى غير ذلك من الفاكهة،

فقلت: يا أمير المؤمنين ما فى هذا البر ما يستحق به هذا الدعاء، إلا أن يكون فى الكتاب شىء قد خفى علىَّ، فنبذه إلى ، فإذا فيه : دخلت يا أمير المؤمنين بستاناً لى فى دارى عمرته بنعمتك، وقد أينعت فواكهه، فأخذت من كل شىء، وصيرته فى أطباق قُضبان ووجهته إلى أمير المؤمنين ليصل إلى من بركة دعائه مثل ما وصل إلىَّ من نوافل بره، قلت : ولا والله مافى هذا أيضا ما يستحق به هذا ، فقال : يا غبى أما ترى كيف كنى بالقضبان عن الخيزران إعظاماً لأمنا رحمها الله تعالى.

الرشيد وأبى يوسف

وكان الرشيد ذات يوم وأبو يوسف القاضى وعبد الوهاب الكوفى فى مجلسه، فتذاكروا الرطب، فقال أبو يوسف : السكر أطيب من المشان، وقال عبد الوهاب : المشان أطيب، فقال الرشيد: ليحضر الطعام، ودعا بعدة من بنى هاشم كانوا هناك، فأقبلوا جميعاً على السكر، وتركوا المشان، فقال الرشيد : قضوا عليك يا أبا عبد الرحمن وهم لا يعلمون، فقال أبو عبد الرحمن: إنى لم أر مشان قط أردأ من هذا، فقال له أبو يوسف : هكذا هما إذا اجتمعا.

تعزية وتهنئة

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب فى هذه الليلة بولد وولد له ولد، فعز وهن ، فلما مثل قال : يا أمير المؤمنين، سرك الله فيما ساءك، وجعل هذه لهذه ثواباً للصابر وجزاء للشاكر.

علة الرشيد ووفاته

ولما اشتدت علة الرشيد وصار إلى طوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هون عليه الأطباء علته، فأرسل إلى متطبب فارسى كان هناك، فأراه ماءه مع قوارير شتى، فلما انتهى إلى قارورته قال : عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك فليوص؛ فإنه لا برء له من هذه العلة.

واشتد ضعفه، وأرجف الناس بموته، فدعا بحمار ليركبه، فلما صار عليه سقطت فخذاه فلم يثبت على السرج، فقال : أنزلونى صدق المرجفون، ثم دعا بأكفان فاختار منها ما أراد، وأمر بحفر قبر، فلما اطلع فيه قال : (ما أغنى عنى ماليه، هلك عنى سلطانيه) ثم دعا بأخى رافع، فقال : أزعجتمونى حتى تجشمت هذه الأسفار مع علتى وضعفي، وكان أخو رافع ابن الليث ممن خرج عليه، قال: لأقتلنك قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك، ثم أمر ففصل عضوا عضواً، واستأمن رافع بعد ذلك على المأمون؛ ثم دعا من كان بعسكره من بنى هاشم فقال : إن كل مخلوق ميت، وكل جديد بال، وقد نزل بى ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث : الحفظ لأمانتكم، والنصيحة لأئمتكم، واجتماع كلمتكم ؛ وانظروا محمداً وعبد الله فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوا له بغيه ونكثه ، وأقطع فى ذلك اليوم أموالا كثيرة وضياعا ورباعاً.

قال الرياشي : قال الأصمعي : دخلت على الرشيد وهو ينظر فى كتاب ودموعه تنحدر على خديه، فظللت قائما حتى سكن ، وحان منه التفاته فقال : اجلس يا أصمعي، أرأيت ما كان ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا.

ثم قال الرشيد : كأنى والله أخاطب بذلك دون الناس، فلم يلبث بعد إلا يسيراً حتى مات.

أخبار البرامكة

لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى فى رأيه ووفور عقله ولا الفضل فى جوده وبراعته ولا جعفر ابن يحيى فى كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى فى سروره وبعد همته، ولا موسى ابن يحيى فى شجاعته وبأسه.

ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد استوزر البرامكة، فاحتازوا الأموال دونه حتى كان يحتاج إلي اليسير من المال فلا يقدر عليه، وكان إيقاعه بهم فى سنة سبع وثمانن ومائة، واختلف فى سبب ذلك : فقيل احتياز الأموال، وأنهم أطلقوا رجلا من آل أبى طالب كان فى أيديهم، وقيل غير ذلك.

ويحكى أنه ورد على الرشيد يوماً كتاب صاحب البريد بخراسان، ويحيى ابن خالد بين يديه، يذكر فيه أن الفضل بن يحيى تشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر فى أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى، وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب، واكتب إليه كتاباً يردعه عن مثل هذا ، فمد يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد: حفظك الله يا بنى،

وأمتع بك، قد انتهى إلي أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاود ماهو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به، والسلام.

حدث الجاحظ عمن أخبره عن أنس بن أبى شيخ، قال : ركب جعفر بن يحيى ذات يوم ، وأمر خادماً له أن يحمل معه ألف دينار، وقال له : سأجعل طريقى على الأصمعى، فإذا حدثنى فرأيتنى ضحكت فاجعلها بين يديه، ونزل جعفر عند الأصمعى، فجعل الأصمعى يحدثه بكل أعجوبة ونادرة تطرب وتضحك، فلم يضحك ، وخرج من عنده، فقال له أنس بن أبى شيخ : رأيت منك عجباً، أمرت بألف دينار للأصمعى وقد حركك بكل مضحكة، وليس من عادتك أن ترد إلى بيت مالك ماقد خرج عنه، فقال له : ويحك !! إنه قد وصل إليه من أموالنا مائة ألف درهم قبل هذه المرة، فرأيت فى داره حبا مكسوراً وعليه دراعة خلق، ومقعدا وسخا، وكل شىء رأيته عنده رثا، وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه، وأن ظهور الصنيعة أمدح وأهجى من مدحه وهجائه، فعلى أى وجه أعطيه إذا كانت الصنيعة لم تظهر عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنده؟

وقد كان يحيى بن خالد ذا علم ومعرفة وبحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام فى الكمون والظهور، والقدم والحدوث، والإثبات والنفى، والحركة والسكون، والماسة والمباينة، والوجود والعدم، والجر والطفرة، والأجسام والأعراض، والتعديل والتجريح ونفى الصفات وإثباتها، والإستطاعة والأفعال والكمية والكيفية، والمضاف، والإمامة أنص هى أم اختيار، وسائر ما توردونه من الكلام فى الأصول والفروع، فقولوا الآن فى العشق على غير منازعة، وليورد كل واحد منكم ما سنح له فيه، وخطر إيراده بباله.

فقال على بن هيثم وكان إماميً المذهب من المشهورين من متكلمى الشيعة : أيها الوزير، العشق ثمرة المشاكلة، وهو دليل تمازج الروحين، وهو من بحر اللطافة، ورقة الصنيعة، وفاء الجوهر وليس يحد لسعته، والزيادة فيه نقصان من الجسد.

وقال أبو مالك الحضرمى، وهو خارجى المذهب وهم الشراة: أيها الوزير، العشق نفث السحر، وهو أخفى وأحر من الجمر، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين، وامتزاج الشكلين، وله نفوذ فى القلب كنفوذ صيب المُزن فى خلل الرمل وهو ملك على الخصال تنقاد له العقول، وتستكين له الآراء.

وقال الثالث : وهو محمد بن الهذيل العلاف ، وكان معتزلى المذهب وشيخ البصريين : أيها الوزير، العشق يختم على النواظر، ويطبع على الأفئدة، مرتقى فى الأجساد، ومسرعة في الأكباد، وصاحبه متصرف الظنون، متغير الأوهام، لا يصفو له موجود، ولا يسلم له موعود، تسرع إليه النوائب، وهو جرعة من نقيع الموت، وبقية من حياض الشكل ، غير أنه من أريحية تكون فى الطبع، وطلاوة توجد فى الشمائل، وصاحبه جواد لا يصغى إلى داعية المنع،، ولا يسنح به نازع العذل.

وقال الرابع - وهو هشام بن الحكم الكوفى شيخ الإمامية فى وقته وكبير الصنعة فى عصره - : أيها الوزير، العشق حبالة نصبها الدهر فلا يصيد بها إلا أهل التخالص فى النوائب، فإذا علق المحب فى شبكتها ونشب فى أثنائها فأبعد به أن يقوم سليما أو يتخلص وشيكا، ولا يكون إلا من اعتدال الصورة، وتكافؤ فى الطريقة، وملاءمة فى الهمة ، له مقتل فى صميم الكبد ومهجة القلب، يعقد اللسان الفصيح، ويترك المالك مملوكا والسيد خولا حتى يخضع لعبد عبده.

وقال النظام إبراهيم بن يسار المعتزلى وكان من نُظار البصريين فى عصره : أيها الوزير العشق أرق من السراب، وأدب من الشراب، وهو من طينة عطرة عجنت فى إناء الجلالة، حلو المجتنى ما اقتصد، فإذا أفرط عاد خبلا قاتلا، وفساداً معضلا، لا يطمع فى إصلاحه، له سحابة غزيرة تهمى على القلوب، فتعشب شعفا، وتثمر كلفاً ، وسريعه دائم اللوعة، ضيق المتنفس، مُشارف الزمن ، طويل الفكر، إذا أجنه الليل أرق، وإذا أوضحه النهار قلق ، صومه البلوى، وإفطاره الشكوى.

ثم قال السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم ، حتى طال الكلام فى العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مر دليل عليه.

قال المسعودى : تنازع الناس ممن تقدم وتأخر فى ابتداء وقوع الهوى وكيفته، وهل ذلك من نظر وسماع ، واختيار واضطرار، وما علة وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ؟ وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه؟

فقال بقراط : هو امتزاج النفسين، كما لو امتزج الماء بماء مثله عسر تخليصه بحيلة من الاحتيال، والنفس ألطف من الماء، وأرق مسلكا، فمن أجل ذلك لا تزيله الليالى، ولا تخلقه الدهور ولا يدفعه دافع دق عن الأوهام مسلكه، وخفى عن الأبصار موضعه وحارت العقول عن كيفية تمكنه غير أن ابتداء حركته من القلب، ثم تسير إلى سائر الأعضاء ، فتظهر الرعدة فى الأطراف، والصفرة فى الألوان، واللجلجة فى الكلام، والضعف فى الرأى والويل والعثار حتى ينسب صاحبه إلى النقص.

وذهب بعض الأطباء إلى أن العشق طمع يتولد فى القلب وينمى وتجتمع

إليه مواد من الحرص ، فإذا قوى زاد بصاحبه الاهتياج واللجاج والتمادى والتفكير والأمانى والهيمان والأحزان وضيق الصدر وكثرة الفكر وقلة الطعم وفساد العقل ويبس الدماغ، وذلك أن التمادى فى الطمع للدم محرق، فإذا احترق استحال إلى السوداء ، فإذا قويت جلبت الفكر فتستعلى الحرارة، وتلتهب الصفراء، ثم تستحيل الصفراء إلى الفساد فتلحق حينئذ بالسوداء ، وتصير مادة لها، فتقوى ، ومن طبائع السوداء الفكر، فإذا فسد الفكر اختلطت الكيموسات بالفساد، ومع الاختلاط تكون الفدامة ونقصان العقل ورجاء مالا يكون ولا يتم فحينئذ يشتد ما به، فيموت أو يقتل نفسه، وربما شهق فتخفى روحه أربعا وعشرين ساعة فيظن أنه مات فيقبرونه حياً، وربما تنفس الصعداء فتخفى روحه فى تامور قلبه، وينضم القلب ولا ينفرج حتى يموت، وربما ارتاح وتشوق بالنظر، ويرى من يحب فجأة، وأنت ترى العاشق إذا سمع ذكر من يحب كيف يهرب دمه ويحول لونه.

وقال بعضهم : إن الله خلق كل روح مدورة على هيئة الكرة، وجزأها أنصافا، وجعل فى كل جسد نصفاً؛ فكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه كان بينهما عشق ضرورة للمناسبة القديمة. وتفاوت أحوال الناس فى ذلك من القوة والضعف على قدر طبائعهم.

ولأهل هذه المقالة خطب طويل. وأن النفوس نورية جوهر بسيط نزل من علو إلى هذه الأجساد فسكنها، وأن النفوس تلى بعضاً على حسب مجاورتها فى عالم النفس فى القرب والبعد، وذهب إلى هذا المذهب جماعة ممن يظهر الإسلام، واعتلوا بدلائل من القرآن والسنن ودلائل القياس عند أنفسهم. من ذلك قوله عز وجل : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية،

فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ قالوا : فالرجوع إلى الحال لا يكون إلا بعد كون متقدم، ثم قول النبى ﷺ فيما رواه سعيد بن أبى مريم قال : أخبرنا يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبى ﷺ أنه قال : «الأرواح جنود مجندة؛ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

وقال جالينوس : المحبة تقع بين العاقلين لتشاكلهما فى العقل، ولا تقع بين الأحمقين وإن كانا شكلين فى الحمق؛ لأن العقد يجرى على ترتيب، فيجوز أن يتفق فيه اثنان على طريق واحدة، والحمق لا يجرى على ترتيب، ولا يجوز أن يتفق فيه اثنان.

وقال الصوفية من البغداديين : إن الله عز وجل إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهونه، ليشق عليهم سخطه، ويسرهم رضاه. فيستدلوا بذلك على قدر طاعة الله، إذ كان لا مثل له، ولا نظير وهو خالقهم غير محتاج إليهم، ورازقهم مبتدئا بالمن عليهم فإذا أوجبوا على أنفسهم طاعة سواه، كان تعالى أحرى أن يتبع رضاه.

وكتب بعض ظرفاء الكتاب إلى أخ له: إنى صادفت منك جوهر نفسى، فأنا غير محمود على الانقياد إليك بغير زمام لأن النفس يتبع بعضها بعضا.

وللناس ممن خلف وسلف من الفلاسفة والفلكيين والإسلاميين وغيرهم كلام كثير فى العشق. ومن أباده الحدثان ، من الأمم الماضية والأجيال الخالية.

زواج جعفر من العباسة أخت الرشيد

ذكر ذو معرفة بأخبار البرامكة أنه لما بلغ جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ويحيى بن خالد والفضل وغيرهم من آل برمك ما بلغوا من الملك، وتناهوا

إليه من الرياسة، واستقامت لهم الأمور، حتى قيل : إن أيامهم عروس وسرور دائم لا يزول، قال الرشيد لجعفر بن يحيى، ويحك يا جعفر !! إنه ليس فى الأرض طلعة أنا بها آنس، ولا إليها أميل، وأنا بها أشد استمتاعاً وأنساً منى برؤيتك وإن للعباسة أختى منى موقعا ليس بدون ذلك، وقد نظرت فى أمرى معكما، فوجدتنى لا أصبر عنك ولا عنها، ورأيتنى ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها، وكذلك حكمى منك فى يوم كونى معك دونها، وقد رأيت شيئاً يجتمع لى به السرور، وتتكاتف لى به اللذة والأنس،

فقال : وفقك الله يا أمير المؤمنين! وعزم لك على الرشد فى أمورك كلها! قال الرشيد : قد زوجتكها تزويجا تملك به مجالستها والنظر إليها والاجتماع بها فى مجلس أنا معكما فيه لا سوى ذلك، فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر إليه فى ذلك، وأشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه، وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها، ولا يجلس معها، ولا يظله وإياها سقف بيت إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما، فحلف له جعفر على ذلك، ورضى به، وألزمه نفسه، وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التى وصفناها وجعفر فى ذلك صارف بصره عنها، مزور بوجهه هيبة لأمير المؤمنين، ووفاء بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه وعلقته العباسة، وأضمرت الاحتيال عليه وكتبت إليه رقعة،

فرد رسولها وشتمه وتهدده، وعادت فعاد بمثل ذلك، فلما استحكم اليأس عليها قصدت لأمه، ولم تكن بالحازمة، فاستمالتها بالهدايا من نفيس الجواهر والألطاف ، وما أشبه ذلك من كثرة المال وألطاف الملوك، حتى إذا ظننت أنها لها فى الطاعة كأمة، وفى النصيحة والإشفاق كالوالدة، ألقت إليها طرفا من الأمر

الذى تريده، وأعلمتها ما لها فى ذلك من حميد العاقبة، وما لابنها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين، وأوهمتها أن هذا الأمر إذا وقع كان به أمان لها ولولدها من زوال النعمة وسقوط مرتبته، فاستجابت لها أم جعفر، ووعدتها بإعمال الحيلة فى ذلك، وأنها تطلف لها حتى تجمع بينهما؛ فأقبلت على جعفر يوما فقالت له : يا بنى قد وُصفت لى وصيفة فى بعض القصور من تربية الملوك قد بلغت من الأدب والمعرفة والظرف والحلاوة مع الجمال الرائع والقد البارع والخصال المحمودة مالم ير مثله، وقد عزمت على اشترائها لك، وقد قرب الأمر بينى وبين مالكها، فاستقبل جعفر كلامها بالقبول، وعلقت بذلك قلبه، وتطلعت إليها نفسه، وجعلت تمطله، حتى اشتد شوقه، وقويت شهوته، وهو فى ذلك يلح عليها بالتحريك والاقتضاء، فلما علمت أنه قد عجز عن الصبر واشتد به العلق قالت له: أنا مُهديتها إليك ليلة كذا وكذا، وبعثت إلى العباسة فأعلمتها بذلك، فتأهبت بمثل ما تتأهب به مثلها وسارت إليها فى تلك الليلة، وانصرف جعفر فى تلك الليلة من عند الرشيد، وقد بقى فى نفسه من الشراب فضلة لما قد عزم عليه، فدخل منزله، وسأل عن الجارية، فخبر بمكانها، فأدخلت على فتى سكران لم يكن بصورتها عالما، ولا على خلقها واقفا ، فقام إليها فواقعها، فلما قضى حاجته منها قالت له: كيف رأيت حيل بنات الملوك ؟

قال : وأى بنات الملوك تعنين؟ وهو يرى أنها من بعض بنات الروم، فقالت له : أنا مولاتك العباسة بنت المهدى، فوثب فزعا قد زال عنه سكره ورجع إليه عقله، فأقبل على أمه وقال : لقد بعتنى بالثمن الرخيص، وحملتنى على المركب الوعر، فانظرى ما يؤول إليه حالى، وانصرفت العباسة مشتملة منه على حمل، ثم ولدت غلاماً، فوكلت به خادما من خدمها يقال له رياش وحاضنة تسمى برة،

فلما خافت ظهور الخبر وانتشاره وجهت الصبى والخادم والحاضنة إلى مكة، وأمرتهما بتربيته، وطالت مدة جعفر، وغلب هو وأبوه وإخوته على أمر المملكة، وكانت زبيدة أم جعفر زوج الرشيد من الرشيد بالمنزلة التى لا يتقدمها أحد من نظرائها، وكان يحيى بن خالد لايزال يتفقد أمر حرم الرشيد ويمنعهن من خدمة الخدم، فشكت زبيدة إلى الرشيد فقال ليحيى ابن خالد : يا أبت ، ما بال أم جعفر تشكوك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، أمتهم أنا فى حرمك وتدبير قصرك عندك ؟ فقال : لا والله ، فقال : لا تقبل قولها، قال الرشيد : فلست أعاودك، فازداد يحيى لها منعاً، وعليها فى ذلك غلظة، وكان يأمر بقفل أبواب الحرم بالليل، ويمضى بالمفاتيح إلى منزله، فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ، فدخلت ذات يوم على الرشيد .

فقالت : يا أمير المؤمنين، ما يحمل يحيى على ما لايزال يفعله من منعه إياى من خدمى ووضعه إياى فى غير موضعى ؟ فقال لها الرشيد : يحيى عندى غير متهم فى حرمى، فقالت : إن كان كذلك لحفظ ابنه مما ارتكبه، فقال : وما ذاك ؟ فخبرته بالخبر وقصت عليه قصة العباسة مع جعفر ، فسقط فى يده، وقال لها : هل لك على ذلك من دليل أو شاهد ؟ قالت : وأى دليل أدل من الولد ؟ قال : وأين الولد ؟ قالت : قد كان ههنا، فلما خافت ظهور أمره وجهته إلى مكة، فقال لها : أفيعلم هذا أحد غيرك ؟ قالت : مافى قصرك جارية إلا وقد علمت به ، فأمسك عن ذلك، وطوى عليه كشحاً، وأظهر أنه يريد الحج، فخرج هو وجعفر بن يحيى، وكتبت العباسة إلى الخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبى إلى اليمن، فلما صار الرشيد إلى مكة وكل من يثق به بالفحص والبحث عن أمر الصبى والداية والخادم فوجد الأمر صحيحاً، فلما قضى حجه ورجع أضمر فى البرامكة على

إزالة نعمهم، فأقام ببغداد مُدة يدة ، ثم خرج إلى الأنبار، فلما كان فى اليوم الذى عزم فيه على قتل جعفر دعا بالسندى بن شاهك، فأمره بالمضى إلى مدينة السلام والتوكيل بدور البرامكة ودور كتابهم وأبنائهم وقراباتهم ،

وأن يجعل ذلك سراً من حيث لايكلم به أحداً حتى يصل إلى بغداد، ثم يفضى بذلك لمن يثق به من أهله وأعوانه، فامتثل السندى ذلك ، وقعد الرشيد وجعفر عنده فى موضع يعرف فى الأنبار بالعمر، فأقاما يومهما بأحسن هيئة وأطيب عيش، فلما انصرف جعفر من عنده خرج الرشيد حتى ركب مشيعاً له ثم رجع الرشيد فجلس على كرسى، وأمر بما كان بين يديه فرفع فمضى جعفر إلى منزله وفيه فضلة من الشراب، ودعا بأبى ذكار المغنى الطنبورى وابن أبى شيخ كاتبه ومُدت ستارة، وجلس جواريه خلفها.

وأمر الرشيد من ساعته ياسرا خادمه المعروف برخلة فقال له : إنى أندبك لأمر ما أرى محمداً ولا القاسم له أهلا ولا موضعاً، ورأيتك به مستقلا ناهضاً، فحقق ظنى، واحذر أن تخالف أمرى فيكون ذلك سببا لسقوط منزلتك عندى وفساد حالك لدى فقال : يا أمير المؤمنين، لو أمرتنى أن أدخل السيف فى بطنى وأخرجه من ظهرى بين يديك لفعلت، فمرنى بأمرك فإنى والله مسرع، فقال : ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكى؟ قال : يا أمير المؤمنين وهل أعرف سواه؟ أو ينكر مثل جعفر ؟

قال : ألم تر تشييعى إياه عند خروجه ؟ قال : بلى ، قال : فامض الساعة إليه فأتنى برأسه على أى حالة تجده عليها، فارتج على ياسر الكلام وأخذته رعدة ووقف لايحير جوابًا، فقال : يا ياسر، ألم أتقدم إليك بترك الخلاف علىّ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين، ولكن الخطب أجل من ذلك، والأمر الذى ندبنى إليه

أمير المؤمنين وددت لو أنى كنت مت قبل أن يجرى على يدى منه شىء، فقال : دع عنك هذا وامض لما قد أمرتك ؛ فمضى ياسر حتى دخل على جعفر وهو على حال لهوه، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرنى فيك بكيت وكيت، فقال جعفر : إن أمير المؤمنين يمازحنى بأصناف من المزاح فأحسب أن هذا جنس منه، فقال : والله ما رأيته إلا جاداً،

قال : فإن يكن الأمر كما قلت فهو إذا سكران، قال : لا والله ما افتقدت من عقله شيئا، ولا ظننته شرب نبيذا في يومه مع ما رأيت من عبادته، قال له : فإن لى عليك حقوقا لم تجد لها مكافأة فى وقت من الأوقات إلا هذا الوقت، قال: تجدنى إلى ذلك سريعا إلا فيما خالف أمير المؤمنين، قال : فارجع إليه فأعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به فإن أصبح نادما كانت حياتى على يديك جارية، وكانت لك عندى نعمة مجددة، وإن أصبح على مثل هذا الرأى نفذت ما أمرت به فى غد، قال : ليس إلى ذلك سبيل، قال : فأصير معك إلى مضرب أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك، فإذا أبديت عذرا ولم يقنع إلا بمصيرك إليه برأسى خرجت فأخذت رأسى من قرب،

قال له : أما هذا فنعم، فمضيا جميعا إلى مضرب الرشيد فدخل إليه ياسر فقال : قد أخذت رأسه يا أمير المؤمنين، وهاهو ذا بالحضرة، فقال له : ائتنى به وإلا والله قتلتك قبله، فخرج فقال له أسمعت الكلام؟ قال : فشانك وما أمرت به، فأخرج جعفر من كمه منديلا صغيرا فعصب به عينيه ومد رقبته فضربها ياسر وأدخل رأسه إلى الرشيد، فلما رأى الرأس بين يديه أقبل عليه، وجعل يذكره بذنوبه،

ثم قال : يا ياسر أئتنى بفلان وبفلان، فلما أتى بهم قال لهم: اضربوا عنق ياسر، فإنى لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر.[1]

وقال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي: دخلت على والدتى يوم نحر، فوجدتها وعندها امرأة برزة متكلمة فى أثواب رثة فقالت لى : أتعرف هذه ؟ قلت: لا ، قالت : هذه عبادة أم جعفر بن يحيى، فأقبلت عليها بوجهى أحدثها وأعظمها ثم قلت لها : يا أماه ما أعجب ما رأيت ؟ قالت : يا بنى لقد أتى على عيد مثل هذا وأنا على رأسي أربعمائة وصيفة، وإنى لأعد ابنى عاقا لى ولقد أتى عليَّ هذا العيد وما أتمنى سوى جلد شاتين أفترش أحدهما وألتحف الآخر، قال: فدفعت إليها خمسمائة درهم، فكادت تموت فرحا بها، ولم تزل تختلف إلينا حتى فرق الموت بيننا .

وحكى عن بعض عمومة الرشيد أنه صار إلى يحيى بن خالد عند تغير الرشيد له قبل الإيقاع بهم، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أحب جمع الأموال، وقد كثر ولده فهو يريد أن يعقد لهم الضياع، وقد كثر عليك وعلى أصحابك عنده فلو نظرت إلى ضياعهم وأموالهم فجعلتها لولد أمير المؤمنين، وتقربت إليه بها رجوت أن يكون لك السلامة، وأن يرجع لك أمير المؤمنين، فقال له يحيى : والله لأن تزول النعمة عنى أحب إلى من أن أزيلها عن قوم كنت سببها إليهم.

وذكر الخليل بن الهيثم الشعبى ـ وكان قد وكله الرشيد بيحيى والفضل فى الحبس ـ قال : أتانى مسرور الخادم ومعه جماعة من الخدم، ومع خادم منهم

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن هذه القصة غير صحيحة وأن الرشيد علم أن البرامكة يأتمرون لعودة دولة الفرس والمجوسية ، وكان الرشيد يكتم سر غضبه على البرامكة فالله ، اعلم بحقيقة ذلك .

منديل ملفوف، فسبق إلى نفسى أن الرشيد قد تعطف عليهم، فوجه إليهم بلطف، فقال لى مسرور: أخرج الفضل بن يحيى ، فلما مثل بين يديه قال له : إن أمير المؤمنين يقول لك : إنى قد أمرتك أن تصدقنى عن أموالكم فزعمت أنك قد فعلت، وقد صح عندى أنك أبقيت أموالا ، وقد أمرت مسرورا أن لم تطلعه عليها أن يضربك مائتى سوط ، فقال له الفضل : قتلت والله يا أبا هاشم ، فقال له مسرور : يا أبا العباس أرى لك أنك لا تؤثر مالك على بهجتك ، فإنى لا آمن إن انفذ ما أمرت به فيك بأن آتى على نفسك ، رفع الفضل رأسه إلى السماء وقال له : يا أبا هاشم ، ما كذبت أمير المؤمنين ، ولو كانت الدنيا لى وخيرت بين الخروج منها وبين أن أقرع مقرعه لاخترت الخروج منها ، وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم أنا كنا نصون أعراضنا بأموالنا ، وكيف صرنا اليوم لصرن فامض له، فأمر بالمنديل فنفض، فسقط منه أسواط بأثمارها، فضرب مائتى سوط، وتولى ضربه أولئك الخدم، فضربوه أشد الضرب الذى يكون بغير معرفة، فكادوا يأتون على نفسه، فخفنا عليه الموت،

فقال الخليل بن الهيثم لوكيله المعروف بأبى يحيى : إن هنا رجلا قد كان فى الحبس، وهو بصير بالعلاج لمثل هذا أو شبهه، فصر إليه واسأله أن يعالجه، قال : فأنهيت إليه ذلك، فقال : لعلك تريد أن تعالج الفضل بن يحيى ، فقد بلغنى ما صنع به ؟ فقلت : إياه أريد؛ قال : فامض بنا إليه حتى أعالجه؛ فلما رآه قال: أحسبه ضربه خمسين سوطا، قال : إنه ضربه مائتى سوط، قال : ما أظن إلا أن هذا أثر خمسين سوطا، ولكن يحتاج أن ينام على بارية وأدوس صدره ساعة، فجزع الفضل من ذلك، ثم أجاب إليه، ففعل ذلك به، ولم يزل يدوس صدره، ثم أخذ بيده فجذبه حتى أقامه عن البارية، فتعلق بها من لحم ظهره

شيء كثير، ثم جعل يختلف إليه ويعالجه إلى أن نظر يوماً إليه فخر ساجداً، فقلت : مالك ؟ فقال : يا أبا يحيى ، قد برىء أبو العباس، أدن منى حتى ترى ، قال : فدنوت منه فأرانى فى ظهره لحما نابتا، ثم قال لى : أتحفظ قولى هذا أثر خمسين سوطا؟ قلت : نعم ، قال : والله لو ضرب ألف سوط ما كان أثرها بأشد من ذلك الأثر ، وإنما قلت ذلك لكى تقوى نفسه فيعيننى على علاجه، فلما خرج الرجل قال لى الفضل: يا أبا يحيى، قد احتجت عشرة آلاف درهم، فسر إلى المعروف بالنسائى وأعلمه حاجتى إليها، قال : فأتيته بالرسالة، فأمر بحملها إليه، فقال : يا أبا يحيى ، أحب أن تمضى بها إلي هذا الرجل، وتعتذر إليه، وتسأله قبول ما وجهت به ، قال : فمضيت إليه فوجدته قاعدا على حصير وطنبور له معلق ودساتيج فيها نبيذ وأداة رثة، فقال : ما حاجتك يا أبا يحيى؟ فاقبلت أعتذر عن الفضل، وأذكر ضيق الأمر عليه، وأعلمته بما وجه به إليه، فامتعض من ذلك ونخر حتى أفزعنى، وقال : عشرة آلاف درهم، يرددها؛ فجهدت كل الجهد أن يقبلها، فأبى ؛ فصرت إلى الفضل، فأعلمته، فقال لى : استقلها والله، ثم قال لى الفضل : أحب أن تعود إلى النسائى ثانية وتعلمه أنى احتجت إلي عشرة آلاف درهم أخرى؛ فإذا دفعها إليك فسر بالكل إلى الرجل، قال : فقبضت من النسائى عشرة آلاف أخرى ورجعت إلي الرجل ومعى المال، وعرفته الخبر؛ فأبى أن يقبل شيئاً منه، فقال : أنا أعالج فتى من الأبناء بكراء؟ اذهب عنى، فوالله لو كانت عشرين ألف دينار ما قبلتها، فرجعت إلى الفضل وأخبرته الخبر، فقال لى : يا أبا يحيى، حدثنى بأحسن ما رأيت أو بلغك من أفعالنا، قال : فجعلت أحدثه مليا، فقال : دع عنك هذا، فوالله إن ما فعله هذا الرجل أحسن من كل ما فعلناه فى أيامنا كلها.

وقتل جعفر بن يحيى وهو ابن خمس وأربعين سنة، وقيل أقل من ذلك ومات يحيى بن خالد بالرقة فى سنة تسع وثمانين ومائة .

وللبرامكة أخبار حسان ، وما كان منهم من الإفضال بالمعروف واصطناع المكارم، وغير ذلك من عجائب أخبارهم وسيرهم وما مدحتهم الشعراء به، ومراثيهم ، وكانوا قبل الإسلام على بيت النوبهار ، وهو بيت النار ببلخ .

خلافة محمد الأمين

وبويع محمد بن هارون فى اليوم الذى مات فيه هارون الرشيد، وهو يوم السبت لأربع ليالٍ خلون من جمادى الأولى، بطوس، سنة ثلاث وتسعين ومائة، وتقدم ببيعته رجاء الخادم، وكان القيم ببيعته الفضل بن الربيع، وكان محمد يكنى بأبى موسى. وأمه زبيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر بالرصافة وكان مولده بالرصافة. وقُتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وستة أشهر وثلاثة عشر يوماً. ودُفنت جثته ببغداد. وحُمل رأسه إلى خراسان. وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وقيل : تسعة أشهر، وقيل : ثمانية أشهر وستة أيام.

وقيل : إن محمداً أفضت الخلافة إليه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وسبعة أشهر وأحد وعشرين يوماً، وكان أصغر من المأمون بستة أشهر، وكانت أيامه فى الحصار من خلعه إلى مقتله سنة ونصفا وثلاثة عشر يوماً، حبس فيها يومين.

سيرة الأمين

قبض الرشيد والمأمون بمرو، وبعث صالح بن الرشيد رجاء الخادم مولى محمد الأمين، إلى محمد، فأتاه بالخبر فى اثنى عشر يوماً إلى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة.

وذكر جماعة من الأخباريين وممن عُنى بأخبار العباسيين كالمدائنى، والعتبى وغيرهما أن زبيدة رأت فى المنام ليلة علقت بمحمد كأن ثلاث نسوة دخلن عليها وهى بمجلس، فوقفت اثنتان عن يمينها وواحدة عن يسارها، فدنت إحداهن، فجعلت يدها على بطن أم جعفر، ثم قالت : ملك فخم عظيم البذل، ثقيل

الحمل، نكد الأمر، ثم فعلت الثانية كما فعلت الأولى، وقالت : ملك ناقص الجد، مفلول الحد، ممذوق الود، تجور أحكامه، وتخونه أيامه، ثم فعلت الثالثة كما فعلت الثانية، وقالت ملك قصاف، عظيم الإيلاف، كثير الخلاف، قليل الإنصاف، قالت : فاستيقظت وأنا فزعة، فلما كان فى الليلة التى وضعت فيها محمداً دخلن عليَّ وأنا نائمة كما كن دخلن . فقعدن عند رأسى، ونظرن فى وجهى، ثم قالت إحداهن : شجرة نضرة، وريحانة حسنة، وروضة زاهرة، ثم قالت الثانية : عين غدقة، قليل لبثها، سريع فناؤها، عجل ذهابها، وقالت الثالثة، عدو لنفسه، ضعيف فى بطشه، سريع إلى غشه ، مُزال عن عرشه، فاستيقظت من نومى وأنا فزعة بذلك، وأخبرت بذلك بعض قهارمتى، فقالت : بعض ما يطرق النائم، وعبث من عبث التوابع،

فلما تم فصاله أخذت مرقدى ليلة ومحمد أمامى فى مهده، إذ بهن قد وقفن على رأسى وأقبلن على ولدى محمد، فقالت إحداهن: ملك جبار، متلاف مهذار، بعيد الآثار، سريع العثار، ثم قالت الثانية: ناطق مخصوم، ومحارب مخزوم ، وراغب محروم، وشقى مهموم، وقالت الثالثة : احفروا قبره، ثم شقوا لحده، وقدموا أكفانه، وأعدوا جهازه؛ فإن موته خير من حياته. قالت : فاستيقظت وأنا مضطربة وجلة، وسألت مفسرى الأحلام والمنجمين، فكل يخبرنى بسعادته وحياته وطول عمره، وقلبى يأبى ذلك، ثم زجرت نفسى وقلت : وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحتراز واقع القدر، أو يقدر أحد أن يدفع عن أحبابه الأجل؟

وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة مات أبو بكر بن عياش الكوفى الأسدى وهو ابن ثمان وتسعين سنة، بعد موت الرشيد بثمانى عشرة ليلة.

ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم، فقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين، ألا تكون أول الخلفاء نكث عهده، ونقض ميثاقه. واستخف بيمينه، فقال : اسكت أسكت الله فاك ؛ فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأيا حيث يقول : لا يجتمع فحلان فى هجمة. وجمع القواد وشاورهم فاتبعوه فى مراده إلى أن بلغ إلى هرثمة بن حازم، فقال : يا أمير المؤمنين : لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تجرىء القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإن الغادر مخذول، والناكث مغلول. ودخل على بن عيسى بن ماهان، فتبسم محمد وقال : لكن شيخ هذه الدعوة، وباب هذه الدولة، لا يخالف إمامه، ولا يوهن طاعته، ثم رفعه إلى موضع ما رفعه إليه فيما مضى، فكان على بن عيسى أول من أجاب إلى خلع المأمون، فسيره فى جيش عظيم نحو خراسان، فلما قرب من الرى قيل له : إن طاهر ابن الحسين مقيم بها، وقد كان يظن أن طاهراً لا يثبت له، فقال : والله ما طاهر إلا شوكة من أغصانى وشرارة من نارى، وما مثل طاهر يؤمر على جيش، وما بينه وبين الموت إلا أن تقع عينه على سوادكم، فإن السخال لا تقوى على نطاح الكباش، والثعالب لا تقدر على لقاء الأسد،

فقال له ابنه : ابعث طلائع وارتد موضعاً لعسكرك، فقال : ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد ويستظهر له بالاحتراز والتحفظ، إن حال طاهر يؤدى إلى أمرين، إما أن يتحصن بالرى فيثب به أهلها ويكفونا مؤنته، أو يخليها ويُدبر راجعاً، لو قد قربت خيولنا منه، فقال له ابنه : إن الشرارة ربما صارت ضراما، فقال : اسكت إن طاهرا ليس قرنا فى هذا الموضع، وإنما تحترس الرجال من أقرانها، وسار على بن عيسى حتى دنت عساكره من الرى ، وتبين ما عليه

طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الأطراف، فعدل إلى رُستاق من رساتيق الرى متياسراً عن الطريق، فنزل به، وانبسطت عساكره، وأقبل طاهر فى نحو من أربعة آلاف فارس، فأشرف على عساكر على بن عيسى وتبين كثرتها وعدة ما فيها، فعلم أن لا طاقة له بذلك الجيش، فقال لخواص من معه : نجعلها خارجية، وكردس خيله كراديس، وصمد فى نحو القلب فى سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان، وخرج إليه من القلب العباس بن الليث مولى المهدى، وكان فارساً، فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فانثنى العباس وانضم المعروف بداود سياه إلى على بن عيسى وقد اختلط الناس، فضربه ضربة فأتى عليه،

وكان على فى ذلك الوقت على برذون كميت أرجل، وتمالأ على رأسه الرجال، وتنازعوا فى خاتمه ورأسه، فذبحه رجل يعرف بطار بن الراجى، وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته، وآخر على خاتمه، وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعاً للعباس بن الليث، وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين، لجمعه يديه على السيف.

وذكر أحمد بن هشام - وكان من وجوه القواد - قال : جئت إلي مضرب طاهر وقد توهم أنى قُتلت فى المعركة ومعى رأس علىّ وقد شد، فقال : البشرى، هذه خصلة من رأس على مع غلامى فى المخلاة، فطرحه قدامه، ثم أتى بجثته، وقد شُدت يداه ورجلاه ، كما يفعل بالدواب إذا ماتت فألقى فى بئر، وكتب إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل بالخبر، فكان فى الكتاب : أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، كتابى إليك، ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى أصبعى، والحمد لله رب العالمين؛ فسر المأمون بذلك، وُسلم عليه فى ذلك الوقت بالخلافة.

وقد كانت أم جعفر لا تعلق من الرشيد ؛ فشاور بعض مجالسيه من شار عليه بأن يغيرها ، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة، فلم تكن تعلق منه، فلما وهبت له هاجر علقت منه بإسماعيل فغارت سارة عند ذلك، فعلقت بإسحاق، فاشترى الرشيد أم المأمون، فاستخلاها، فعلقت بالمأمون، فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد.

قال المسعودى : وقد قدمنا التنازع فى ذلك - أعنى قصص إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام، وقول من ذهب إلي أن إسحاق هو المأمور بذبحه، ومن قال : بل إسماعيل، وما ذكر كل فريق منهم فى ذلك، وقد تناظر فى ذلك السلف والخلف، فمن ذلك ما جرى بين عبد الله بن عباس وبين مولاه عكرمة، وقد قال عكرمة: من المأمور بذبحه؟ فقال : إسماعيل ، واحتج بقول الله عز وجل : ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ ألا ترى أنه بشر إبراهيم بولادة إسحاق فكيف يأمره بذبحه؟ فقال له عكرمة : أنا أوجدك أن الذبيح إسحاق من القرآن ، واجنح بقول الله عز وجل : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ﴾ فنعمته على إبراهيم : أن نجاه من النار، ونعمته على إسحاق : أن فداه بالذبح ، وكانت وفاة عكرمة مولى ابن العباس سنة خمس ومائة، ويكنى أبا عبد الله، مات فى اليوم الذى مات فيه كثير عزة، فقال الناس : مات عظيم الفقهاء وأهل العلم وكبير الشعراء، وفيها كانت وفاة الشعبى.

بعث إلىَّ الأمين محمد، وهو محاصر، فصرت إليه، فإذا هو جالس فى طارمة خشبها من عود وصندل عشرة فى عشرة، وإذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه فى جوف الطارمة، وهى قبة كان اتخذ لها فراشا مُبطنا بأنواع

الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الإبريسم ، فسلمت فإذا قُدامه قدح بلور مخروز فيه شراب ينفذ مقادره خمسة أرطال ، وبين يدى سليمان قدح مثله، فجلست بإزاء سليمان، فأتيت بقدح كالأول والثانى، قال : فقال : إنما بعثت إليكما لما بلغنى قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان، وما قد صنع فى أمرنا من المكروه، وقابلنا به من الإساءة، فدعوتكما لأفرج بكما وبجيشكما، فاقبلنا نحدثه ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح، ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً، قال فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال.

فقال لها : غنينا ، فوضعت العود فى حجرها وغنت :

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأكثر حزما منك خرج بالدم

فتطير من قولها ونهرها ، وظلت تردد مثل هذا الشعر ثانية وثالثة ، وهو يزجرها ، وقال لها قومى عنى فعل الله باب كذا وكذا وصنع بك ، فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسرته ، فانهزم الشراب ، وكانت ليلة قمراء ونحن على شاطئ دجلة فسمعنا قائلا يقول : ﴿قضى الأمر الذى فيه نستغيثا﴾ ، سورة يوسف .

وذكر إبراهيم بن المهدى قال : استأذنت على الأمين يوماً، وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه، فأبوا أن يأذنوا لى بالدخول عليه، إلى أن كاثرت ودخلت، فإذا هو قد تطلع إلى دجلة بالشباك، وكان فى وسط قصره بركة عظيمة لها مخترق إلى الماء فى دجلة، وفى المخترق شباك حديد، فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم، والغلمان قد انتشروا إلى تفتيش الماء، وهو كالواله، فقال لى

وقد ثنيت بالسلام وكررت : لا تدرى يا عمى ؛ فمقرطتى قد ذهبت فى البركة إلى دجلة، والمقرطة : سمكة كانت قد صيدت له وهى صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتادر وقيل : ياقوت قال ; فخرجت وأنا آيس من فلاحه، وقلت: لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت.

وكان محمد فى نهاية الشدة والقوة والبطش والبهاء والجمال، إلا أنه كان عاجز الرأى، ضعيف التدبير، غير مفكر فى أمره.

وحكى أنه اصطبح يوماً ، وقد كان خرج أصحاب اللبابيد والحراب على البغال - وهم الذين كانوا يصطادون السباع - إلى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوثى والقصر، فاحتالوا فى السبع إلى أن أتوا به فى قفص من خشب على جمل بختى، فحط بباب القصر وأدخل، فمثل فى صحن القصر والأمين مصطبح، فقال : خلوا عنه وشيلوا باب القفص، فقيل له : يا أمير المؤمنين، إنه سبع هائل أسود وحش، فقال : خلوا عنه، فشالوا باب القفص، فخرج سبع أسود له شعر عظيم مثل الثور، فزأر وضرب بذنبه إلى الأرض، فتهارب الناس، وغلقت الأبواب فى وجهه،

وبقى الأمين وحده جالسا فى موضعه غير مكترث بالأسد، فقصده الأسد حتى دنا منه، فضرب الأمين بيده إلى مرفقة أرمنية، فامتنع منه بها، ومد السبع يده إليه، فجذبها الأمين وقبض على أصل أذنيه، وغمزه ثم هزه أو دفع به إلى خلف فوقع السبع ميتاً على مؤخره، وتبادر الناس الأمين فإذا أصابعه ومفاصل يديه قد زالت عن مواضعها، فأتى بمجبر فرد عظام أصابعه إلى مواضعها، وجلس كأنه لم يعمل شيئاً، فشقوا بطن الأسد فإذا مرارته قد انشقت عن كبده.

وحكى أن المنصور جلس ذات يوم ودخل إليه بنو هاشم من أهله، فقال لهم وهو مستبشر، أما علمتم أن محمداً المهدى ولد البارحة له ولد ذكر، وقد سميناه موسى ؟ فلما سمع القوم ذلك وجموا وكأنما حثا فى وجوههم الرماد، وسكتوا ولم يحيروا جواباً، فنظر إليهم المنصور فقال لهم : هذا موضع دعاء وتهنئة ، وأراكم قد سكتم، ثم استرجع، فقال لهم : كأنى بكم لما أخبرتكم بتسميتى إياه موسى اغتممتم به، لأن المولود المسمى بموسى ابن محمد هو الذى على رأسه تختلف الكلمة وتسفك الدماء وتنتهب الخزائن، ويضطرب الملك، يقتل أبوه، وهو المخلوع من الخلافة ، ليس هو ذا، لا ، ولا هذا زمانه، والله إن جد هذا المولود - يعنى هارون الرشيد- لم يولد بعد، قال : فدعوا له وهنوه وهنوا المهدى، وكان هذا موسى الهادى أخا الرشيد.

وكان العهد الذي كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون وأودعه الكعبة أن الغادر منهما خارج من الأمر، أيهما غدر بصاحبه، والخلافة للمغدور به.

وذكر ياسر خادم أم جعفر، وكان من خواصها أنه لما أحيط بمحمد دخلت عليه أم جعفر باكية، فقال لها : مه، إنه ليس بجزع النساء وهلعهن عُقدت التيجان، وللخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع، وراءك وراءك.

ويقال : إن محمداً قصف عند طاهر، فبينما طاهر فى بستانه إذ ورد كتاب من محمد بخطه، فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلن أنه ما قام لنا مذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه منا إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع » قال : فلم يزل والله يتبين موقع الكتاب من طاهر، فلما رجع إلي خراسان أخرجه إلى خاصته، وقال لهم : والله ما هذا كتاب مضعوف، ولكنه كتاب مخذول.

ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - من أبوه وأمه من بنى هاشم، إلا علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه، ومحمد بن زبيدة.

وفى سنة أربع وتسعين ومائة كان ابتداؤه بالغدر بالمأمون.

وفى سنة سبع وتسعين ومائة مات بالرقة عبدُ الملك بن صالح بن على فى أيام الأمين، وكان عبد الملك أفصح ولد العباس فى عصره، يقال : إن الرشيد لما اجتاز ببلاد منبج من أرض الشام نظر إلى قصر مشيد، وبستان معتم بالأشجار كثير الثمار، فقال لعبد الملك : لمن هذا القصر؟ قال : هو لك ولى بك يا أمير المؤمنين، قال : فكيف بناء القصر؟ قال : دون منازلك وفوق منازل الناس، قال : فكيف مدينتك ؟ قال : عذبة الماء ، باردة الهواء، صلبة الموطأ، قليلة الأدواء، قال : كيف ليلها؟ قال : سحر كله، وقال له يا أبا عبد الرحمن، ما أحسن بلادكم!! قال : فكيف لاتكون كذلك وهى تربة حمراء، وسنبلة صفراء ، وشجرة خضراء، فيافى فيح، وجبال وضيح، بين قيصوم وشيح، فالتفت الرشيد إلى الفضل بن الربيع فقال : ضرب السياط أهون على من هذا الكلام.

ولما سمى محمد ابنه « موسى الناطق بالحق» وأخذ له العهد على الناس الفضل بن الربيع وزيره، وموسى يومئذ لا ينطق بأمر، ولا يعرف حسناً ولا يعقل قبيحاً، ولا يخلو من الحاجة إلى من يخدمه فى ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقيامه وقعوده، وأحضنه على بن عيسى بن ماهان.

ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ماهان سار فنزل حلوان، وذلك على خمسة أيام من مدينة السلام، فتعجب الناس من زيادة أمره، وإدبار

أصحاب الأمين وهزيمتهم على كل حال، وأيقنت القلوب بغلبة طاهر وظهور المأمون، وأسقط فى يدى الفضل بن الربيع وأصحابه.

وبلغ محمداً فجمع قواده وبطانته عندما ظهر من أمر طاهر، وشاورهم وقال : أحضروا لى غناءكم كما أحضرت خراسان لعبد الله غناءها.

ولما انهزم جيش محمد بن يدى طاهر، ولم يقم له قائمة منهم قال سليمان ابن أبى جعفر: لعن الله الغدار، ماذا جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه، وأبعد الله نسبه من أهل الفضل، ما أسرع ما انتصر الله للمأمون بكبش المشرق يعنى طاهراً.

ولما أحيط بمحمد من الجانب الشرقى والغربى، وكان هرثمة بن أعين نازلا مما يلى النهروان بالقرب من باب خُراسان، وثلاثة أبواب، وطاهر من الجانب الغربى مما يلى الياسرية وباب المحول والكناسة؛ جمع قواده فقال : الحمد لله الذي يضع من يشاء بقدرته ويرفع، والحمد لله الذى يعطى بقدرته من يشاء ويمنع ، والحمد لله الذى يقبض ويبسط وإليه المصير، أحمده على نوائب الزمان، وخذلان الأعوان، وتشتت الحال، وكسوف البال، وصلى الله على محمد رسوله وآله وسلم، وقال : إنى لأفارقكم بقلب موجع، ونفس حزينة، وحسرة عظيمة، وإنى محتال لنفسى. فأسأل الله أن يلطف بى بمعونته، ثم كتب إلي طاهر: أما بعد، فإنك عبد مأمور تنصحت فنصحت، وحاربت فنصرت ، وقد يغلب الغالب، ويخذل المفلح، وقد رأيت الصلاح فى معاونة أخى ، والخروج إليه من هذا السلطان؛ إذ كان أولى به وأحق، فأعطنى الأمان على نفسى وولدى وأمى وجدتى وخدمى وحاشيتى وأنصارى وأعوانى حتى أخرج إليك وأتبرأ من هذا الأمر إلى أخى، فإن رأى الوفاء لى بأمانك وإلا كان أولى وأحق، قال : فلما قرأ طاهر الكتاب قال

: الآن لما ضيق خناقه، وهيض جناحه، وانهزم فساقه؟ لا والذي نفسي بيده حتى يضع يده في يدي وينزل على حكمي ، فعند ذلك كتب إلى هرثمة يسأله النزول على حكم أمانه.

وقد كان المخلوع جهز جماعة من رجاله من الأبناء وغيرهم ممن استأمن إليه لدفع المأمونية عنه، فمالوا نحو هرثمة، وكان طاهر بن الحسين يمد هرثمة بالرجال، ولم يلق هرثمة مع ذلك كثير كيد، فلما مال من ذكرنا إلى حرب هرثمة وعلى الجيش بشر وبشير الأزدبان بعث إليهما طاهر يتوعدهما، فلم يأمنا صولته، لإشرافه على الفتح، فخليا عن الجيش وانفض الجمع، وكان طاهر قد نزل في البستان المعروف بباب الكباش الطاهري.

وضاق الأمر بمحمد الأمين ففرق في قواده المحدثين دون غيرهم خمسمائة ألف درهم وقارورة غالية ، ولم يعط قدماء أصحابه شيئًا، فأتت طاهراً عيونه وجواسيسه بذلك، فراسلهم وكاتبهم، ووعدهم ومناهم، وأغرى الأصاغر بالقادة حتى غضبوا لذلك، وشغبوا على الأمين، وذلك يوم الأربعاء لست ليال خلون من ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائة.

ونقل طاهر من الياسرية، فنزل بباب الأنبار، وحاصر أهل بغداد، وغادى القتال وراوحه ، حتى تواكل الفريقان، وخربت الديار، وعفت الآثار، وغلت الأسعار، وذلك في سنة ست وتسعين ومائة، وقاتل الأخ أخاه، والابن أباه، هؤلاء محمدية وهؤلاء مأمونية، وهدمت المنازل، وأحرقت الديار، وانتهبت الأموال.

وبعث هرثمة بن أعين بزهير بن المسيب الضبي من الجانب الشرقي، فنزل الماطر مما يلي كلواذا، وعشر ما في السفن من أموال التجار الواردة من

البصرة وواسط، ونصب على بغداد المنجنيقات، ونزل فى رقة كلواذا والجزيرة، فتأذى الناس به، وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون، وكانوا يقاتلون عُراة فى أوساطهم التبابين والميازر، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ، ودرقا من الخوص والبوارى قد قُيرت وحشيت بالحصى والرمل، على كل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده، فالعريف له أناس مركبهم غير ما ذكرنا من المقابلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير، وناس عُراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر، ومقاود قد اتخذت لهم، ولجم وأذناب من مكانس ومذاب، فيأتى العريف وقد أركب واحداً وقدامه عشرة من المقاتلة على رؤوسهم خوذ الخوص ودرق البوارى، ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك، فتقف النظارة ينظرون إلى حربهم مع أصحاب الخيول الفره الجواشن والدروع والتجافيف والسواعد والرماح والدرق التبتية؛ فهؤلاء عراة وهؤلاء على ما ذكرنا من العدة فكانت للعراة على زهير، وأتاه المدد من هرثمة، فانهزمت العراة، ورمت بهم خيولهم، وتحاصروا جميعاً، وأخذهم السيف، فقتل منهم خلق، وقتل من النظارة خلق.

فلما ضاق الأمر بالأمين فى أرزاق الجند ضرب آنية الذهب والفضة سرا، وأعطى رجاله، وتحيز إلى طاهر الحربية وغيرها من الأرباض مما يلى باب الأنبار، وباب حرب، وباب قطر بل ، فصارت الحرب فى وسط الجانب الغربى، وعملت المنجنيقات بين الفريقين، وكثر الحريق والهدم ببغداد والكرخ وغيره من الجانبين، حتى درست محاسنها، واشتد الأمر، وتنقل الناس من موضع إلى موضع، وعم الخوف.

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين أربعة عشر شهراً، وضاقت بغداد بأهلها، وتعطلت المساجد، وتركت الصلاة، ونزل بها مالم ينزل بها قط مثله، مذ بناها أبو جعفر المنصور، وقد كان لأهل بغداد فى أيام حرب المستعين والمعتز حرب نحو هذا من خروج العيارين إلي الحرب وقد اتخذوا خيلا منهم وأمراء كالملقب بنينويه خالويه وغيرهم، يركب الواحد منهم على واحد من العيارين ويسير إلى الحرب في خمسين ألف عُراة، ولم ينزل بأهل بغداد شر من هذا الحرب حرب المأمون والمخلوع، وقد استعظم أهل بغداد ما نزل بهم فى هذا الوقت فى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة من خروج أبى إسحاق المتقى لله عنهم، وما كان قبل هذا الوقت من البريديين، وابن رائق وتوزون التركى، وما دفعوا إليه من الوحشة بخروج أبى محمد الحسن بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان الملقب بناصر الدولة، وأخيه على بن عبد الله الملقب بسيف الدولة عليهم، لبعد العهد مما حل بالمنازل بها، وطول السنين، وغيبة ذلك عنهم، وبُعدهم منه، وتقدم مثل أولئك العيارين الذين كانوا فى ذلك العصر، واشتد الأمر بين المأمونية والعراة وغيرهم من أصحاب المخلوع، وحوصر محمد فى قصره من الجانب الغربى، فكان بينهم فى بعض الأيام وقعة تفانى فيها خلق كثير من الفريقين.

وكانت وقعة أخرى عظيمة بشارع دار الرقيق هلك فيها خلق كثير، وكثر القتل فى الطرق والشوارع، ينادى هذا بالمأمون والآخر بالمخلوع ، ويقتل بعضهم بعضا، وانتهبت الدور، فكان الفوز لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة بما يسلم معه إلى عسكر طاهر فيأمن على نفسه وماله.

وسأل قائد من قواد خراسان طاهراً أن يجعل له الحرب فى يومها له فيه، ففعل طاهر له ذلك، فخرج القائد وقد حقرهم، وقال : ما يبلغ من كيد هؤلاء، ولا

سلاح معهم، مع ذوى البأس والنجدة والسلاح والعُدة؟ فبصر به بعض العراة وقد راماه مدة طويلة حتى فنيت سهام القائد، وظن أن العريان فنيت حجارته، فرماه بحجر بقيت فى المخلاة، وقد حمل عليه القائد، فما أخطأ عينه، وثناه بحجر آخر، فكاد يصرع القائد عن فرسه، ووقعت البيضة عن رأسه، فكر راجعاً.

واشتد القتال فى كل يوم ، وصبر الفريقان جميعاً، وصار حامية المخلوع وجنده العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البوارى، وضايق طاهر القوم، وأقبل يقتطع من بغداد الشارع بعد الشارع، ويصير فى حيزه أهل تلك الناحية معاونين له فى حربه، وأقبل الهدم يكثر فيما ليس من حيزه، ثم جعل يحفر الخنادق بينه وبين أصحاب المخلوع فى مواضع الدور والمنازل والقصور، وأصحاب طاهر فى قوة وإقبال، وأصحاب المخلوع فى نقص وإدبار، وأصحاب طاهر يهدمون، وأصحاب المخلوع يأخذون بعض الدور من خشب وأثواب وغير ذلك.

ولما نظر طاهر إلى أصحاب المخلوع على هذه الحال الصعبة قطع عنهم مواد الأقوات وغيرها من البصرة وواسط وغيرهما من الطرق، فكان الخبز فى حد المأمونية عشرين رطلا بدرهم، وفى حد المحمدية رطل بدرهم، وضاقت النفوس وأيسوا من الفرج ، واشتد الجوع، وسر من سار إلى حيز طاهر، وأسف من بقى مع المخلوع، وتقدم طاهر فى سائر أصحابه من مواضع كثيرة، وقصد باب الكباش فاشتد القتال، وتبادرت الرؤوس، وعمل السيف والنار، وصبر الفريقان، وكان القتل أعم فى أصحاب طاهر، وفنى خلق من العراة أصحاب مخالى الحجارة والآجر وخوذ الخوص ودرق الحصر والبوارى ورماح القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر، وكان ذلك فى يوم الأحد.

ولما ضاق بمحمدالحال واشتد به الحصار أمر قائدا من قواده يقال له ذريح أن يتبع أصحاب الأموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم، وقرن معه آخر يعرف بالهرش، فكانايهجمان على الناس، ويأخذان بالظنة، فاجتبيا بذلك السبب أموالا كثيرة، فهرب الناس بعلة الحج، وفر الأغنياء من ذريح والهرش.

ولما عم البلاد أهل الستر اجتمع التجار بالكرخ على مكاتبة طاهر أنهم ممنوعون منه ومن الخروج إليه، ومغلوب عليهم وعلى أموالهم، وأن العُراة والباعة هم الآفة، فقال بعضهم : إنكم إن كاتبتم طاهراً لم تأمنوا صولة المخلوع بذلك، فدعوهم فإن الله مهلكهم.

وثارت العراة ذات يوم في نحو مائة ألف بالرماح والقصب والطرادات من القراطيس على رؤوسها، ونفخوا في بوقات القصب وقرون البقر، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية، وزحفوا من مواضع كثيرة نحو المأمونية، فبعث إليهم طاهر بعدة قُواد وأمراء من وجوه كثيرة، فاشتد الجلاد، وكثر القتل، وكانت للعراة على المأمونية إلى الظهر، وكان يوم الاثنين، ثم ثارت المأمونية على العراة من أصحاب محمد، فغرق منهم وقتل وأحرق نحو عشرة آلاف.

واشتد الأمر بمحمد المخلوع، فباع مافي خزائنه سراً، وفرق ذلك أرزاقاً فيمن معه، ولم يبق معه ما يعطيهم، وكثرت مطالبتهم إياه، وضيق عليه طاهر، وكان نازلا بباب الأنبار في بستان هنالك، فقال محمد: وددت أن الله قتل الفريقين جميعاً؛ فما منهم إلا عدو : من معي، ومن علي ؛ أما هؤلاء فيريدون مالي، وأما أولئك فيريدون نفسي.

ولما اشتد الأمر عليه وجد به ونزل هرثمة بن أعين بالجانب الشرقي،

وطاهر بالجانب الغربى، وبقى محمد فى مدينة أبى جعفر، شاور من حضره من خواصه فى النجاة بنفسه؛ فكل أدلى برأى، وأشار بوجه ؛ فقال قائل منهم : تكاتب ابن الحسين وتحلف له بما يثق به أنك مفوض أمرك إليه، لعله أن يجيبك إلى ما تريد منه، فقال : ثكلتك أمك ! لقد أخطأت الرأى فى طلبى المشورة منك، أما رأيت ثار رجل لا يؤول إلى عذر؟ وهل كان المأمون لو اجتهد لنفسه وتولى الأمر برأيه بالغا عشر ما بلغه له طاهر؟ ولقد دسست وفحصت عن رأيه، فما رأيته يطلب إلا تأثيل المكارم وبُعد الصيت والوفاء، فكيف أطمع فى استذلاله بالأموال وفى غدره والاعتماد فى عقله؟ ولو قد أجاب إلى طاعتى وانصرف إلىَّ، ثم ناصبنى جميع الترك والديلم ما اهتمت بمناصبتهم.

والله لوددت أنه أجابنى إلى ذلك فأبحته خزائنى، وفوضت إليه ملكى، ورضيت بالمعاش تحت يديه، ولا أظننى فعلته، ولو كانت لى ألف نفس. فقال السندى: صدقت والله يا أمير المؤمنين، ولو أنك أبوه الحسين بن مصعب ما استبقاك، فقال محمد : وكيف لنا بالخلاص إلى هرثمة ولات حين مناص؟ وراسل هرثمة، ومال إلى جنبته، فوعده هرثمة بكل ما أحب، وأنه يمنعه ممن يريد قتله؛ وبلغ ذلك طاهراً، فاشتد عليه وزاد غيظه وحنقه، ووعده هرثمة أن يأتيه فى حراقة إلى مشرعة باب خراسان فيصير به إلى عسكره هو ومن أحب،

فلما هم محمد بالخروج فى تلك الليلة ـ وهى ليلة الخميس، لخمس ليال بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ـ دخل إليه الصعاليك من أصحابه، وهم فتيان الأبناء والجند، فقالوا له : يا أمير المؤمنين، ليس معك من ينصحك، ونحن سبعة آلاف رجل مقاتلة، وفى إصطبلك سبعة آلاف فرس يحمل كل منا على فرس وتفتح بعض أبواب المدينة، ونخرج فى هذه الليلة، فما يقدم علينا أحد

إلى أن نصير إلى بلد الجزيرة وديار ربيعة، فنجبى الأموال، ونجمع الرجال، ونتوسط الشام، وندخل مصر، ويكثر الجيوش والمال، وتعود الدولة مقبلة جديدة، فقال : هذا والله الرأى، فعزم على ذلك وهم به وجنح إليه، وكان لطاهر فى جوف دار الأمين غلمان وخدم من خاصة الأمين يبعثون إليه بالأخبار ساعة فساعة، فخرج الخبر إلى طاهر من وقته، فخاف طاهر، وعلم أنه الرأى إن فعله، فبعث إلى سليمان بن أبى جعفر وإلي ابن نهيك والسندى بن شاهك - وكانوا مع الأمين - إن لم تزيلوه عن هذا الرأى لأخربن دياركم وضياعكم ولأزيلن نعمكم ولأتلفن نفوسكم، فدخلوا على الأمين فى ليلتهم، فأزالوه عن ذلك الرأى، وأتاه هرثمة فى الحراقة إلى باب خراسان، ودعا الأمين بفرس يقال له الزهيرى، أغر محجل أدهم محذوف، ودعا الأمين بابنيه موسى وعبد الله فعانقهما وشمهما وبكى، وقال : الله خليفتى عليكما، فلست أدرى أألتقى معكما بعدها أو لا ، وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود وقُدامه شمعة، حتى أتى باب خراسان إلي المشرعة والحراقة قائمة فنزل ودخل الحراقة، فقبل هرثمة بين عينيه، وقد كان طاهر نمى إليه خروجه، فبعث بالرجال من الهروية وغيرهم والملاحين فى الزوارق على الشط، فدفعت الحراقة،

ولم يكن مع هرثمة عدة من رجاله، فأتى أصحاب طاهر عراة فغاصوا تحت الحراقة فانقلبت بمن فيها، فلم يكن لهرثمة شاغل إلا أن نجا بحشاشة نفسه، فتعلق بزورق وصعد إليه من الماء ومضى إلى عسكره من الجانب الشرقى، وشق محمد ثيابه عن نفسه وسبح فوقع نحو السراة إلى عسكر قرين الديرانى غلام طاهر، فأخذه بعض السواس حين شم منه رائحة المسك والطيب، فأتى به قرينا فاستأذن فيه طاهراً، فأتاه الإذن فى الطريق وقد حمل إلى طاهر،

فقتل فى الطريق وهو يصيح : إنا لله وإنا إليه راجعون، أنا ابن عم رسول الله ﷺ وأخو المأمون، والسيوف تأخذه حتى برد، وأخذو رأسه، وكانت ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة.

وذكر أحمد بن سلام - وقد كان مع الأمين فى الحراقة حين انقلبت - فسبح فقبض عليه بعض أصحاب طاهر وأراد قتله، فأرغبه فى عشرة آلاف درهم، وأنه يحمله إليه فى صبيحة تلك الليلة، قال : فأدخلت بيتا مظلما فبينما أنا كذلك إذ دخل على رجل عريان عليه سراويل وعمامة قد تلثم بها، وعلى كتفه خرقة ، فجعلوه معى ، وتقدموا إلى من في الدار فى حفظنا ، فلما استقر فى الدار حسر العمامة عن وجهه فإذا هو محمد، فاستعبرت واسترجعت فيما بينى وبين نفسى، وجعل ينظر إلى ثم قال : أيهم أنت ؟ قلت : أنا مولاك ياسيدى، قال: وأى الموالى أنت ؟ قلت : أحمد بن سلام ، قال : أعرفك بغير هذا، كنت تأتينى بالرقة؟ قلت : نعم، ثم قال : يا أحمد، قلت : لبيك ياسيدى، قال : ادن منى وضمنى إليك فإنى أجد وحشة شديدة، قال : فضممته إلىَّ، فإذا قلبه يخفق خفقانا شديداً، ثم قال : أخبرنى عن أخى المأمون أحى هو؟ قلت له : فهذا القتال عمن إذن ؟ قال : قبحهم الله ! ذكروا أنه مات، قلت : قبح الله وزراءك ! فهم أوردوك هذا المورد، فقال لى : يا أحمد ليس هذا موضع عتاب ! فلا تقل فى وزرائى إلا خيرا فما لهم ذنب، ولست بأول من طلب أمرا فلم يقدر عليه، قلت : ألبس إزارى هذا وارم بهذه الخرقة التى عليك، فقال : يا أحمد من كان حاله مثل حالى فهذه له كثير، ثم قال لى : يا أحمد ما أشك أنهم سيحملوننى إلى أخى أفترى أخى قاتلى ؟ قلت : كلا ، إن الرحم ستعطفه عليك، فقال لى : هيهات ؟! الملك عقيم لا رحم له، فقلت له : إن أمان هرثمة أمان أخيك، قال

فلقنته الاستغفار وذكر الله، فبينما نحن كذلك إذ فتح باب البيت فدخل علينا رجل عليه سلاح فاطلع فى وجه محمد مستثبتا له، فلما أثبته معرفة خرج وأغلق الباب، وإذا هو محمد الطاهرى، قال : فعلمت أن الرجل مقتول؛ وقد كان بقى على من صلاتى الوتر، فخفت أن أقتل ولم أوتر، فقمت لأوتر، فقال لى : يا أحمد لا تبعد منى وصل بقربى، فإنى أجد وحشة شديدة، فدنوت منه، فقل ما لبثنا حتى سمعنا حركة الخيل ودق باب الدار، ففتح الباب فإذا قوم من العجم بأيديهم السيوف مصلتة، فلما أحس بهم محمد قام قائما وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهبت والله نفسى فى سبيل الله، أما من حيلة؟ أما من مُغيث؟ وجاءوا حتى قاموا على باب البيت الذى نحن فيه، وجعل بعضهم يقول لبعض : تقدم ، ويدفع بعضهم بعضاً، فأخذ محمد بيده وسادة وجعل يقول : أنا ابن عم رسول الله ، أنا ابن هارون الرشيد، أنا أخو المأمون، الله الله فى دمى ، فدخل عليه رجل منهم مولى لطاهر فضربه بالسيف ضربة وقعت فى مقدم رأسه، وضرب محمد وجهه بالوسادة التى كانت فى يده، واتكأ عليه ليأخذ السيف من يده، فصاح بالفارسية: قتلنى الرجل، فدخل منهم جماعة فنخسه أحدهم بسيفه فى خاصرته، وكبوه فذبحوه من قفاه، وأخذوا رأسه، ومضوا به إلى طاهر.

وأتى بخادمه كوثر وكان حظيه، معه الخاتم والبرد والسيف والقضيب، فلما أصبح طاهر أمر برأسه فنصب على باب من أبواب بغداد يعرف بباب الحديد نحو قُطر بل في الجانب الغربى، إلى الظهر، ودفنت جثته فى بعض تلك البساتين.

ولما وضع رأس الأمين بين يدى طاهر قال : "اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير،

إنك على كل شىء قدير" وحُمل الرأس إلى خراسان إلى المأمون فى منديل والقطن عليه والأطلية ، فاسترجع المأمون وبكى واشتد تأسفه عليه، فقال له الفضل بن سهل : الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة؛ فإن محمدا كان يتمنى أن يراك بحيث رأيته، فأمر المأمون بنصب الرأس فى صحن الدار على خشبة، وأعطى الجند، وأمر كل من قبض رزقه أن يلعنه، فكان الرجل يقبض ويلعن الرأس، فقبض بعض العجم عطاءه، فقيل له : ألعن هذا الرأس، فقال : لعن الله هذا ولعن والديه وما ولدا وأدخلهم فى كذا وكذا من أمهاتهم، فقيل له : لعنت أمير المؤمنين، وذلك بحيث يسمعه المأمون منه فتبسم وتغافل، وأمر بحط الرأس، وترك ذلك المخلوع ، وطيب الرأس وجعله في سفط، ورده إلى العراق فدفن مع جثته، ورحم الله أهل بغداد وخلصهم مما كانوا فيه من الحصار والجزع والقتل.

ولما قتل محمد دخل إلى زبيدة بعض خدمها، فقال لها : ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد ؟! فقالت : ويلك !! وما أصنع ؟ فقال : تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت : اخسأ لا أم لك، ما للنساء ، وطلب الثأر ومنازلة الأبطال.

وكان ما حدث للأمين بسبب غدره بأخيه ونقض العهد المعلق فى جوف الكعبة ، كما أن فكرة العهد لأكثر من واحد كانت وبالا على الدولة العباسية ، وقد دفع المسلمون الثمن غالياً نتيجة هذه الخلافات والحروب الأهلية ، وتجرأ العجم على العرب وتجرأ القواد على الخلفاء فصاروا فيما بعد يعزلون ويولون من يشاءون ويقتلون ويسملون ، وكانت هذه الخلافات والاستعانة بالأعاجم على خلع الخلفاء سببا فى قيام الدويلات فى العصر العباسى الثانى ، كما بينا ذلك فى أول الكتاب .

الخليفة المأمون

بويع المأمون بعد قتل أخيه الأمين بعد قتال مرير وكان عالما ذا حزم وقوة لا يعاب عليه إلا ما كان معه من القول بخلق القرآن وطلبه العلماء من البلدان وامتحانهم فى ذلك ، وسلك مسلكه فى ذلك بعده أخوه المعتصم وابنه الواثق ، وأول من أظهر القول بخلق القرآن الجعد بن درهم أو غيلان بن يونس فقتل هشام بن عبد الملك كلا منهما .

الخليفة المعتصم بالله

جرى المعتصم على ما كان عليه المأمون من امتحان الناس بخلق القرآن وبويع بالخلافة بعد موت أخيه المأمون بعهد منه إليه ، وكان ذا حزم وقوة رأى وشجاعة وقوة وقامة واشتهر عنه حكايات فى قوته ، وكان يسمى المثمن ؛ لأنه ولد سنة ثمانين فى الشهر الثامن وهو الثامن من خلفاء بنى العباس والثامن من ولد العباس فى سلسلة النسب ومات عن ثمانية بنين وثمان بنات ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وعمره ثمان وأربعون ٤٨ سنة ، وقيل : سبع وأربعون وشهران .

وغزا غزوات وفتح فتوحات منها عمورية وهى بروسا وله فى فتحها قصة عجيبة مذكورة فى التواريخ وفى مدة رجوعه منها وهو فى الطريق أراد بعض وزرائه خلعه ومبايعة العباس بن المأمون فعلم بذلك فقبض على العباس وحبسه وأمر باطعامه طعاما كثيرا ومنعه من الماء حتى مات وقتل بعض من أراد خلعه وحبس بعضهم .

وقد تقدم أنه كان الرشيد لما قسم الخلافة والولايات بين بنيه لم يجعل له شيئا وقال : إنه أمي فقدر الله أن يلى الخلافة وأن جميع الخلفاء من بعده من ذريته ويأبى الله إلا ما يريد والله غالب على أمره .

الخليفة المتوكل

بويع بعد موت أبيه المعتصم وجرى على ما كان عليه أبوه المعتصم وعمه المأمون من القول بخلق القرآن ، بويع بعد موت أخيه الواثق باتفاق أهل الحل والعقد ورفع الامتحان فى القول بخلق القرآن ثم قتله الأتراك فى آخر مدته باغراء ابنه المنتصر لأنه جعل المنتصر ولى عهده ثم أراد خلعه والبيعه لأخيه المعتز وكان أصغر من المنتصر ورفعت أمور يطول ذكرها إلى أن قتل المتوكل ولبيعة المتوكل قصة عجيبة مع الوزير ابن الزيات مذكورة فى التواريخ .

الخليفة المنتصر

بويع المنتصر بعد قتل أبيه ولم يتمتع بالخلافة إلا ستة أشهر لكونه تواطأ مع الأتراك على قتل أبيه وذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء : أن المنتصر لما جلس على سرير الملك رأى فى بعض البسط دائرة فيها فارس وعليه تاج وحوله كتابة بالفارسية فطلب من يقرأ ذلك ويعربه فأحضر رجل فقرأه فقال : أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز قتلت أبى فلم أمتع بالملك إلا ستة أشهر فتغير وجه المنتصر وأمر برفع البساط .

وفى تاريخ القرمانى قيل : إن المنتصر رأى فى النوم المتوكل وهو يقول له : ويلك قتلتنى وظلمتنى والله لا تمتع بالخلافة ثم مصيرك إلى النار فانتبه مرعوبا ولم يزل يبكى . وقيل : إن الأتراك خافوا أن يفتك بهم وفاجأته حمى أراد يفتصد

فارشوا الطبيب ففصده بريشة مسمومة فمات من ذلك ولما احتضر قال لأمه : يا أماه ذهبت منى الدنيا والآخرة عاجلت أبى فعولجت .

الخليفة المقتدر

لم يل الخلافة بل كان متغلبا على أخيه المعتمد على الله فى مدة خلافته ، وتوفى سنة ٢٧٨ .

الذى فى التواريخ أى فى كثير منها أنه ابن المعتصم والذى فى تاريخ ابن الشحنة وفى تاريخ ابن الأثير والمسعودى المسمى بمروج الذهب أنه ابن ابنه وأن أباه محمد بن المعتصم مع المعتصم اسمه محمد وثار عليه الأتراك وخلعوه ثم قتلوه وقصته مذكورة فى التواريخ .

الخليفة المعتز

بويع المعتز بد أن خلع المستعين ثم ثار عليه الأتراك أيضا وخلعوه وقتلوه.

عبد الله هذا ابن المعتز الملقب بالمرتضى بالله لم يعده المؤرخون من الخلفاء ؛ لأنه بويع يوما واحدا عند خلع المقتدر سنة ٢٩٦ ثم خلع وقبض عليه وأعيد المقتدر .

الخليفة المعتمد

بويع المهتدى بعد خلع المعتز ثم سار عليه الأتراك أيضا وخلعوه وقتلوه.

بويع المعتمد بالله بعد خلع المهتدى وتغلب عليه أخوه طلحة الموفق بن المتوكل على الله فلم يكن للمعتمد فى زمن خلافته مع طول مدتها إلا الاسم

والأمر بيد أخيه طلحة ، احتاج المعتمد يوما ثلاثمائة دينار فلم يجدها فى ذلك الوقت فقال : أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعا عليه وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذلك شئ فى يديه .

الخليفة المعتضد

كان المعتضد هذا من فحول الملوك وكان أبوه الموفق، غضب عليه قبل وفاته فى أمر خالفه فيه فسجنه قال : فرأيت رؤيا حين كنت مسجونا فاستبشرت بما رأيت فسألت كأن شيخا جالسا على دجلة يمد يده إلى ماء دجله فيصير فى يديه وتجف دجلة ثم يرده من يده فتعود دجلة كما كانت عنه فقيل لى : هذا على بن أبى طالب . قال : فقمت فسلمت عليه فقال : يا أحمد ، إن هذا الأمر صائر إليك فلا تتعرض لولدى ولا تؤذيهم . فقلت : السمع والطاعة يا أمير المؤمنين ، ولما مرض أبوه أطلق من السجن ، ولما مات أبوه الموفق تغلب ابنه أحمد الملقب المعتضد بالله على عمه المعتمد على الله ، كما كان أبوه الموفق متغلبا فصارت الأمور كلها بيده وكان عمه المعتمد قد جعل ابنه جعفر أولى عهده ولقبه المفوض إلى الله فألزمه المعتضد أن يخلع ابنه المفوض ، وأن يجعل المعتضد ولى عهده ففعل ذلك ولقبه المعتضد حينئذ ، فلما مات المعتمد على الله بويع المعتضد وكان شجاعا مهابا وافر العقل ظاهر الجبروت شديد الوطأة ، من أفراد خلفاء بنى العباس تلقى مرة أسد بسيفه فقطع عضده ثم ضربه ضربة فلقت هامته وكان سمى السفاح الثانى ؛ لأنه جدد ملك بنى العباس ولما احتضر شكوا فى موته فتقدم الطبيب وجس نبضه ففتح عينيه ورفس الطبيب برجله فنحاه فألقاه ذراعاً . فمات الطبيب ثم مات المعتضد .

حكى القاضى بن إسحاق . قال : دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث مُردٌ صباح الوجوه فأطلت النظر إليهم فلما تفرق الناس قال لى : والله ما حللت سراويلى على حرام قط .

الخليفة المقتدر

خلع المقتدر هذا فى محرم سنة ٢٩٦ ست وتسعين ومائتين وبويع عبد الله بن المعتز وفى ثانى يوم خلع ثم قتل ولم يعد المؤرخون ابن المعتز من الخلفاء ثم أعيد المقتدر ثم خلع المقتدر سنة ٣١٧ وبويع أخوه القاهر وبعد ثلاثة أيام أعيد المقتدر وخلع القاهر ثم قتل المقتدر سنة ٣٢٠ وأعيد القاهر وكان قتل المقتدر فى حرب وقع بينه وبين مؤنس الخادم الخاصى الذى بلغ غاية الرياسة وكان من عبيد أبيه المقتدر وفى خلال هذه الأمور وقعت العجائب وفتن يشيب منها الرضيع ثم إن القاهر لما ولى قتل مونسا وكل هذه الأشياء مبسوطة فى التواريخ ومن بعده هذه الوقائع تغلب العمال على أعمالهم وضعف أمر الخلافة

قال الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة فى سنة ٣٢٣ ثلاث وعشرين وثلثمائة: تغلب أصحاب الأطراف عليها لضعف الخلافة وصارت الدنيا فى يد عمالها فكانت مصر والشام فى يد الأخشيد والموصل وديار الموصل وديار بكر وديار ربيعه ومصر فى أيدى بنى حمدان وفارس فى يد على بن بويه وخرسان فى يد نصر بن أحمد السامانى والبصرة والأهواز فى يد اليزيدى وكرمان فى يد محمد بن إلياس وأصفهان والجبل فى يد الحسن بن بويه والمغرب وإفريقية فى يد أبى عمر الغسّانى وطبرستان وجرحان فى يد الديلم والبحرين واليمامة وهجر فى يد القائم العلوى ابن المهدى يدل قول السيوطى فى أبى عمر الغسانى

ويجمع بينهما بأن عمر والغسانى ماتا متغلبان على قطعة من ذلك وزاد ابن الشحنة والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر الأموى .

الخليفة القاهر

بويع القاهر بعد قتل المقتدر سنة ٣٢٠ ثم خلع سنة ٣٢٢ وسملت عيناه وبويع الراضى بالله بن المقتدر وبقى القاهر أعمى واصابته فاقة وفقر شديد إلى أن توفى سنة ٣٢٩ تسع وثلاثين وثلثمائة وسجنوه إلى سنة ٣٣ ثم أطلقوه فكان يسأل الناس.

الخليفة الراضى

بويع الراضى بعد خلع محمد القاهر قال ابن الأثير : كان الراضى سميحا كريما يحب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم وختم الخلفاء فى أمور منها أنه آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة خطب كثيرا على منبر وإن كان غيره قد خطب فلا اعتبار به وكان آخر خليفة نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه المتقدمين .

الخليفة المستكفى بالله

بويع بعد موت أخيه الراضى بالله ثم خلع وسلمت عيناه وبقى أعمى وبويع المستكفى بن المكتفى وبقى أعمى فى داره إلى أن توفى سنة ٣٥٧ .

فى سنة ٣٤ من خلافته دخل بنو بويه بغداد وتغلبوا على الخلفاء وخلع معز الدولة ابن بويه المسكتفى بالله وسمله وأقام بدله المطيع لله بن المقتدر وبقى المسكتفى أعمى لى أن توفى سنة ٣٣٨ بدار السلطنة .

الخليفة الطايع

أصابه فالج نفسه سنة ٣٦٣ وبويع ابنه الطايع له أقيم بعد خلع أبيه نفسه له وبقى إلى أن خلع سنة ٣٨١ وسمل وصار أعمى خلعه بهاء الدولة ابن بويه وأقام مقامه القادر بالله ولما تولى القادر بالله جعله معه فى داره وكان يحسن إليه ويتحمله فى غلظة كلامه جيء له يوما بعدس فلمسه وقال : ما هذا ؟ .

قالوا له : عدس . فقال : أمن هذا أكل أمير المؤمنين ؟ . قالوا : إذا كان هذا أكله كان الأولى به أن يقعد فى البطيحة ولا يتعين ولا يتكلف مشقة الخلافة فضحك القادر بالله وقال : منعناه من راحة البصر فلا نمنعه من راحة اللسان.

الخليفة القادر

بويع القادر بالله بعد خلع الطايع له وكان قد هرب من الطايع للبطيحة عند مهذب الدولة صاحب البطيحة وسبب ذلك : أنه لما توفى أبوه إسحاق جرى بينه وبين أخته منازعة على صبعة فسعت بأخيها إلى الطايع وقالت : إن أخى شرع فى طلب الخلافة عند مرضك وكان قبل ذلك قربة فتغير على أخيها أحمد وأرسل لقبضه فهرب واستتر ثم سار إلى البطيحة فتزل على مهذب الدولة سنة ٣٧٩ فاكرمه فلما قبض بهاء الدولة على الطائع وخلعه أشاروا عليه بأنه لا يصلح للخلافة إلا القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر وإنما تلقب بالقادر بالله بعد أن استخلف فكانت إقامته عند مهذب الدولة سنتين وأحد عشر شهر فطلبه بهاء الدولة حضر بويع بالخلافة .

وكان من صالح الخلفاء وطالت مدة خلافته حتى بلغت إحدى وأربعين سنة والخلفاء الذين من بعده كلهم من ذريته ولما جاءت رسل بهاء الدولة لأخذه من

البطيحة كان يحكى مناما لجماعة كانوا عنده قال : رأيت البارحة فى منامى كأن نهركم هذا نهر الصليق قد اتسع فصار مثل دجلة دفعات فسرت على حافته متعجبا ثم رأيت قنطرة فصعدتها فرأيت شخصاً قد قابلنى من ذلك الجانب . فقال : أتريد أن تعبر ؟ . قال : نعم ، فمد يده حتى وصلت إلى فأخذنى وعبر بى فهالنى وتعاظمنى فعله ، فقلت : من أنت ؟ قال : على بن أبى طالب ، وهذا الأمر صائر إليك ويطول عمرك فيه فأحسن إلى ولدى فما انتهى القادر إلى هذا القول حتى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم فسألنا عن ذلك وإذا هم الواردون إليه لأخذه ليستولى الخلافة ولما تولى جدد أمر الخلافة وعظم ناموسها وله أخبار كثيرة تدل على حسن سيرته .

الخليفة المسترشد

هذا هو الذى ذهب إلى مصر بعد أن أخذ التتار بغداد وكان معتقلا ببغداد فبايعه الظاهر بيبرس وبقية الناس وكان وصوله إلى مصر فى شهر صفر سنة ٦٦٠ ستين وستمائة بعد فقد الأول الذى توجه بالجيش وكان هذا قد اختفى وقت أخذ بغداد وبقيت الخلافة بمصر فى ذريته إلى سنة ٩٢٣ وذلك عام دخول السلطان سليم مصر وسيأتى ذكر الحاكم بأمر الله المذكور وذكر أولاده فى باب مستقل .

وخرج بيبرس ومعه عساكر كثيرة لقتال التتار ليملك بغداد فلما قرب من بغداد استقبله جماعة من التتار بجيوشهم واقتتل معهم وقتل من المسلمين جماعة وعدم الخليفة فلم يعلم له أثر والظاهر أنه قتل وكان ذلك فى محرم سنة ٦٦٠ فكانت خلافته دون ستة أشهر ولقب بهذا اللقب بعد أن بويع بمصر .

كان عادلا فى الرعية حسن السيرة - رحمه الله - فقتلوه ومثلوا به .

الخليفة الراشد

فبويع ابنه الراشد وكان المسترشد شهما شجاعا فصيحا بليغا عالى الهمة كان السلطان مسعود لما بايع الراشد حلفه أن لا يحاربه ولا يجند عليه جنودا وإنه متى قتل شيئاً من ذلك خلع نفسه فحصل اختلاف بين مسعود وابن أخيه داود وقتال فكان الراشد ممن دخل فى شئ من ذلك فاستفتى مسعود فيه العلماء وذكر لهم أشياء توجب الخلع فقاموا بخلعه سنة ٥٣٠ ، وبويع عمه المقتفى بن المستظهر ، وفى سنة ٥٣٢ دخل عليه جماعة من الباطنية ممن كانوا يخدمونه فقتلوه وكان حسن الصوت مهابا شديد البطش رحمه الله تعالى.

الخليفة المقتفى

قيل : إن سبب تلقيبه المقتفى أنه رأى النبى ﷺ مناما قبل : أن يلى الخلافة بستة أيام فقال له : إن هذا الأمر يصير إليك فاقتف بى فلقب بذلك وكان حليما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى العقل وهو أول خليفة تمكن من الخلافة بعد تغلب بنى بويه وبنى سلجون فإنه فى خلافته انقطع تغلبهم على الخلفاء واستبد بالأمر ففى سنة ٥٥١ إحدى وخمسين وخمسمائة امتنع من الخطبة للسلطان محمد بن محمود السلجوقى فجاء بعسكره وحاصر بغداد ثم انصرف من غير طائل وانقطع تغلبهم على بغداد .

الخليفة المستنجد

كان المستنجد من أحسن الخلفاء سيرة ولما اشتد مرضه وكان بعض

وزرائه خائفا منه لجنايات جناها فدس عليه طبيبا يصف له ما يؤذيه فوصف له الحمام فأدخله فيه وأغلقه حتى غم ثم مات رحمه الله تعالى .

كان عادلا حليما حسن السيرة محبا للفقراء رحمه الله تعالى .

طالت مدته وساءت سيرته عفا الله عنه .

الخليفة الظاهر

كان أبوه جعله ولى عهده ثم أراد خلعه فلم يتمكن له ذلك ولذا تلقب بالظاهر بأمر الله وكان حسن السيرة على الضد من سيرة زبيه ومدته قصيرة على الضد من أبيه رحمه الله .

هذا كان معتقلا فى بغداد عند وقعة التتار فسلم من قتلهم أباه فقدم مصر سنة ٦٥٩ فأثبت نسبه وبايعه الظاهر بيبرس وبقية الناس .

الخليفة المستعصم بالله

هذا آخر الخلفاء العباسيين ببغداد فكان انقضاء الخلافة ببغداد سنة ٦٥٦ ست وخمسين وخلافة المستعصم بالله ابن المستنصر بالله وكان ذهاب الخلافة بدخول التتار بغداد ، وهم قوم كفار خرجوا من الصين وتغلبوا على ممالك الإسلام وكانوا يقتلون الرجال والنساء والصبيان ويأكلون كل شئ حتى الكلاب والحشرات ولا يعرفون نكاحا ولا يحرمون شيئا وكان ابتداء خروجهم فى أول القرن السابع وظهر أمرهم فى سنة سبع عشرة وستمائة وكان الابتلاء بهم من أعظم البلايا ولم يقع لأهل الإسلام بلاء مثل بلائهم ولم يزالوا يستولون على الأمصار والمدائن والقرى إلى أن استولوا على بغداد وأزالوا خلافة بنى العباس

منها وكان من أعظم الأسباب لذلك أن ابن العلقمى وزير المستعصم كان رافضيا وكان يريد نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين فكاتب التتر وأطمعهم فى ملك بغداد .

وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فحسن للمستعصم أن يقطعهم ليحمل متحصل ما كان يدفع لهم للتتار ليدفعهم عنه فقطعهم واقتصر على عشرين ألفا ثم أرسل ابن العلقمى إليهم ليستدعيهم فساروا قاصدين بغداد فى جحفل عظيم وخرج عسكر الخليفة لقتالهم فالتقيا على مرحلتين من بغداد واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى الشام فنزل التتر على بغداد لمحاصرتها فخرج إليهم ابن العلقمى وتوثق لنفسه .

وعاد إلى الخليفة وقال له : إن هلاكو ملك التتر يبقيك فى الخلافة ويريد أن يزوج ابنته من ابنك وحسن له الخروج إلى هلاكو فخرج إليهم الخليفة المستعصم فى جمع من أكابر أصحابه فأنزل فى خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والعلماء فاجتمع هناك جميع سادات بغداد وعلماؤها فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم وقتلوا الخليفة ولم يعلم كيفية قتله فقيل : خُنق ، وقيل : وضعوه فى عدل ورفسوه حتى مات .

وغرق فى دجله ثم دخلوا بغداد وهجموا دار الخلافة وقتلوا كل من فيها من الأشراف ولم يسلم إلا من كان صغيراً فأخذ أسيرا ثم قتلوا من فى بغداد ونهبوا دورهم ودار القتل والنهب نحو أربعين يوما ثم نادوا بالأمان بعد أن بلغ القتلى أكثر من ألف ألف وقيل : أكثر من ألفى ألفى وثلاثمائة ألف نسمة ولم يسلم إلا من اختفى فى بئر أو قناة ، قيل : إذ قتل الخليفة المستعصم كان فى الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ ست وخمسين وستمائة وابتداء ذلك كله فى

عاشر المحرم سنة ٦٥٦ ست وخمسين وستمائة أما ابن العلقمى فإنه لم يتم له ما أراد وذاق من التتار غاية الذل والهوان فإن هلاكو استدعاه بين يديه وعنفه على سوء ما فعله مع أستاذه ثم قتله شر قتله .

وقيل : أنه مات حتف أنفه غما وكمدا .

قال الجلال السيوطى فى (حسن المحاضرة) : كان لانقراض الخلافة ببغداد وما جرى على المسلمين بتلك البلاد مقدمات عليها العلماء . منها : أنه فى عشر ربيع الآخر سنة ٦٤٤ أربع وأربعين وستمائة هبت ريح شديدة بمكة فألقت أستار الكعبة المشرفة فما سكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السّواد وكان السواد شعار بنى العباس فكانوا لا يلبسون إلا السواد ومكثت الكعبة إحدى وعشرين يوما ليس عليها كسوة .

قال الحافظ ابن كثير : فكان هذا إعلان زوال دولة بنى العباس ومنذراً بما سيقع بعد هذا من كائنة التتار لعنهم الله تعالى ومنها : أنه فى سنة ٦٤٧ سبع وأربعين وستمائة طغى الماء ببغداد حتى أتلف شيئا كثيرا من المحال والدور الشهيرة وتعذرت إقامة الجمعة بسبب ذلك وفى سنة ٦٥٢ اثنين وخمسين ظهرت نار فى بعض جبال عدن بحيث أن يطير شررها إلى البحر فى الليل ويصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار ، وفى سنة ٦٥٤ أربع وخمسين وستمائة زادت دجلة زيادة مهولة فغرق خلق كثير من أهل بغداد ومات خلق تحت الهدم وركب الناس فى المراكب واستعانوا بالله وعاينوا التلف ودخل ماء من أسوار البلاد وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً وانهدم مخزن الخليفة وهلك شئ كثير من خزانة السلاح .

قال السبّكي : وكان ذلك من جملة الأمور التى هى مقدمة لواقعة التتر وفى سنة ٦٥٤ أربع وخمسين أيضا فى شهر جمادى الآخرة وقع بالمدينة الشريفة صوت يشبه صوت الرعد وأقام يومين وأعقبه زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان واضطرب المنبر الشريف واستمرت ساعة بعد ساعة من ليلة الأربعاء إلى يوم الجمعة ثم ظهرت نار عظيمة من الحرة وسالت أودية مسيل الماء وسالت الجبال نارا وسارت نحو طريق الحاج العراقى فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلا ولها صوت عظيم من آخر الليل إلى ضحوة واستمرت النار فوق الشهر وضج الناس بالتوبة والاستغفار والاستشفاع بالنبى ﷺ والتوسل به أن يكشف الله عنهم .

قال الذهبى : أمر هذه النار متواتر وهى مما أخبر النبى ﷺ عنه فقد أخرج البخارى فى صحيحه وغيره من أصحاب السنن : أن النبى ﷺ قال : "لا تقوم الساعة حتى تخرج النار من أرض الحجاز تضئ لها أعناق الإبل ببصرى" وقد حكى غير واحد ممن كان ببصرى فى الليل أنه رأى أعناق الإبل فى ضوئها وقد أطال شراح البخارى الكلام فى شرح هذا الحديث وبيان كونه معجزة للنبى ﷺ ثم بعد انقضاء دخول التتار بغداد الخلافة ثلاث سنين ونصف إلى أن ذهب بعض من سلم من القتل من بنى العباس إلى مصر وأقيمت الخلافة بمصر فمدة الخلفاء العباسيين من بيعة أبى العباس السفاح إلى قتل المستعصم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة ٥٢٤ .

وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة وتقدم أن على بن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - كان يقول : إن الخلافة تكون فى ولده لا تزال فيهم حتى تأتيهم العلج من خرسان فينتزعها منهم فوقع مصداق ذلك وهو ورود هلاكو

وقومه وإزالتهم ملك بنى العباس وأما الخلفاء الذين أقيموا منهم بمصر بعد ذلك فسيأتى ذكرهم - إن شاء الله تعالى - فى الباب الذى عقب الذى عقب هذا والله سبحانه وتعالى أعلم.

فائدة :

فى تاريخ العلامة ابن كثير عن الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال أحد الزهاد قال : كنت بمصر فبلغنى ما وقع ببغداد من القتل الذريع فأنكرته بقلبى وقلت : يارب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له ؟ ، فرأيت فى المنام رجلا وفى يده كتاب فأخذه فإذا فيه .

دع الاعتراض فما الأمر لك ... ولا الحكم فى حركات الفلك

ولا تسأل الله عن فعله ... فمن خاض لجة بحر هلك

قال الجلال السيوطى فى (حسن المحاضرة) : قلت : أجرى الله عادته إن العامة إذا زاد فسادها وانتهكوا حرمات الله ولم تقم عليهم الحدود أرسل الله عليهم آية فى أثرها فإن لم ينجع فيهم ذلك أتاهم الله بعذاب من عنده وسلط عليهم ما لا يستطيعون له دفاعا اللهم سلم سلم والله سبحانه وتعالى أعلم .

الخلفاء العباسيين الذين كانوا
بمصر بعد انقراض الخلافة ببغداد

قال جلال الدين السيوطى فى حسن المحاضرة : "ولما أخذت التتر بغداد وقتل الخليفة وجرى ما جرى أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ٦٥٦ ست وخمسين وستمائة وهو يوم قتل الخليفة المستعصم – رحمه الله تعالى – إلى أثناء سنة ٦٥٩ ، تسع وخمسين وستمائة ،

فلما كان فى رجب من هذه السنة قدم أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله وهو عم الخليفة المستعصم وأخو المنتصر وكان معتقلا ببغداد ثم أطلق ، فكان مع جماعة من الأعراب بالعراق ثم قصد الملك الظاهر بيبرس حين بلغه ملكه فقدم عليه الديار المصرية صحبة جماعة من الأعراب بالعراق منهم الأمير ناصر الدين مهنا وكان دخوله القاهرة فى ثانى رجب سنة ٦٥٩ تسع وخمسين وستمائة فخرج السلطان للقائه ومعه القاضى تاج الدين والعلماء والأعيان فتلقوه وكان يوما مشهوداً ثم بعد إثبات نسبه بايعه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، ثم السلطان الملك الظاهر بيبرس ، ثم القاضى تاج الدين، ثم الامراء والدولة ولقبوه المستنصر بالله" .

وأطال السيوطى فى بيان الكيفية التى وقعت ثم طلب الخليفة المذكور من السلطان أن يجهزه إلى بغداد فرتب له جندا وأقام له كل ما يحتاج وغرم عليه ألف ألف دينار وكسراً ، وسار السلطان صحبته إلى دمشق ثم رجع إلى مصر، وسار الخليفة ومعه ملوك الشرق ففتح الحديثة ثم هبت فجاءه عسكر من التتار

فتصافوا فقتل من المسلمين جماعة وعدم الخليفة فلا يدرى قتل أم هرب وذلك فى ثالث المحرم سنة ٦٦٠ ستين وستمائة ، فكانت خلافته دون ستة أشهر .

الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى

وكان ممن شهد الوقعة معه وهرب فيمن هرب أبو العباس أحمد بن الأمير أبى على الحسن القبى ابن الأمير على ابن الأمير أبى بكر أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة وجاء إلى عيسى بن مهنا فكاتب فيه الملك الظاهر بيبرس فطلبه فقدم القاهرة ومعه ولده وجماعة فدخلها فى سابع عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فتلقاه السلطان وأظهر السرور به وأنزله فى قلعة الجبل وأغدق عليه واستمر بقية العام بلا مبايعة والسكة تضرب باسم المستنصر الذى عدم فى المعركة ،

فلما كان يوم الخميس ثامن المحرم سنة ٦٧١ إحدى وستين وستمائة كانت مبايعته بعد إثبات نسبه ولقب الحاكم بأمر الله وكان يوما مشهودا فهو أبو العباس الحاكم بأمر الله أحمد ابن الأمير أبى الحسن القبى الأمير على ابن الأمير أبى بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله بن المستظهر بن المقتدى بأمر الله بن محمد القائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف .

كانت مبايعته فى سلطنة الملك الظاهر بيبرس وكانت ولاية بيبرس السلطنة سنة ٦٥٨ ومبايعة هذا الخليفة سنة ٦٦١ ، وتوفى السلطان بيبرس سنة ٦٧٦ وأما الخليفة فإنه استمر إلى سنة ٧٠١ سبعمائة وواحد ، فتوفى الخليفة فى مدة

سلطنة الملك الناصر بن سيف الدين قلاوون ، فكانت مدة خلافة هذا الخليفة نيفا وأربعين سنة .

ولما بايعه الملك الظاهر بيبرس خطب بنفسه يوم الجمعة خطبة بليغة وكتب تقليدا للملك الظاهر بيبرس بتوليته السلطنة ومباشرة أمر الجنود وغيرها ، وكتبوا إلى الآفاق ببيعة الخليفة فخطبوا له وضرب اسمه على السكة وأسكنه الملك الظاهر بيبرس بمسكن مستقل وأغدق عليه النعمة ، ثم خاف عاقبة أمره فأسكنه عنده فى القلعة وعنده حريمه وخدمه وغلمانه موسعا عليه فى النفقات والكساوى يتردد عليه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام وملاحظة جانب الإجلال والمهابة ، ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر ، ثم لاحظه الملك الأشرف خليل بن قلاوون مدة سلطنته أتم من تلك الملاحظة ورعى للخلافة حقها من جميل المحافظة ، ولما ملك السلطان المنصور لاجين زاد فى إكرامه وصرفه فى الركوب والنزول فبرز إلى قصر الكبش وسكن به وحج فى سنة ٦٩٧ سبع وتسعين وستمائه فأعطاه الملك المنصور لاجين سبعمائة ألف درهم .

ورجع من الحج فأقام بمنزلة إلى أن مات سنة ٧٠١ إحدى وسبعمائه ودفن بجوار السيدة نفيسة وبنيت عليه قبة ، وهو أول خليفة مات بمصر من بنى العباس.

الخلية المستكفى بالله

ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكان عمره سبع عشرة سنة ، وتوقف السلطان فى البيعة له لصغر سنه ، وكان له ابن أخ أسن منه ينازعه الخلافة

فسأل السلطان الناصر قلاوون قاضى القضاة الشيخ ابن دقيق العيد هل يصلح للخلافة ؟ قال : نعم فبايعه له وبايعه الناس وكان فاضلا شجاعا يجالس العلماء وطالت مدته فكانت أربعين سنة ٤٠ ، لكن فى آخر المدة سنة ٧٣٦ ست وثلاثين وسبعمائة وقع بينه وبين السلطان وحشة أخرجه إلى قوص ورتب له أكثر مما كان وقيل : بل رتب له بقدر الضرورة وبقى الدعاء له ويضرب اسمه على السكة ولم يزل بقوص إلى أن مات - رحمه الله - سنة ٧٤٠ وبويع بعده ابن أخيه إبراهيم الواثق بالله .

الخليفة الواثق بالله

كان هذا ولى عهد أبيه فمات فى حياة أبيه ولم يل الخلافة ، لما مات عمه أبو الربيع سليمان كان ولى عهده ابنه أحمد فلم يفعل ذلك السلطان الناصر قلاوون وبايع لإبراهيم هذا ثم بعد سنة مات الناصر قلاوون وتسلطن ابنه المنصور وخلع إبراهيم الواثق ابن سليمان لأنه ولى عهد أبيه ولقبه الحاكم بأمر الله بجمع من العلماء .

الخليفة المتوكل على الله

كان ولى عهد أبيه فلم ينفذه السلطان قلاوون وبايع لإبراهيم الواثق ، فلما مات الناصر قلاوون بايع ابنه المنصور لأحمد هذا ، وخلع إبراهيم الواثق ، وبقى أحمد إلى أن توفى سنة ٧٥٣ فى سلطنة ابن الناصر قلاوون .

الخليفة المعتضد بالله

بويع بعد موت أخيه الحاكم بأمر الله أحمد بعهد منه وبقى إلى أن توفى فى سلطنة المنصور بن المظفر بن الناصر قلاوون .

بويع المتوكل بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه واستمر إلى سنة ٧٧٩ فخلعه السلطان المنصور بن الملك الأشرف شعبان ابن الناصر قلاوون .

الخليفة الواثق بالله

وبايع للمعتصم بن الواثق ثم بعد خمسة عشر يوما أعيد المتوكل واستمر إلى سنة ٧٨٥ فخلعه السلطان الظاهر برقوق لأنه بلغه عنه أنه يريد قتله وبعد خلعه بايع عمر بن الواثق ولقبه الواثق بالله واستمر عمر الواثق إلى أن مات سنة ٧٨٨ .

الخليفة المعتصم بالله

بويع أخوه زكريا بن الواثق ولقب بالمعتصم واستمر إلى سنة ٧٩١ فندم السلطان برقوق على ما فعل بالمتوكل فخلع زكريا وأعاد المتوكل إلى الخلافة واستمر أبو زيد هدايا وتحف ، وطلب منه أن يكتب له تقليد فكتب له ذلك سنة ٧٩٧ .

وهكذا ذكر السيوطى فى (حسن المحاضرة) : ومما قيل فى أسباب ما وقع بينه وبين السلطان الظاهر برقوق : إن المتوكل على الله حسن له جماعة من أهل الدولة وغيرهم أن يطلب والسلطنة لنفسه واستقل بالأمر فيكون خليفة وسلطانا فكاتب الأمراء والعربان مصر وشاما وعراقا وبث الدعاة فى الآفاق فبلغ ذلك برقوق فخلعه وسجنه فخرج بلغيا النصارى على البرقوق بسبب ذلك فأفرج برقوق عن المتوكل وأعاده إلى الخلافة وفرح الناس به فرحا كثيرا ثم إن الناصرى انتصر على برقوق وزالت دولة برقوق .

فقال الناصرى للخليفة بحضرة الأمراء : يا مولانا أمير المؤمنين ما ضربت بسيفى هذا إلا فى نصرتك وبالغ فى تعظيمه وتبجيله فتبرم المتوكل من الدخول فى الملك والسلطنة فأشار بإعادة حاجى بن شعبان وهى قصة عجيبة وقع بسببها فتن كثيرة حاصلها أن السلطان حاجى بن شعبان بن حسين بن الناصر قلاوون ولى السلطنة وهو صغير وأقيم برقوق وكيلا عنه من مماليك جده الناصر فخلعه برقوق وتسلطن سنة ٧٨٤ أربع وثمانين وأربعمائة إلى سنة تسعين وسبعمائة فاتفق الأمراء على خلع السلطان برقوق بعد وقوع فتن كثيرة فامتنع المتوكل من القيام بالسلطنة وتبرم منها فأشار بإعادة حاجى بن شعبان فأعيد وسجن السلطان برقوق فى قلعة الكرك ثم تخلص من السجن سنة ٧٩٢ اثنين وتسعين وسبعمائة وعاد إلى السلطنة بعد قتال وخلع حاجى بن شعبان واستمر برقوق إلى أن توفى سنة ٨٠١ إحدى وثمانمائة وكان خلعه للمتوكل فى السلطنة الأولى وأما بعد رجوعه للسلطنة فى المرة الثانية فإنه أبقى المتوكل لأنه كان قد ندم فيما صنعه أولا .

ولى الخلافة مرتين مرة خمسة عشر يوما ومرة ثلاث سنين ثم كانت للمتوكل بويع بعد وفاة أبيه المتوكل على الله محمد بعهد منه وكان ذلك فى مدة سلطنة السلطان فرج بن برقوق ثم أنه وقع اختلاف بين فرج والأمراء سنة ٨١٥ واستخرجوا فتوى بإثبات زندقة فرج وأنه يستحق الخلع والقتل والزموا الخليفة المستعين بالله خلعه فخلعه فاقاموا الخليفة فى السلطنة وجمعوا بين الخلافة والسلطنة واقتتلوا مع فرج ابن برقوق إلى أن قتل وفوض المستعين تدبير الملك لشيخ المحمودى ثم إن شيخا المحمودى حجر على الخليفة أن لا يعلم على المناشير حتى يطلع عليها شيخ فتوحش الخليفة من ذلك ثم سأله شيخ أن يفوض

السلطنة إليه على العادة واتسع الأمر بينهما ثم إن شيخا جعل الخليفة فى دار ووكل به من يمنعه من الاجتماع بالناس وتغلب شيخ على السلطنة كما كان من قبله ثم خلع الخليفة وبايع أخاه أبا الفتح داود ولقبه المعتضد بالله وسير المستعين إلى الاسكندرية فأقام بها إلى أن مات شهيداً بالطاعون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وللحافظ بن حجر قصيدة غراء فى المستعين حين جمع له بين الخلافة والسلطنة مطلعها :

الملك فينا ثابت الأساس   بالمستعين العادل العباس

وكانت المدة التى جمع له فيها بين السلطنة والخلافة نحو سبعة أشهر.

الخليفة المعتضد بالله

بويع سنة ٨١ بعد خلع أخيه المستعين واستمر إلى أن توفى سنة ٨٤٥ فبويع لأخيه سليمان فى مدة السلطان حقمق .

الخليفة المستكفى بالله

بويع لما مات أخوه المعتضد واستمر إلى أن توفى سنة ٨٤٥ فبويع أخوه القائم بأمر الله .

الخليفة القائم بأمر الله

بويع بعد موت أخيه المستكفى ثم خلعه سنة ٨٥٩ الملك الأشرف اينال العلائى وبايع أخاه المستنجد بالله يوسف .

الخليفة المستنجد

بويع بعد أخيه إلى البقاء واستمر المستنجد إلى أن توفى سنة ٨٨٤ وبويع ابن أخيه عبد العزيز بن يعقوب .

الخليفة المتوكل على الله

يعقوب هذا لم يل الخلافة بل كانت فى ولده عبد العزيز وأولاده من بعده.

الخليفة المستمسك

بويع بعد وفاة عمه المستنجد وكان محجبيا للخاصة ولاعامة بخصاله الجميلة ومناقبه الحميدة .

الخليفة محمد المتوكل على الله

بويع بعد وفاة أبيه وكان حميد السيرة .

قيل : إنه بويع فى حياة أبيه لكبر سن أبيه وقيل : إنه لم يبايع ولما دخل السلطان سليم مصر سنة ٩٢٢ قبض عليه وأخذه معه إلى القسطنطينية ولم يقبض على أبيه لكبر سنه ، ولما قربت وفاة السلطان سليم أطلقه فعاد إلى مصر وعين له كل يوم ستين درهما وسكن مصر إلى أن توفى وانقرضت الخلافة العباسية بمصر وغيرها فسبحان الباقى على الدوام .

دول معاصرة للدولة العباسية

الدولة الأموية القائمة بالأندلس

أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، بويع بالخلافة لما دخل الأندلس هارباً، وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ومائة، وكان من أهل العلم والعدل، مات سنة سبعين ومائة فى ربيع الآخر.

وقام بعده ابنه هشام أبو الوليد، ومات فى شهر صفر ثمانين ومائة.

وقام بعده ابن الحكم أبو المظفر، الملقب بالمرتضى، ومات فى ذى الحجة سنة ست ومائتين.

وقام بعده ابنه عبد الرحمن، وهو أول من فخم الملك بالأندلس من الأموية وكساه أبهة الخلافة والجلالة، وفى أيامه أحدث بالأندلس لبس المطرز، وضرب الدراهم، ولم يكن بها دار ضرب منذ فتحها العرب، وإنما كانوا يعاملون بما يحمل إليهم من دراهم أهل المشرق، وكان شبيها بالوليد بن عبد الملك فى جبروتيته، وبالمأمون العباسى فى طب الكتب الفلسفية، وهو أول من أدخل الفلسفة الأندلس، مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

وقام بعده ابنه محمد، مات فى صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

وقام ابنه المنذر، ومات فى صفر سنة خمس وسبعين.

وقام أخوه عبد الله - وهو أصلح خلفاء الأندلس علماً وديناً- مات فى ربيع الأول سة ثلاثمائة.

وقام حفيده عبد الرحمن بن محمد، الملقب بالناصر، وهو أول من تسمى بالأندلس بالخلافة، وبأمير المؤمنين، وذلك لما وهت الدولة العباسية فى أيام المقتدر، وكان الذين قبله إنما يتسمون بالأمير فقط، مات فى رمضان سنة خمسين وثلثمائة.

وقام ابن الحكم المستنصر، ومات فى صفر سنة ست وستين.

وقام ابنه هشام المؤيد، ثم خلع وحبس سنة تسع وتسعين.

وقام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر عبد الرحمن، ولقب المهدى، ستة عشر شهراء، ثم خرج عليه ابن أخيه هشام بن سليمان بن الناصر عبد الرحمن وبويع وتلقب بالرشيد؛ فحاربه عمه وقتله، واتفق الناس على خلع عمه فاختفى ثم قتل، وبايعوا ابن أخى هشام المقتول سليمان بن الحكم المتنصر، ولقب بالمستعين، ثم قاتلوه وأسر سنة ست وأربعمائة.

وقام عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر، ولقب « المرتضى» وقتل فى آخر العام، ثم وهت الدولة الأموية.

وقامت الدولة العلوية الحسنية؛ فولى الناصر على بن حمود فى المحرم سنة سبع وأربعمائة، ثم قتل فى ذى القعدة سنة ثمان وأربعمائة.

وقام أخوه المأمون القاسم، وخلع سنة إحدى عشرة.

وقام ابن أخيه يحيى بن الناصر على بن حمود، ولقب المستعلى، وقتل بعد سنة وسبعة أشهر.

ثم عادت الدولة الأموية، فولى المستظر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار، وسبعة ثم قتل بعد خمسين يوماً.

وقام محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر عبد الرحمن، ولقب المستكفى، وخلع بعد سنة وأربعة أشهر.

وقام هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر عبد الرحمن، لقب «المعتمد»، فأقام مدة، ثم خلع وسجن إلى أن مات فى صفر سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وماتت بموته الدولة الأموية بالأندلس.

الدولة الخبيثة العبيدية

أول من قام منهم بالمغرب المهدى عبيد الله سنة ست وتسعين ومائتين، ومات فى سنة اثنتين وثلثمائة.

وقام ابنه القائم بأمر الله محمد، ومات سنة ثلاث وثلاثين.

وقام ابنه المنصور إسماعيل، ومات سنة إحدى وأربعين.

وقام ابنه المعز لدين الله معد، ودخل القاهرة سنة اثنتين وستين، ومات سنة خمس وستين.

وقام ابنه العزيز نزار، ومات سنة ست وثمانين.

وقام ابنه الحاكم بأمر الله منصور، وقتل فى سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

وقام ابنه الظاهر لإعزاز دين الله على، ومات سنة ثمان وعشرين.

وقام ابنه المستنصر معد، ومات سنة سبع وثمانين، فأقام فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر.

قال الذهبى : ولا أعلم أحداً فى الإسلام - لا خليفة ولا سلطاناً- أقام هذه المدة.

وقام بعده ابنه المستعلى بالله أحمد، ومات سنة خمس وتسعين.

وأقام بعده ابنه الآمر بأحكام الله منصور، طفل له خمس سنين، وُقتل فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة من غير عقب.

وقام بعده ابن عمه الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، ومات سنة أربع وأربعين.

وقام ابنه الظافر بالله إسماعيل ، وقتل سنة تسع وأربعين.

وقام ابنه الفائز بنصر الله عيسى، ومات سنة خمس وخمسين.

وقام العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله، وخلع سنة سبع وستين، ومات بها، وأقيمت الدعوة العباسية بمصر، وانقرضت الدولة العبيدية.

قال الذهبى : فكانوا أربعة عشر متخلفاً، لا مستخلفاً.

دولة بنى طباطبا العلوية الحسنية

قام منهم بالخلافة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم طباطبا فى جمادى الأولى سنة تسع وتسعين ومائة، وقام باليمن فى هذا العصر الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم بن طباطبا، ودعى له بإمرة المؤمنين، ومات فى ذى الحجة سنة ثمان وتسعين ومائتين.

وقام ابنه المرتضى محمد، ومات سنة عشر وثلثمائة.

وقام أخوه الناصر أحمد، ومات فى صفر سنة ثلاث وعشرين.

وقام ابنه المنتخب الحسين، ومات سنة تسع وعشرين.

وقام أخوه المختار القاسم، وقتل فى شهر شوال سنة أربع وأربعين.

وقام أخوه الهادى محمد، ثم الرشيد العباس، ثم انقرضت دولتهم.

الدولة الطبرستانية

تداولها ستة رجال : ثلاثة من بنى الحسن، ثم ثلاثة من بنى الحسين: هشام الداعى إلى الحق بن الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن ابن زيد الجواد بن الحسن بن على بن أبى طالب ·- رضى الله عنه !- سنة خمسين ومائتين بالرى والديلم ثم قام أخوه القائم بالحق محمد، وقتل سنة ثمان وثمانين، فقام حفيده المهدى الحسن بن زيد بن القائم بالحق، وقام بعده الناصر الأطروش وهو الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر الأشرف بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهم ! - ولم يزل قائماً بالأمر إلى أن قبض سنة ٣٠٤، ثم قام بعده بالأمر ابنه الإمام محمد الهادى، ثم اعتزل الأمر؛ فقام به أخوه الناصر أحمد، ثم قام من بعده الثائر لدين الله جعفر بن محمد بن الحسن بن عمر الأشرف، وهو الذى ملك طبرستان بأسرها، ومات بها سنة ٣٤٥ وانقرضت دولته.

الدولة التى حكمت مصر

فى عهد الدولة العباسية

ولعلك تذكر أن الجولة الثامنة كانت مع حكايات ولاة مصر بعد الفتح الإسلامى .. أئك الولاة الذين حكموا وفقاً لأوامر الله وأحكام الشريعة الإسلامية .. فاتسم عصرهم بالعدل والتسامح والمساواة .. وشاع الحب فى القلوب وانتشر على أرض مصر، ولا سيما فى أيام ولاة عصر الخلفاء الراشدين .. وكان لذلك أبلغ الأثر فى تزيين الإسلام فى قلوب غير المسلمين .. فأقبلوا على اعتناق الإسلام أفواجاً وجماعات .. وما بدأ القرن الثالث الهجرى إلا وكان غالبية المصريين يعتنقون الدين الإسلامى.

وإذا ألم بالمصريين جور من أحد الولاة فى هذا العصر .. فلم يك إلا صورة لمسلك فردى وهوى شخصى من هذا الوالى .

وتعال الآن إلى جولة سريعة فى تاريخ مصر .. بعد ما تحكمت الأطماع فى النفوس ، والأهواء فى القلوب.

الدولة الطولونية

(٢٥٥ - ٢٩٢هـ) - (٨٦٨ - ٩٠٥م)

.. طولون .. اسم تركى بمعنى البدر الكامل.

وكان طولون مملوكاً لـ نوح بن أسد والى بخارى وخراسان الذى أهداه إلى الخيفة المأمون.

بيد أن المملوك طولون كان شديد الذكاء كثير الوعى .. فأعجب الخليفة المأمون بفكره رأيه وموهبته العسكرية .. فجعل يرقيه حى صار طولو رئيساً لحرسه الخاص.

وعندما مات طولون وجد أبناء أحمد وموسى الكثير من عناية الخليفة والجند الأتراك .. فتلقى أحمد بن طولون العلوم العسكرية على أيدى الجند الأتراك .. وجعله الخليفة المتوكل مكان أبيه.

ثم زوج أحد القادة الأتراك بمصر ويدعى باكباك من أم أحمد بن طلون فجعل أحمد نائباً له على الفسطاط .. وكان ابن طولون طموحاً يحب المجد والشهرة ويتمنى السلطة، واقترب من أمله كثيراً عندما قُتل باكباك وتولى مكانه القائد يارخوج حمو ابن طولون .. الذى جعله نائباً له على جميع مصر.

وكان أمر الأتراك قد استفحل كثيراً فى الدولة العباسية إلى حد جعلهم يعزلون والياً ويولون آخر .. بل يخلعون خليفة ويبايعون غيره .. وربما قتلوا الخليفة المخلوع.

وفى عام مائتين وخمس وخمسين عزلوا والى مصر أرخوز التركى وجعلوا مكانه أحمد بن طولون.

كيف قامت الدولة الطولونية؟

كان ابن طولون شغوفاً يجعل كلمته العليا فى مصر .. ودفعه ذلك إلى نسج الحيل للتخلص من أصحاب النفوذ بمصر .. مثل أحمد بن المدبر المسئول عن خراج مصر .. وشقير الخادم صاحب البريد والذى كان ينقل أخبار ابن طولون إلى الخليفة العباسى .. وفى نفس الوقت كان يرسل الهدايا النفيسة إلى الخليفة العباسى ورجاله.

وعندما استقر الوضع الداخلى له دفعه طموحه ، وزينت له أطماعه الاستقلال بمصر عن الدولة العباسية .. فجعل يثبت أركانها ويقويها .. فكون جيشاً كبيراً وأسطولاً قوياً .. تمهيداً لإعلان استقلال مصر عن الخلافة العباسية.

وحدث أن أرسل الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد يطلب إمداداً من أحمد بن طولون لبعض حروب الدولة العباسية بالعراق.

بيد أن الإمداد وصل فى وقت متأخر .. فأرسل الموفق إلى ابن طولون يوبخه لأن الإمداد كان قليلا وقد تأخر كثيراً.

فرد عليه ابن طولون بكتاب يوضح فيه أن مصر دولة مستقلة ولها إدارتها الخاصة وليس مسئولا عن شئونها الخارجية والداخلية سواه.

ثم عقد مؤتمراً موسعاً بدمشق أعلن فيه خيانة الموفق وخلعه من ولاية العهد.

وكان ذلك إيذاناً ببدء صراع طويل تواصل نحو ثلاثة عشر عاماً بين الموفق وابن طولون . وانتهى هذا الصراع بالصلح .. وقد أقبل الموفق على الصلح لرغبته للتفرغ لحرب الزنج ذلك الخطر الكبير الذى كان يتهدد الدولة العباسية بأكملها .. لعل انشغال العباسيين بحرب الزنج كان من الأسباب القوية التى ساعدت ابن طولون فى إقامة دولة مستقلة وقد أقبل ابن طولون على الصلح بعدما علم بفشل خطته فى استدعاء الخليفة المعتمد إلى مصر وإعلان نقل الخلافة إليها .. لأن الموفق علم بالخطة واحتجز أخاه الخليفة.

وجدير بالذكر أن الخليفة كان مقبلاً على اللهو تاركاً شئون الخلافة لأخيه الموفق .. وثمة خلاف حدث بينهما فأسرع ابن طولون باستدعاء الخليفة إلى مصر ونقل الخلافة إليها.

وفصل ابن طولون مصر والشام عن جسد الدولة العباسية وأقام الدولة الطولونية.

حكام الدولة الطولونية

أحمد بن طولون (٢٥٥ - ٢٧٠هـ)

هو أحمد بن طولون التركى :

ولد فى سنة (٢٢٠ هجرية ـ ٨٣٥ ميلادية) ببلدة (سر من رأى) بالعراق ونشأ فى مدينة سامراء .. وتلقى العلوم العسكرية مع الجند الأتراك .. وحرص فى نشأته على الدرس وطلب العلم وحفظ القرآن.. وترقى فى المناصب حتى تولى الشام ومصر واستقل عن الدولة العباسية وأسس الدولة الطولونية.. والتى تعتبر أول دولة مستقلة تقوم بمصر منذ زوال دولة البطالمة على أيدى الرومان سنة ٣٠ ق.م وسكن أحمد بن طولون فى بداية عهده بمدينة العسكر حتى أنشأ مدينة القطائع وكان له دور كبير فى استقرار الوضع الداخلى بمصر.

ففى بداية حكمه قضى على ثورة بُغا الأصغر سنة مائتين وخمس خمسين.

وفى سنة مائتين وست وخمسين قضى على حركة ابن الصوفى العلوى وفى سنة مائتين وخمس وستين خرج إلى أنطاكية لحرب سيما الطويل لعصيانه وانتصر عليه وقتله وأخذ أنطاكية.

وعند عودته إلى مصر أرسل جيشا إلى برقة خلف ابنه العباس بن أحمد بن طولون الذى استغل سفر أبيه وقام بسرقة بيت مال مصر والكثير من المتاع والسلاح ورحل فى رجاله إلى برقة للاستقلال بها.

وانتصر هذا الجيش على العباس وأحضروه إلى أبيه فحبسه.

وحكم أحمد بن طولون مصر نحو ستة عشر عاماً .. واستطاع أن يحقق الرخاء لمصر لسببين .. أولا : إهتمامه بالناحية الاقتصادية ليحافظ على استقلال دولته .. وثانيا : لأنه حقق الاستقرار لمصر .. ففى الفترة التى سبقته كثر تعيين وعزل الولاة مما جعل كلا منهم يعمل على إثراء نفسه فى أقصر وقت ممكن ولم يكن أمامهم سبيل إلى ذلك سوى خزائن مصر.

وكان ابن طولون جواداً كريماً كثير الصدقات حتى أنه جعل المطابخ للفقراء والمساكين وكان يذبح لهم البقر والغنم كل يوم.

وبالرغم من جوده وكرمه ونشأته الدينية إلا أنه كان حاد الخُلق .. كثير الظلم وسفك الدماء .. وعندما مات كان فى حبسه ثمانية عشر ألفاً .

أعمال أحمد بن طولون :

قام بالعديد من الإصلاحات فى النواحى الإدارية والمالية.

اهتم بالنواحى الاقتصادية وتحسين الزراعة ، والصناعة ، والتجارة.

كون جيشاً كبيرًا وبنى أسطولاً قوياً.

أمر ببناء مدينة القطائع[1] شمال الفسطاط والعسكر وسميت بالقطائع

(١) القطائع كانت بين الخليفة والسيدة زينب .

لأنها كانت عبارة عن عدة قطع . يسكن فى كل قطيعة طائفة معينة سميت باسمها، مثل : قطيعة الروم ، وقطيعة السودان، وقطيعة الفراشين، وقطيعة الخبازين.

وكان أهم ما يميز مدينة القطائع .. قصر أحمد بن طولون، وجامع أحمد ابن طولون.

* بناء البيمارستان .. أى المستشفى .. وبيمارستان كلمة فارسية بمعنى دار المريض.. حيث (بيمار) تعنى (مريض) و(ستان) تعنى (دار)

* أمر ببناء قناطر ابن طولون.. فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع وكان الماء يسير فى عيون هذه العناصر إلى مدينة القطائع.

* أمر ببناء حصن جزيرة الروضة والذى ظل قائماً حتى خربه النيل.

* وفى ذى القعدة سنة مائتين وسبعين مات ابن طولون وعمره خمسون عاماً وله ثلاثة وثلاثون ولداً.. وقد استخلف من بعده ابنه خمارويه ولم يستخلف العباس أكبر أبنائه لخروجه عليه.

خمارويه بن أحمد بن طولون

(٢٧١- ٢٨٢هـ)

ولد خمارويه فى سنة مائتين وخمسين ببلدة (سر من رأى) بالعراق.. وكانت أمه جارية تدعى (مياس) أهداها الخليفة المستعين بالله لأبيه.

* حكم مصر وعمره عشرون عاماً باستخلاف أبيه له .. وبدأ حكمه بقتل

أخيه العباس الذى امتنع عن بيعته فقد كان العباس يرى أنه أحق بالحكم من (خمارويه) لكونه أكبر أبناء أبيه (أحمد بن طولون).

* وعندما مات ابن طولون وحكم خمارويه سعى الموفق طلحة إلى القضاء على الدولة الطولونية وإعادة مصر والشام إلى جسد الدولة العباسية فأرسل جيشا إلى دمشق بقيادة ابنه أبى العباس أحمد فاستولى على بعض المدن ودخل دمشق.

فسار إليهم خمارويه فى جيش كبير .. فهزمه الجيش العباسى وعاد خمارويه إلى مصر مهزوماً .. ولكن أحد قادة خمارويه ويدعى سعد الأيسر قابل ابن الموفق وهزمه .. ثم مضى سعد الأيسر إلى الشام وطمع فى الاستقلال بها فاستولى على دمشق.. وأعلن العصيان على خمارويه.

وعندما علم خمارويه أسرع إليه بجيش كبير واستطاع هزيمته وقتله .. واسترداد دمشق..

ثم صار خمارويه إلى إسحاق بن كنداج والى الموصل والذى كان عوناً للموفق طلحة وهزمه هزيمة قاسية.

وبعد هذه المعركة عظم أمر خمارويه وهابه الناس رغم صغر سنه.

* ثم سلك خمارويه طريق السلام .. وأرسل إلى الموفق يطلب الصلح وتوطيد العلاقات .. واستجاب العباسيون للصلح وأرسلوا إليه كتاباً يتضمن توليته وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة .. وهكذا سكنت الحروب الدائرة بينهم، والتفت خمارويه إلى إصلاح شئون ممالكه.. واتسمت سياسته بالشدة فهابه الناس.

وكان شديد الإسراف والتبذير .. ورفع رواتب الجند ليضمن ولاء القادة له.

* وفى سنة مائتين وسبع وسبعين مات الموفق ثم مات أخوه الخليفة المعتمد بعد عام .. وبويع بالخلافة المعتضد ابن الموفق .. فأرسل إليه خمارويه الهدايا والتحف .. وكتب إليه يسأله المصاهرة بتزويج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى إلى المكتفى ابن الخليفة .. ولكن الخليفة اختارها لنفسه.

وفرغ خمارويه من جهاز ابنته الذى أرهق ميزانية مصر تماماً .. حيث حمل معها ما لم ير قبله ولم يسمع به .. ثم أمر أن يبنى لها قصر فى كل منزل تنزل به .. من مصر إلى بغداد .. وأمر البعثة التى ترافقها أن تسير بها رويداً رويداً .. حتى قدمت إلى بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢ هجرية.

وفى نفس السنة خرج خمارويه بعساكره إلى دمشق وقتل هناك .. حيث ذبحه بعض خدمه على فراشه لأنه كان كثير الفساد .. وكانت مدة حكمه على مصر والشام اثنتى عشرة سنة . ولم يترك آثاراً تتضمن أعمالاً هامة .. والعمل الذى أقدم عليه بمصر لا يدلنا إلا على تبذيره وإسرافه الشديد .. وهو الإقبال على تزيين قصور القطائع التى تركها أبوه.

غير أنه فى عام مائتين وإحدى وثمانين أرسل جيشاً بقيادة طغج بن جف إلى غزو الروم استطاع فتح ملورية.

جيش بن خمارويه (٢٨٣ هـ)

قتل خمارويه ولم يستخلف أحداً : فتولى ابنه جيش .. وكان لا يزال صبياً معروفاً بسوء الخُلق فأبطأ قادة أبيه عن مبايعته .. فتطلف معهم حتى تمت البيعة، ثم أقبل على اللهو والشراب مع رفقة سوء لا يليق بمثله صحبتهم لفساد

دينهم، وسوء أخلاقهم ولكنهم كانوا صحبة قريبة من قلبه .. لهم عليه تأثير كبير .. فأغروه بالتخلص من عمه "نصر بن أحمد بن طولون" خوفاً من وثوبه على الحكم .. فقبض عليه وحبسه .. فأوغر ذلك قلوب الناس عليه فلم يأبه لذلك.

ولم يكن يدفع للقادة مثلما كان يفعل أبوه الذى ترك خزائن مصر خاوية.

وكانت مجالسه تنقل إلى القادة.

فلم يهتم لذلك بل كان يتوعدهم ويقول لبعض رفقة السوء :

- غداً أقلدك موضع القائد فلان ، وأهب لك داره وأمنحك نعمته .. فأنت أحق من هؤلاء. فاعتزل كبار القواد .. وخرج عن طاعته طغج بن جف أمير دمشق وأحمد بن طغان أمير الثغور الشامية .. وأعلنا خلعه.

والعجيب أن ذلك لم يحرك ضيقه أو غيرته على ممالكه - ولم يكترث بما حدث .

وتشاور قواد الجيش والمماليك وقرروا خلعه قائلين :

- ما مثل هذا يقلد شيئا من أمور المسلمين.

واجتمع القادة والمماليك وعدول الدولة وقبضوا عليه وخيروه إما أن يعلن توبته ويسير فى الرعية سيرة الحكام الصالحين، أو يعترف بعجزه عن تدبير شئون الدولة فاعترف بعجزه وحلهم من بيعته.

وقيل : إنه لما طلب الناس تولى عمه (نصر بن أحمد بن طولون) قام بقتله وهو فى محبسه. وقبض عليه ووضع فى الحبس وجعلوا مكانه أخاه هارون.

هارون بن خمارويه

(٢٨٤ - ٢٩١هجرية)

هو هارون بن خمارويه بن أحمد بن طلون التركى : تولى حكم مصر بعد أخيه (جيش) فى سنة مائتين وثلاث وثمانين. ولصغر سنه جعلوا أبا جعفر بن أبى وصياً عليه ليدير له شئون الحكم وأمور الدولة .. لذا بايعه الناس بالإجماع، وسكنت الدولة وهدأت ثورة الناس بعد أن قضوا على الكثير من أتباع أخيه (جيش).

وقام البعض بإثارة عمه ربيعة بن أحمد بن طولون عليه وأقنعوه بأحقيته بالحكم وأغروه بالتفافهم حوله، وعندما فعل انفضوا عنه فقتل وحيداً. وفى سنة مائتين وست وثمانين أرسل هارون إلى الخليفة (المعتضد) يسأله تجديد الولايه على مصر والشام مقابل مبلغ كبير من المال فأجابه إلى ذلك.

واستمر حكم هارون نحو ثمانية أعوام قضاها وهو لا يحسن التدبير والأمر كله يرجع لأبى جعفر بن أبى فى تدبير أمور الدولة وخرج بعض القادة إلى الشام فاستردوا دمشق وثغور الشام وأعادوهما إلى الدولة الطولونية.

ولما رأى القادة أن الأمر كله يرجع لأبى جعفر استولى كل منهم على طائفة من الجيش وجعل يطالب بحقوقهم، فكانت حقوق كل طائفة تُحمل إلى قائدهم حتى صارت كل طائفة كمماليك لقائدهم.. وكان القادة يتنافسون فى الإنفاق فى تحسين زى مماليكهم ووجوه البر والصدقات.

ووقع هارون فى خطأ جسيم عندما قرب صغار مماليكه وقلدهم المناصب التى تعادل مناصب كبار القادة، فأوغر ذلك صدور القادة عليه.

وكثرت الاضطرابات بمصر عندما خرج رجل يدعى القرمطى فى الشام وأعن خلع هارون، وحارب أمير الشام من قبل هارون وهزمه فأرسل إليه هارون جيشاً آخر فهزمه هو أيضاً.

* وقعت خلافات بين هارون وبين الخليفة المكتفى فأرسل الخليفة جيشاً بقيادة محمد بن سيمان وانضم القادة المنشقون على هارون بجنودهم إلى جيش محمد بن سليمان فأرسل هارون المراكب فى البحر لحربهم عند دمياط فانهزم جيش هارون.

وتوجه هارون إلى موضع يسمى العباسة، وتفرق عنه الكثير من أصحابه لما ألم بهم من الجهد والتعب.. وبالرغم من ذلك كان هارون مهتماً باللهو والسكر .. فأقدم عماه شيبان و عدى ابنى أحمد بن طولون على قتله فى صفر سنة مائتين واثنين وتسعين هجرية وعمره اثنتان وعشرون سنة وكانت فترة حكمه لمصر نحو تسعة أعوام. ونهض عمه شيبان ودعا لنفسه بالولاية وبايعه الناس عندما ضمن لهم حسن تدبير أمور الدولة (وهو لا يدرى بأن الدولة الطولونية قد انتهى أمرها).

* ودخل محمد بن سليمان مصر .. خرج شيبان للقائه.. وعندما دارت الحرب بينهما أرسل ابن سليمان إلى شيبان يؤمنه على نفسه وماله وولده وجميع أهله على أن يسلم له مصر فنظر شيبان إلى قلة جيشه وضخامة جيش ابن سليمان فأجابه إلى ذلك وكانت مدة إمارته نحو عشرة أيام.

وعندما دخل ابن سليمان مصر لم يتصد له أحد وبعد أن أحرق مدينة القطائع زالت دولة بنى طولون وكأنها لم تكن بالأمس. وهكذا عادت مصر مرة ثانية إلى جسد الدولة العباسية ـ وما أقل هذه العودة فى عمر الزمن.

ملامح مصر فى عصر الدولة الطولونية

تميزت مصر فى أيام الدولة الطولونية بعدة ملامح أهمها:

أولا : العمارة :

كان للطولونيين الكثير من الأعمال المعمارية فى مصر مثل :

* مدينة القطائع : التى أنشأها أحمد بن طولون لتكون عاصمة له .. وكان أهم ما يميز مدينة القطائع قصر أحمد بن طولون الذى بنى على مساحة واسعة وكان له عدة أبواب. وكان أهم ما يميز مدينة القطائع أيضا :

* مسجد أحمد بن طولون : الذى يعتبر أحد مآثر الدولة الطولونية، فلا يزال شاهد صدق على عظمة العمارة الإسلامية فى ذلك الوقت .. ويعد هذا المسجد أقدم بناء إسلامى احتفظ بأصالته حتى اليوم .. لأن أحمد بن طولون عندما شرع فى بنائه قال " أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقى ، وإن غرقت بقى ، فقيل له ، يبنى بالجير والرماد والآجر والجص، ولا يجعل فيه أساطين من الرخام فإنه لا صبر لها على النار" وبدأ العمل فى بناء المسجد سنة ٢٥٩ هـ وانتهى فى سنة ٢٦٥ هـ ويوجد به مائة وستون دعامة مستطيلة القاعدة، وطول كل منها متران ونصف وتعتبر منارة (مئذنة) هذا المسجد من الطراز الفريد فى عمارة مساجد مصر الإسلامية ـ حيث صُنع لها السلم من الخارج.

والمئذنة مكونة من أربع طبقات .. الأولى مربعة.. والثانية مستديرة .. والثالثة عى شكل مثمن.. أما الرابعة فتعلوها طاقية على شكل منجرة .. والشيء

الهام فى هذه المئذنة أن السلم عكس عقارب الساعة .. والمتعارف عليه أن يكون اتجاه السلم لليمين للتبرك به .. ولا يوجد شبيه لهذه المئذنة إلا فى الجامع الكبير فى مسجد أبى ولف بمدينة سامراء بالعراق.

أما منبر المسجد فقد أقامه السلطان (لاجين) وما زال موجوداً فى الجنوب الشرقى من رواق الجامع.

* قناطر أحمد بن طولون : كانت قناطر ابن طولون من أهم المظاهر الحضارية وقد أنشأها ابن طولون فى الجهة الجنوبية الشرقية من القضائع.

* البيمارسان - أنشأه أحمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ وجعل له جناحين أحدهما للنساء والآخر للرجال .. وكان دخوله مجاناً لجميع الناس على اختلاف مذاهبهم وأديانهم، وكان هذا المبنى مجهزاً بجميع سبل الراحة وكان ابن طولون يزوره كل يوم جمعة ويتفقد أحوال المرضى.

ثانيا: النواحى الاقتصادية:

عندما استقل أحمد بن طولون بمصر اهتم بالناحية الاقتصادية ليحافظ على استقلال دولته فاهتم بالزراعة والصناعة والتجارة.

* الزراعة : قام أحمد بن طولون بنهضة زراعية كبرى .. فجعل يستصلح الأراضى الزراعية وساعده فيضان النيل فى ذلك الوقت على استصلاح نحو مليون فدان.

* الصناعة : تبعت النهضة الزراعية نهضة صناعية ومن أهم الصناعات فى ذلك الوقت صناعة النسيج، وصناعة الورق، وصناعة الزيت الذى كان يستخرج من السمسم وصناعة الأسحة وغيرها.

* التجارة : تقدمت مصر تجارياً، وكان التجار يأتون من المغرب بالجلود والسيوف ومن السند والصين بالبخور والكافور وانعكس ذلك على السوق الداخلية.

ثالثا : النقود :

سك أحمد بن طولون الدينار الأحمدى نسبة إلى اسمه.

رابعا : الحركة العلمية:

كانت الحركة الأدبية من أهم المظاهر الحضارية فى العصر الطولونى - وقد تبع هذه الحركة التقدم فى تخصصات علم اللغة والدين ونشطت حركة التأليف فى ميدان التاريخ المحلى، ومن أهم المؤرخين ابن عبد الحكم صاحب كتاب تاريخ فتوح مصر والمغرب.. وفى بداية القرن الرابع الهجرى كان بالقاهرة مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد، منها ستة آلاف فى الطب والفلك.

الجيش :

كانت فكرة أحمد بن طولون فى الاستقلال عن الدولة العباسية دافعاً إلى تكوين الجيش الكبير وبناء الأسطول القوى تقوية دولته المستقلة وتثبيت أركانها.

حضارة الدولة الطولونية :

أسهمت مصر فى عهد الدولة الطولونية بنصيب وافر فى شتى ميادين الحضارة الإسلامية، وقدمت العديد من المنجزات التى حملت فى الوقت نفسه معالم الشخصية المصرية وأصالتها الإسلامية.

وتمثل مظاهر الحضارة لمصر الإسلامية زمن الطولونيين فى فن العمارة حيث أسس أحمد بن طولون عاصمة جديدة لدولته، حيث كان تأسيس العواصم فى مصر الإسلامية يعتبر دلالة على الاستقرار السياسى للعهد الجديد، فسار أحمد بن طولون على نهج عمرو بن العاص الذى أسس الفسطاط، وصالح بن على العباسى الذى أسس مدينة العسكر، وأقام فى سنة ٢٥٦ هـ/٨٧٠م عاصمة للدولة الطولونية فى المنطقة الواقعة شمالى الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم، قرب دار إمارة العسكر.

وأطلق على هذه العاصمة الجديدة اسم "القطائع"، حيث اتخذت كل طائفة من الجند قطيعة لها سميت باسمها، هذا فضلاً عن أن كل جماعة من أرباب الحرف والصناعات قد نزلت فى مجموعة من تلك القطائع التى خصصت لها، وموضع "القطائع" مجموعة الأراضى والشوارع والحارات الواقعة اليوم بين السيدة زينب والقلعة بالقاهرة.

وكثر العمران بالقطائع حتى امتدت معالمها إلى الفسطاط والعسكر، وأصبحت هذه العواصم الثلاث مدينة واحدة تتصل مبانيها ومرافقها فى صورة تبعث على العظمة والبهاء .

وكان القصر الذى بناه أحمد بن طولون بالقطائع أول معلم من المعالم العظمى للعاصمة الجديدة. وكان هذا القصر يشغل مساحة واسعة، يقوم عليها اليوم ميدان صلاح الدين، وبلغ من اتساع هذا القصر أن كانت له عدة أبواب يدخل منها الناس وهى باب الخاصة لدخول المقربين إلى الأمير وباب الميدان لدخو الجنود وباب الصلاة، وكان يؤدى إلى جامع ابن طولون.

مصر بعد الدولة الطولونية

وبعدما عادت مصر مرة ثانية إلى جسد الدولة العباسية شكل الخليفة المكتفى قيادة جديدة لمصر.

وجعل على ولايتها عيسى بن محمد النوشرى .. الذي شارك محمد بن سليمان فى غزو مصر وعودتها إلى الخلافة العباسية وبينما كان ابن النوشرى آخذاً فى تمهيد أمور مصر وتنظيم أحوالها .. ظهر محمد بن على الخليجى الذى شق عليه ما ألم ببنى طولون فأعلن عصيانه ورغبته فى إعادة ملك بنى طولون وتولية إبراهيم بن خمارويه بن أحمد بن طولون.

والتف حوله الكثير من المصريين وحقق ابن الخليجى انتصاراً سريعاً على عيسى بن النوشرى الذى فر إلى العباسية ودخل ابن الخليجى مصر فمهد أمورها وقضى على المفسدين وشكل حكومة جديدة واستفحل أمره وزاد التفاف الناس حوله فزاد جيشه، وما لبث ابن الخليجى أن اشتد على الناس وظلمهم وصادر أموال الأعيان لحاجة جيشه إلى المال ثم أخذ فى إصلاح أموره، وبينما هو على ذلك إذ قدم عليه جيش الخلافة العباسية الذى انضم إليه جيش ابن النوشرى ودارت حروب طويلة أحدثت بمصر الغلاء والخراب حتى انكسر ابن الخليجى وعندما فشل فى الهرب توارى فى بعض البيوت المصرية حتى قُبض عليه وحُبس فى رجب سنة مائتين وثلاث وتسعين بعد مدة عصيان دامت ثمانية أشهر وتشتت أعوانه فى البلاد.

وحدثت الاضطرابات الشديدة بمصر حتى أعاد الخليفة المكتفى عيسى بن النوشرى على مصر مرة ثانية فأرسل ابن الخليجى وأصحابه فى القيود إلى

الخليفة الذى أمر بقتله، وظل النوشرى على مصر يحاول إصلاح أمورها وتمهيد أحوالها نحو خمس سنين، وتوفى فى شعبان سنة مائتين وسبع وتسعين، وتوالى الولاة العباسيون على مصر، ولعل أقواهم كان تكين بن عبد الله الحربى الذى تولى حكم مصر أربع مرات.

وظلت مصر تابعة للخلافة العباسية حتى عام ثلاثمائة وثلاث وعشرين ثم استقلت عنها مرة أخرى عندما أقدم محمد بن طغج على إعادة فكرة التجربة الطولونية وأسس دولة مستقلة عن الخلافة العباسية عرفها التاريخ باسم الدولة الإخشيدية.

أولا : قيام الدولة الإخشيدية

كان طغج بن جف من كبار قادة جيش الطولونيين .. وترقى ولده محمد في قيادة جيش الأتراك بمصر ثم صار أميراً للأحواف بمصر فى أيام ولاية تكين بن عبد الله.

ثم وقع خلاف بينه وبين الوالى تكين .. فخرج محمد سراً إلى الشام وظل بها حتى تولى دمشق .. وعندما مات والى مصر تكين بن عبد الله واضطربت أمور البلاد أضاف الخليفة القاهر إمرة مصر إلي محمد بن طغج فأرسل من ينوب عنه فى حكم مصر وظل هو على ولاية دمشق .. وعُزل ابن طغج عن مصر فترة ثم أعيد إليها سنة (٣٢٣ هـ - ٩٣٥م) فأتى إلى مصر وصار الحاكم المطلق للبلاد.

ثم أقدم على إعادة فكرة التجربة الطولونية وتأسيس دولة مستقلة عن الخلافة العباسية مستعيناً بقوة الجيش الذي أصلح أموره بمصر.. ولما كان

الخليفة الراضى يعلم قوة ابن طغج وقوة الدولة الفاطمية التى تأسست بالقيروان لم يُبد ضيقاً بفكرة قيام الدولة الجديدة، وربما استحسن هذه الفكرة لتتصدى هذه الدولة لغارات الدولة الفاطمية التى كثرت الحروب بينها وبين الدولة العباسية والولاة المصريين . متمنياً أن تعيد هذه الدولة الأمان والاستقرار إلى مصر.

ثانيا : حكام الدوة الإخشيدية

(١) محمد بن طغج الإخشيد

(٣٢١هجرية) (٣٢٥- ٣٣٤هجرية)

ه محمد بن طغج بن جف الفرغانى الملقب بالإخشيد ـ مؤسس الدولة الإخشيدية ـ التى نسبت إلى لقبه الإخشيد.

كان أحد أبناء ملوك فرغانة (بلاد ما وراء النهر أى نهر جيحون وسيحون بآسيا الوسطى) وكلمة الإخشيد تعنى بلغتهم ملك الملوك كما كانَ يلقب ملوك الروم بقيصر، وملوك مصر بفرعون، أما كلمة طغج فكلمة تركية معناها عبد الرحمن.

ولد محمد بن طغج فى بغداد سنة (٢٦٨ هـ ـ ٨٨٢م) وكان أحد الأتراك فى الجيش المصرى، وتولى إمارة دمشق بعد والده، وتولى إمارة مصر مرتين واستقل بهما مؤسساً الدولة الإخشيدية.

حارب الفاطميين مع والى مصر منصور بن تكين سنة ٣٠٢ هـ وفى عام ٣٠٧م وقف مرة أخرى مع العباسيين فى حرب الفاطميين وعندما أقدم على الاستقلال بمصر ألغى الدعاء للخليفة العباسي من على المنابر، فسار إليه القائد

العباسى محمد بن رائف لينتزع منه مصر ووقعت بينهما حرب عظيمة انتصر فيها الإخشيد.

* وبعد أن أصلح الإخشيد أحوال مصر وقضى على الفتن الداخلية، قام بضم الشام وبلاد الحجاز (مكة والمدينة) إلى دولته لإيجاد وحدة بين الأقطار العربية بعضها البعض - وصد العدوان الرومانى المحتمل حدوثه - ولكن عندما بدت قوة الدولة الإخشيدية وظهر نفوذها دفع ذلك أباطرة الروم إلى مناصرة الإخشيد وإقامة الصداقة مع دولته الجديدة وتوطدت العلاقات أيضاً بين الخليفة العباسى الراضى ومحمد بن طغج حتى أن الخليفة هو الذى لقبه بالإخشيد كما توطدت العلاقات أيضا بين الإخشيد وبقية الخلفاء العباسيين.

* وعندما قوى نفوذ الإخشيد وضعف نفوذ الدولة العباسية وفقد الخليفة المتقى الثقة فى قادته استنجد بالإخشيد الذى دعاه إلى مصر، ونقل الخلافة العباسية إليها على أن تكون الدولة الإخشيدية فى خدمته ولكن عظم على الخليفة أن يترك مقر خلافته فقتله القائد توزون التركى .

وكان الإخشيد ملكاً شجاعاً حازماً يحسن التدبير والحرب والسلام ، وله هيبة عظيمة فى قلوب الرعية وكان جواداً كريماً. ودامت مدة حكمه نحو ثلاثة عشر عاماً.

وفى ذى الحجة سنة ثلاثمائة وأربع وثلاثين مات الإخشيد بدمشق بعدما استخلف ابنه أبا القاسم أنوجور ونقل جثمانه إلى القدس ودفن بها.

(٢) أنو جور بن الإخشيد (٣٣٥ - ٣٤٩ هجرية)

هو أنوجور بن محمد بن طغج بن جف الفرغانى - وأنوجور اسم أعجمى معناه بالعربية محمود.

* كان كافور الإخشيدى كبير قادة جيش الإخشيد وموضع ثقته وأتابك ولده (أى مربى أولاده حيث (أتا) تعنى بالتركية مربى و(بك) تعنى أمير.

وعندما مات الإخشيد كثرت الإضطرابات بمصر، وساءت أحوالها، فحمل كافور ولدى الإخشيد أنورجور، وعلى إلي الخليفة المطيع باله ببغداد، والتزم أمام الخليفة بتدبير أمور مصر على أن يقر الخليفة أنوجور الإبن الأكبر للإخشيد على ما كان يحكمه أبوه فأقره الخليفة وتولى أنوجور حكم مصر سنة ثلاثمائة وأربع وثلاثين هجرية وهو ما زال صبياً.. وكان كافور يقوم بتدبير كل شئون البلاد.

فكان لأنوجور الاسم ولكافور الفعل والتصرف.

* وعندما عاد كافور بابنى الإخشيد إلى مصر، وجد غلبون الذى كان يتولى الريف جمع حوله الجنود وسرق الكثير من البلاد وفر من مصر عندما قدم أنوجور فتبعه الحسن بن طغج عم أنوجور، وظفر به وقتله، وفى بداية حكم أنوجور قام سيف الدولة الحمدانى بغزو دمشق وهزيمة أميرها من قبل أنوجور .. فخرج كافور ومعه أنوجور وعمه الحسن إليه ودارت بينهما معركة بالجون (بلد بالأردن) وهزموه واستردوا دمشق ودام حكم أنوجور أكثر من أربعة عشر عاماً وكافور يدبر شئون البلاد وحكمها.

* وفى سنة ثلاثمائة وتسع وأربعين مات أنوجور وحمل جسده إلى القدس ليدفن بجوار أبيه الإخشيد.

وأقام كافور على حكم مصر أخاه علياً بن الإخشيد.

(٣) على بن الإخشيد (٣٥٠-٣٥٤هـ)

هو على بن محمد بن طغج بن جف الفرغانى ولد سنة ثلاثمائة وست هجرية ولاه كافور الإخشيدى على مصر بالاتفاق مع مماليك أبيه الإخشيد وقواد الجيش بعد موت أخيه أنوجور فى ذى القعدة سنة ثلاثمائة وتسع وأربعين، وأقره الخليفة المطيع كما أقر أخاه أنوجور على مصر والشام والحرمين .. وكما كان الحال أيام أنوجور صار أيضا أيام على أى أن علياً كان حاكماً بالاسم وكان كافور حاكماً بالفعل وعظمت سلطة كافور فى أيام على عنها فى أيام أخيه.

* وفى سنة ثلاثمائة وإحدى وخمسين هجرية قل ماء النيل وضعفت الأراضى الزراعية ونقص القمح، وتزايد الغلاء، فاضطربت أمور مصر، ودخل القرمطى إلى الشام، ولم يستطع المصريون رده عنها لانشغالهم بأمر الغلاء وأمر المغاربة أعوان الفاطميين الذين وردوا إلى مصر، ودخل ملك النوبة مصر ووصل إلى أسوان، ثم أخميم وأكثر السلب والنهب وإشعال الحرائق، ونقص الخبز، ولجأ التجار إلى الاحتكار، فعظم الغلاء وثارت الرعية وكثر السلب والنهب وسُرقت الأسواق، وتجمع الناس عند الجامع العتيق بالفسطاط حتى مات بعضهم من الزحام .. وقع الخلاف بين على بن الإخشيد وكافور ومنع كافور الناس من لقاء علىّ والاجتماع به حتى مات علىّ فى المحرم سنة ثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية وحُمل إلى القدس ودفن بجوار أبيه الإخشيد وأخيه

أنوجور وكانت فترة حكمه لمصر نحو خمس سنوات، وبقيت البلاد من بعده أياماً بدون أمير وكافور على عادته يدبر أمور البلاد، ثم اتفق أعيان مصر وقادة الجيش على تولية كافور الإخشيدى على مصر.

(٤) كافور الإخشيد (٣٥٥-٣٥٧هـ)

هو : كافور بن عبد الله الإخشيدى : اشتراه محمد بن طغج بثمانية عشر ديناراً .. وقيل ثمانية دنانير.

ورباه ثم أعتقه .. وعندما رأى عقله وحزمه وحسن تدبيره، رقاه حتى صار من أكبر قادته وكان الإخشيد يبعثه على رأس جيوشه لحرب أعدائه.. ولإعجاب الإخشيد به وشدة ثقته فيه جعله أتابك ولده .. وعندما مات الإخشيد فى سنة ثلاثمائة وخمس وثلاثين أقام ولده أنوجور على مصر وبعد وفاته أقام أخاه علياً وكان هو الحاكم الفعلى فى أيامهما .. وبعد موت علىّ بن الإخشيد تولىٰ الحكم فى عام ثلاثمائة وخمس وخمسين باتفاق أعيان مصر وقادة الجيش.

وكان كافور سياسياً عاقلاً يظهر الطاعة لبنى العباس، ويرسل الهدايا للمعز الفاطمى بالمغرب .. كما اشتهر بالجود والكرم والتدين، وعظم أمره حتى زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد.

* وفى عام ثلاثمائة وسبع وخمسين مات كافور بمصر وعمره بضعاً وستين عاماً وحُمل إلى القدس فدفن بها.

وكانت إمارته على مصر اثنتين وعشرين عاما .. حكم منها أكثر من تسعة عشر عاماً باسم أولاد الأخشيد .. وأكثر من عامين باسمه، خُطب له فيها على منابر مصر الشام والحرمين وثغور الشام.

* وعندما مات كافور اجتمع الأعيان والقادة على تولية أحمد بن على الإخشيدى وكان صبياً عمره إحدى عشرة سنة .. على أن يرجع تدبير أمور الحكم إلى الحسن بن عبيد الله بن طغج ابن عم أبيه، وتدبير أموال مصر إلى الوزير جعفر بن الفرات وتدبير أمر الجيش إلى سمول الإخشيدى.

* وسار الحسن بن عبيد الله إلى الشام لحرب القرمطى .. وأساء جعفر بن الفرات إلى الناس حتى أن بعضهم أرسل إلى المعز العبيدى بالمغرب ليرسل جيشه إلى مصر.

وعاد الحسن بن عبيد الله مهزوماً من الشام .. وقبض على جعفر بن الفرات لسوء سيرته .. وعم الاضطراب وسادت الفوضى ، وبينما البلاد على هذا الحال أرسل المعز لدين الله الفاطمى جيشاً بقيادة جوهر الصقلى الذى دخل مصر وهزم الإخشيديين سنة ثلاثمائة وثمانية وخمسين لتنتهى حكاية مصر مع الدولة الإخشيدية.

ثالثا : ملامح مصر فى عهد الدولة الإخشيدية:

تميزت مصر فى أيام الدولة الإخشيدية ببعض الملامح من أهمها:

* القضاء : أنشأ الإخشيديون ديواناً خاصاً بالمظالم مثلما فعل العباسيون .. فكان الإخشيد يجلس كل يوم أربعاء للنظر فى المظالم .. ومن بعده كان كافور يجلس كل يوم سبت، واهتم الإخشيديون بمتابعة أعمال القضاة ومن أشهر القضاة فى عصرهم :

محمد بن بدر الصيرفى وعمر بن الحسن الهاشمى.

* الناحية الاقتصادية : اهتم الإخشيديون بالنواحى الاقتصادية للبلاد ولا سيما الزراعة.

* الناحية العلمية : اهتم الإخشيديون بالعلم والأدب.. وكان لكافور نظر فى العربية والأدب والعلم.

* النقود : كانت النقود فى الدولة الإخشيدية تسك باسم الخليفة العباسى.

* الجيش : عمل الإخشيد محمد بن طغج على تكوين جيش قوى كان عدده أربعمائة ألف مقاتل.

أسباب سقوط الدولتين

الطولونية والإخشيدية

لم تكن هاتان الدولتان إلا مجرد انقلابات سيطر أصحابها على الحكم فى ظل ظروف كانت الدولة العباسية تمر بها .. ومن أهم أسباب سقوطهما :

* تغلب القادة الأجانب واستبدادهم بالسلطان .. وليس لهم العقل الذى يرضاه الإسلام والقلب الذى هذبه الدين - فقد لبس الإسلام أبدانهم ولكنه من ينفذ إلى وجدانهم - فكان وصولهم إلى الحكم دون إعدادهم إعداداً حقيقياً للقيادة.

* المنافسة بين الأمراء من أجل السلطة والمطامع الشخصية.

* عدم إلتزام شرع الله والذى من شأنه تقوية الدول والحكام.

* إقبال الأمراء على اللهو والشراب وشدة الإسراف والتبذير.

* كثرة الحروب بين الدول أدى إلى حلول الضعف في بنيانها.

* كثرة الفتن والصراعات الداخلية أدت إلى تمزيق هذه الدول.

وبدخول القائد جوهر الصقلى تنتهى حكاية مصر مع الدولة الإخشيدية وتبدأ حكاياتها مع الدولة الفاطمية .

أولا : دخول الفاطميين مصر وقيام الدولة الفاطمية

منذ أن أسس عبيد الله المهدى الدولة الفاطمية في القيروان بشمال أفريقيا سنة ٢٩٧ هجرية/٩٠٩ ميلادية، وهو يتمنى فتح مصر ونقل الخلافة الفاطمية إليها. بسبب موقع مصر المتميز وكثرة خيراتها الطبيعية. ومات عبيد الله المهدى ولحقه ثلاثة من الخلفاء الفاطميين ، وعندما تولى رابع الخلفاء الفاطميين المعز لدين الله الفاطمى كانت الظروف قد تهيأت تماماً لفتح مصر.. وكانت مصر تمر بحالة سياسية سيئة، أدت إلى انتشار الفتن والحروب.. كما كانت تمر أيضاً بحالة اقتصادية سيئة، نتجت عن انخفاض منسوب مياه النيل، مما أدى إلى تدهور الأحوال الزراعية، فعم الغلاء، وتبعه الفقر، فانتشرت السرقات، وحدثت المجاعات، والأمراض، وقلت مُقدرات الجنود، فأرسل بعضهم إلى المعز الفاطمى كتاباً ليرسل جيشه كى يسلموا له مصر.. وعلى الفور سعى المعز نحو تحقيق الحلم الفاطمى فى فتح مصر .. فأرسل إليها قائده جوهر الصقلى الخبير بالحرب ومكائدها فى جيش قوامه مائة ألف جندى وحمله من السلاح ما لا يحصى، ومن الأموال ما لا يعد.

وفى سنة ثلاثمائة وثمانية وخمسين نزل جوهر بجيوشه قرب الإسكندرية، وأرسل إلى أهلها ولسوء الأحوال فى مصر أجابه أهل الإسكندرية بطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم، فكتب لهم كتاب أمان بذلك ودخل جوهر الإسكندرية دون مقاومة تذكر .. ولاستمالة أهل الإسكندرية إليه جعل يتقرب إليهم .. ويغدق عليهم الأموال مستغلاً حاجتهم إليها .. ثم سار إلى الجيزة مركز تجمع الإخشيديين، فكتب لهم كتاب أمان.

ولما كانت الجندية مصدر رزق ونفوذ القادة والجنود الإخشيديين، عز عليهم أن يستولى جيش الشيعة المغربى على مصر بهذه السهولة، وأن يزول نفوذهم بين يوم وليلة، فأجمعوا رأيهم على حرب جوهر .. وعند منية شلقان (قرية تقع ظرق القناطر الخيرية بمركز قليوب وتعرف الآن باسم شلقان) التقي الفريقان، ودار بينهما قتال شديد، حتى انهزم الإخشيديون وأرسلوا إلى جوهر يطلبون الأمان .. وعلى دقات الطبول دخل جوهر مصر ونزل بموضع يسمى (المُناخ) فاختط مدينة القاهرة، وحفر أساس قصره.

وعم الأمان بمصر، وانتهى النهب، أمن الناس، وفتحت الأسواق، وفى يوم الجمعة وعندما صعد جوهر المنبر خطيباً، ودعا لمولاه المعز، وقطع الخطبة لبنى العباس، كان ذلك إعلاناً بتبعية مصر للخلافة الفاطمية.

وأتم جوهر بناء القاهرة، وسماها المنصورية نسبة إلى المنصور إسماعيل والد المعز الفاطمى، وبنى بها القصور ودار الإمارة .. وحكم حجوهر مصر أربع سنوات تابعاً للخلافة الفاطمية، وضم الحجاز ومكة والشام إلى نفوذ الفاطميين.

وفى عام ثلاثمائة واثنين وستين جاء المعز الفاطمى إلى مصر، فانتقلت الخلافة الفاطمية إليها، وقامت بها الدولة الفاطمية.

وبدأت خلافة المعز وظل جوهر من أعظم القادة الفاطميين حتى توفي فى عام ثلاثمائة وإحدى وثمانين هجرية، وظهرت قوة الدولة الفاطمية، وإزداد نشاطها بعد استقرار خلافتها فى القاهرة، واشتدت المنافسة بين الفاطميين والعباسيين حتى اتخذت الدولة الفاطمية مركز الصدارة فى العالم الإسلامى فى عهد المستنصر الفاطمى، الذى خُطب له على منابر بغداد عاصمة العباسيين.

وعندما بدأت خلافة المعز بالقاهرة، بدأت حكاية الخلفاء الفاطميين مع مصر.

ثانيا: الخلفاء الفاطميون

(٣٥٨-٥٦٧هجرية)-(٩٦٩-١١٧١ميلادية)

الخلفاء الفاطميين عددهم أربعة عشر خليفة، تولى ثلاثة منهم بالمغرب وأحد عشر بالقاهرة.

نسب الفاطميين

اختلف المؤرخون فى نسبهم، فمنهم من ردهم إلى على بن أبى طالب (رضى الله عنه) والراجح ما أخبر به القاضى أبو بكر الباقلانى الذى قال فى نسبهم:

القداح جد عبيد الله - يقصد عبيد الله الفاطمى الذى أسس الدولة الفاطمية بالمغرب - كان مجوسياً.. ودخل عبيد الله المغرب وادعى أنه علوى، ولم يعرفه أحد من علماء النسب، وكان باطنياً خبيثاً، حريصاً على إزالة ملة الإسلام، ادعى الفقه العلم ليتمكن من إغراء الخلق، وجاء أولاده فاتبعوا أسلوبه

وأباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض[1]، وبثوا دعاة فأفسدوا عقائد جبال الشام.. وكان القداح كاذباً مخرقاً.

* والواضح أن الخلفاء الفاطميين كانوا كذابين مدعين، وليسوا بشرفاء من نسب علي بن أبى طالب ، وكانت أم الخليفة الفاطمى : الحاكم بأمر الله، جارية لأبى سعد التسترى اليهودى.. وقد جعلت سيدها اليهودى وزيراً فى خلافة ولدها الحاكم.

(١) المعز لدين الله الفاطمى

هو معد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله العبيدى المغربى .. ولد سنة ٣١٩ هجرية، وتوفى الخلافة سنة ٣٤١ هجرية بعد موت أبيه .. ورحل إلى مصر من المغرب، بعدما استخلف يوسف بلكين بن زيرى على المغرب .. وكان جوهر الصقلى قد مهد له ملك مصر وبنى له المنصورية (القاهرة) وبنى بها دار الإمارة والقصر .. ودخلها المعز فى شعبان سنة ٣٦٢ هجرية ، وأسماها القاهرة تفاؤلا بأنها سوف تقهر العباسيين .. وخطب فى المصريين وأعلمهم قصده فى إقامة الحق والعمل بما أمره به جده الرسول ﷺ (رغم أنه عدو للإسلام) ثم دخل قصره ، بعث أعوانه ينقلون إليه أخبار المصريين، وتوارى هو بقصره مدة غارقاً فى اللهو متمرغاً فى النعيم، ثم خرج على الناس مرتدياً الحرير الأخضر وعلى وجهه يلمع الذهب والياقوت ، (وزعم أنه كان غائبا فى السماء وأن الله رفعه إليه، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعباً وخوفًا).

---

(١) الرافضة : فرقة خبيثة من الشيعة تسب الشيخين أبا بكر وعمر رضى الله عنهما.

وكان المعز حازماً، ويغدق الأموال على الناس لاستمالتهم إلى الفاطميين وعقيدتهم (عقيدة الرافضة).

وامتدت ولاية المعز ثلاثاً وعشرين سنة وأشهراً، تولى بمصر ثلاث سنوات فقط .. وفى أيامه استولى القرامطة[1] على الشام التى فتحها جوهر، ولعنوا المعز على المنابر، ثم أتى القرمطى بجيشه إلى مصر .. وحدث كل ذلك لأن المعز قطع الإتاوة التى كان الإخشيديين يدفعونها للقرامطة وقدرها ثلثمائة ألف دينار من أموال مصر، ووصل القرمطى بجيشه إلى مشتول الطواحين (أحد مراكز محافظة الشرقية اليوم ويسمى مشتول السوق) وحدثت بين القرمطى والمعز اشتباكات تقهقر بعدها المعز إلى القاهرة، وتحصن بها حتى دفع للقرمطى مالاً أرضاه به، فترك القرمطى مصر عائداً إلى الشام.

وفى سنة ٣٦٥ هجرية مات المعز وله من العمر ست وأربعون سنة، ومن الذرية عشرة أولاد، واستخلف من بعده ابنه نزار الملقب بالعزيز بالله، الذى تولى خلافة مصر وله اثنتان وعشرون سنة، وتولى تدبير أمور مصر فى عهده القائد جوهر الصقلى، وكانت مدة ولايته على مصر نحو إحدى وعشرين سنة، ومات سنة ٣٨٦ هجرية وتولى من بعده ولده الحاكم بأمر الله أسوأ من عرفت مصر من الحكام.

٢- الحاكم بأمر الله

هو منصور بن العزيز بن المعز العبيدى .. ثالث الخلفاء الفاطميين بمصر، ولد بالقاهرة سنة ٣٧٥ هجرية، واستخلفه أبوه، وبويع بالخلافة بعد موت أبيه فى

(١) القرامطة : فرقة من غلاة الشيعة .

عام ٣٨٦ هجرية، وعمره نحو إحدى عشرة سنة، وفى بداية حكمه استولى على سواحل الشام.

وكان الحاكم غريباً فى أمره، كمن دخل الخلل عقله .. فقد شهدت مصر التضاد بادياً فى أفعاله، فكان يفعل الشىء ثم ينقضه .. يصدر الأمر وسرعان ما يلغيه .. فمثلا :

كان يصرح بمحبته للعلم، ويُبدى اهتمامه بالعلماء ، وما يلبث أن يقتل العلماء .. ويظهر السخاء ثم يبخل بشدة .. ومن خبث عقيدته أنه كتب على المساجد سب الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - ثم محى ذلك، ونهى المصريين عن صلاة التراويح ثم أباحها .. ومن اضطراب عقله أنه نهى عن أكل الملوخية والسمك وغيرهما، وكان يقتل من يبيعهما.

وقد عرفته مصر سفاكاً للدماء ، فقتل الكثير من أعيانها وعلمائها، وجعل لأهل الذمة علامات مميزة.

وكان الحاكم بسيطاً فى ثيابه مفضلاً العزلة، لذا كان يركب الحمار ويتوجه إلى المقطم ويخلو إلى نفسه ويهيم فى تصوراته فى مرصد خاص يرصد منه النجوم ويستطلعها.

وفى عام ٤١١ هجرية شاع الخبث فى نفس الحاكم، وتحكم فيها حتى حمله إلى إدعاء الألوهية، وخرج فريق من أتباعه يلقون على أهل مصر دعوتهم، بألوهية الحاكم : ودخلوا الجامع العتيق بالبغال والخيول . وجاهروا بدعوتهم فثار الناس وضج المسجد بهتاف المصلين (الله أكبر .. لا إله إلا اله) فقدم أتباع الحاكم كتاباً إلى القاضى أحمد بن أبى العوام يتضمن الاعتراف بألوهية

الحاكم .. فاحتج القاضى بشدة .. ووثب الناس على أتباع الحاكم الملاحدة وقتلوهم .. فثار الحاكم وأعدم عدداً كبيراً من قتلة دعاته .. فاشتد سخط الناس، وشاركهم الجنود فى غضبهم، ولم يجرؤ الحاكم على معاقبة الجنود بل أظهر الرضا عنهم وأضمر السوء لأهل مصر (الفسطاط) الذين حرضوا الجنود والناس واستدعى القادة والمنجمين وأمرهم بالسير إلى الفسطاط ونهبها وإحراقها وقتل من يظفرون به من أهلها .. فاجتمع أهل الفسطاط وقاتلوا عن أنفسهم ودورهم واستمر القتال بينهم وبين عبيد الحاكم والعساكر المغاربة ثلاثة أيام .. والحاكم يصعد فى كل يم الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح ويسأل : ما هذا ؟ فيقال له : العبيد ينهبون مصر ويحرقونها .. فيبدى التألم ويقول : لعنهم الله من أمرهم بذلك ؟!!

واحترق ثلث الفسطاط، ونُهب نصفها، وسُبيت النساء والبنات وعندما زادت الفتنة وأشرفت البلاد على الهلاك، قام الأعيان والأمراء بتهديد الحاكم باستنفار العرب ضده، فركب حماره، ووقف بين الفريقين وأشار على عبيده والمغاربة بالانصراف، وأقسم للمصريين بأنه ما أراد ذلك ولا أمر به وأنه برىء مما فعله العبيد فسأله الناس الأمان فأمنهم وسكنت الفتنة وباشر الناس أعمالهم.

وعاود الحاكم ادعاء الألوهية، ومال إليه كل منافق خبيث، طامع فى الدنيا مثل محمد بن إسماعيل الدرزى الذى ألف كتاباً قال فيه بأن روح آدم - عليه السلام - انتقلت إلى على بن أبى طالب ، ثم إلى والد الحاكم ثم إلى الحاكم .. فقربه الحاكم وأبلغه أعلى المراتب، وأعطاه من الأموال ما لا يحصى .. وراح الدرزى يقرأ الكتاب فى الجامع على المصريين فوثب عليه المصريون ليقتلوه فهرب، وساعده الحاكم على الهروب إلى دمشق بعدما حمله بالأموال، وظل

الدرزى هناك ينشر دعواه ويستميل الناس إلى ربوبية الحاكم، ومن أجل ذلك جعل يغدق عليهم الأموال وأباح لهم الخمر والزنا.

وفى مصر كثرت أفعال الحاكم الشاذة وعُرف بها .. وضاق الناس بأفعاله، ولم يعد لأحد صبر على احتماله، وجعلوا يدعون عليه فى أعقاب الصلوات، فخاف الحاكم واعتدل فى أفعاله قرابة ثلاث سنوات، ثم عاد إلى سالف حاله، إلا أنه أكثر من قتل العلماء والفقهاء.

وأشفقت أخته ست الملك من ضياع البيت الفاطمى فى مصر على يديه .. وكانت صاحبة عقل وحزم، فأخذت تحذره وتوجه له انصح، ولكنه لم ينتصح .. ووجه إليها شره، فاتهمها فى شرفها، فأرسلت إليه من يقتله وهى غير نادمة على فعلتها .. وفى شوال عام ٤١١ هجرية أراح الله منه البلاد والعباد .. وكانت مدة عمره ستاً وثلاثين سنة، ومدة خلافته على مصر خمساً وعشرين سنة لعنه الله .. وأقامت (ست الملك) على خلافة مصر ابنه على بن الحاكم الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله، وقامت ست الملك بتدبير أمور حكمه وعرفته مصر جوادا عاقلا ورأته يسير فى أهلها سيرة الحكام العادلين ورغم أنه كان رافضياً إلا أنه لم يشذ فى الدين مثل آبائه .. وتولى خلافة مصر وعمره سبعة عشر عاماً، ودامت خلافته ست عشرة سنة، وشيعته مصر إلى مثواه الأخير فى عام ٤٢٧ هجرية، وعمره واحد وثلاثون سنة، وتولى من بعده ابنه المستنصر بالله.

(٣) المستنصر بالله

هو معد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز الفاطمى خامس الخلفاء الفاطميين بمصر ولد بمصر سنة ٤٢٠ هجرية، وتولى الخلافة بعد موت أبيه

الظاهر فى شعبان سنة ٤٢٧ هجرية.. أى أن عمره لم يزد وقتها عن سبع سنين .. لذا ثارت الفتن، واضطربت أحوال البلاد، وكثر النهب، وأغلقت الأسواق، وظلت الأمور على هذا الحال سنوات.. وحدثت الفتنة بين كبار القادة، وطالت بينهم الحروب ومما زاد الحال فى مصر سوءاً نقص منسوب مياه النيل فحدث غلاء لم تشهد له مصر مثيلاً، وساد بعده فقر شديد، وقحط عظيم، حتى وصل ثمن أردب القمح إلى مائة دينار، واستولى الخراب على البلاد.. ووصل الأمر بالمستنصر نفسه إلى بيع معظم ثيابه وثياب أبنائه واستعارة بغلة ليركبها، ورحلت أمه وبناته إلى بغداد خوفاً من الموت جوعاً .. وإذا كان هذا حال الخليفة وأسرته .. فكيف كان حال أهل مصر ؟ مات خلق كثير، ورحل عن مصر الكثير من أبنائها بسبب الجوع الذى لم تشهد له الدنيا مثيلاً.. وأقبل الناس على أكل الميتة.. ودام هذا الحال نحو سبع سنوات من سنة ٤٥٧ إلى ٤٦٤ هجرية .. وطمع البعض فى المستنصر وحاصروه فى قصره.. وجعلت الأمور تسير من سيىء إلى أسوأ حتى استدعى المستنصر الأمير بدر الجمالى أمير الجيوش من عكا .. وعلى أرض مصر استطاع الجمالى قتل المتمردين والخارجين على المستنصر ومحدثى الشغب، وصادر أموالهم وأموال الكثير من الأمراء والقادة والقضاة .. وطفق يصلح أمور مصر .. فأصلح أمور الريف، وجاد النيل بمائه .. فرخصت الأسعار، وسكنت الفتن وهدأت الأمور.. ثم انفرد الجمالى بتدبير أمور حكم مصر دون المستنصر حتى مات قبل المستنصر بأشهر، فقام بتدبير الأمور ولده الأفضل الجمالى ، ولم يكن للمستنصر من الأمر شيء سوى الاسم والظهور بمظهر الخليفة فى الاحتفالات والأعياد، وكان كل همه اللهو والطرب والشراب.

وفى عهد المستنصر حدث أمر عظيم لم يحدث لآبائه .. فقد استطاع أحد قواده ويدعى الأمير أرسلان البساسيرى إسقاط الخلافة العباسية (مؤقتاً) بعد معارك وحروب مع جيوش العراق وقطع الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله وخطب للمستنصر على جميع منابر العراق.. وفى عام ٤٥١ هجرية قاتل السلطان طُغُر بك الأمير البساسيرى وقتله شر قتلة، وأعاد الخطبة للقائم بأمر الله العباسى .. وفى سنة ٤٤٧ هجرية استولى على بن محمد الصليحى على اليمن وخطب للمستنصر على منابرها.

وفى أيام المستنصر كان الإسلام الصحيح غريباً .. وكان الرفض وسب الصحابة منتشراً علانية.

ومن خبث المستنصر أنه كان يخرج إلى مكان للنزهة يدعى (جب عميرة)[1] بعد أن ينشر فى الناس أنه خارج للحج، وكان يحمل معه الخمر ويسقيه لرفاقه بدلاً من الماء، وما ذاك إلا استهزاء بالإسلام والمسلمين .. وفى إحدى هذه الرحلات انطلقت شرارة الحرب بين الأتراك وعبيد الحاكم ودامت هذه الحرب سنوات قاست فيها مصر أشد البلاء، وتسببت هذه الحرب في فساد الأمور بالبلاد، وانتشر القحط والوباء مثل مرض الطاعون الذي شاع بجميع أرض مصر فى عام ٤٥٥ هجرية، وقيل إنه كان يموت بسببه كل يوم ما يقرب من ألف إنسان على أرض مصر الحبيبة.

وفى ذى الحجة سنة ٤٨٧ هجرية أهلك الله المستنصر وعمره سبعة وستون عاماً بعدما امتدت فترة خلافته إلى ستين عاما ولم تمتد فترة خليفة أو

---

(١) مكانه اليوم قرية البركة مركز شبين القناطر محافظة القليوبية .

حاكم أو سلطان مثل ما امتدت فترة خلافة المستنصر بالله سوى الفرعون رمسيس الثانى الذى امتد حكمه لمصر أكثر من ستين عاماً .. وقد قضت مصر فترة حكم المستنصر الطويلة فى القلاقل والفتن والشدائد بسبب خبث عقيدة المستنصر وسوء تصرفاته.

(٤) الآمر بأحكام الله

هو منصور بن المستعلى بن المستنصر الفاطمى .. سابع الخلفاء الفاطميين فى مصر .. ولد سنة ٤٩٠ هجرية، وتولى بعد موت أبيه وعمره خمس سنوات، وكان الأفضل بن بدر الجمالى يدبر له شئون الحكم وعندما كبر الآمر هذا قتل الأفضل الجمالى.

وكان الآمر رافضياً خبيثاً كآبائه، كثير الفسق، والظلم، وسفك الدماء ، ومصادرة الأموا ، وكان يرتكب المحظورات ويستحسن القبائح وفى أيامه استولى الفرنسيون على لبنان وبيت المقدس وغيرهما من بلاد الشام وقتلوا الرجال وسبوا النساء ونهبوا الأموال بينما كان أهل هذه البلاد تنتظر غيرة الفاطميين، ولكن الآمر تقاعس عن نصرتهم بسبب عدم رغبته فى الجهاد وتعاظم رغبته فى اللهو والمنكر .. وعلى هذا الحال الخبيث ظل الآمر بأحكام الله على خلافة مصر تسعاً وعشرين سنة .. وفى سنة ٤٢٠ هجرية قتل الآمر بأحكام الله .. ليتولى من بعده ابن عمه (عبد المجيد بن محمد بن المستنصر) الملقب بالحافظ لدين الله فأحسن إلى أهل مصر، وأعاد ما صادره الآمر من أموال الناس، وإن كانت عقيدته هى عقيدة الرافضة الخبثاء .

هكذا عاشت مصر فى أيام الفاطميين، وهكذا عانت فى أيامهم.

(٥) العاضد بالله الفاطمى

هو عبد الله بن الأمير يوسف بن الخليفة الحافظ الفاطمى .. الحادى عشر من الخلفاء الفاطميين وآخرهم بمصر .. ولد سنة ٥٤٤ هجرية وتولى بعد موت ابن عمه الخليفة (الفائز بنصر الله الفاطمى) سنة ٥٥٥ هجرية وعمره إحدى عشرة سنة .. وعندما قُتل الفائز استولى الوزير طلائع بن زريك على الأمر فى مصر وأقام العاضد صورة فقط .. واستحل العاضد ووزيره طلائع دم السُنيين .. أصحاب العقيدة الإسلامية الصحيحة .. وتفشت أطماع زريك فاحتكر الغلال مما أدى إلى ارتفاع الأسعار.. كما قام بقتل أمراء الدولة ومصادرة أموالهم، وفى سنة ٥٥٦ هجرية قتل العاضدُ الوزير طلائع بن زريك وأقام مكانه ابنه زريك، ولم يطب الحال للعاضد مع زريك فاتصل بشاور والى الصعيد ليخرج على زريك ويقتله وأغراه بالوزارة من بعده، ففعل شاور ذلك وعندما تقلد شاور الوزارة كثر ظلمه وأساء كثيراً إلى المصريين حتى خرج عليه (ضرغام بن عامر) وخذل أهل القاهرة الوزير شاور لشدة كراهيتهم له .. فهزمه ضرغام، وفر شاور إلى الشام، واستنجد بالسلطان العادل نور الدين محمود، وأعلمه أن خراب مصر سيأتى على يد ضرغام وكان السلطان نور الدين سنياً ولإنقاذ مصر وأهلها السنيين أرسل معه جيشاً بقيادة الأمير أسد الدين شيركوه وابن أخيه الأمير صلاح الدين الأيوبى فانتصرا على ضرغام وقتلاه، ولم يف شار معهما بوعده، فعادا إلى الشام .. واستقل شاور بأمر مصر، وعاد إلى سابق سياسته فجعل يظلم ويسفك الدماء، ويصادر الأموال، ولم يكن للعاضد معه من الأمر شىء سوى اسم الخيفة فقط.. وفتح شاور مصر للفرنسيين فملكوها ، ونهبوا أموالها، وأكثروا القتل ، وحرق شاور مدينة الفسطاط ، وظلت

النار تأكل فيها أربعة وخمسين يوماً بسبب كراهيته للمصريين وكراهية المصريين له .. وعندما أيقن العاضد أن خراب مصر آت لا محالة على يد شاور والفرنسيين أرسل فى سنة ٥٦٤ هجرية إلى السلطان نور الدين يستنجد به لإنقاذ مصر، ومرة ثانية يرسل السلطان نور الدين أسد الدين وصلاح الدين بجيشهما إلى مصر، ولما علم شاور بالأمر استعان بالفرنسيين .. ودارت بين الجيشين معارك وحروب، أسفرت فى النهاية عن انتصار أسد الدين وصلاح الدين، وقتل شاور، وطُرد الفرنسيون .. وجعل الخليفة العاضد الوزارة لأسد الدين .. وبعد قرابة شهرين وفى سنة ٥٦٥ هجرية مات أسد ادين بعدما استخلف بعده فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ولقبه العاضد بالملك الناصر، وجعل صلاح الدين يدبر أمور مصر كأجمل ما يكون التدبير، ويحسن إلى المصريين كأكمل ما يكون الإحسان .. وأحبه المصريون .. وسعدوا به كثيراً لعدالته واعتدال دينه فقد كان مثل المصريين سنياً، صحيح العقيدة، وأعاد إلى مصر الإسلام الصحيح .

وبينما كان أمر صلاح الدين يقوى .. كان أمر العاضد يأخذ فى الضعف.. بيد أن السلطان نور الدين وقائديه أسد الدين وصلاح الدين استجابوا لنداء العاضد لإنقاذ مصر من الخراب، وإنقاذ الإسلام من الفاطميين الذين أماتوا السنن وقتلوا العلماء .. وعندما سنحت لهم الفرصة لتحقيق ذلك أرسل السلطان نور الدى إلى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة للفاطميين .. وإقامة الخطبة لبنى العباس على منابر مصر.. فخلع صلاح الدين العاضد وخطب للمستضىء العباسى فى سنة ٥٦٧ هجرية وفى نفس العام مات العاضد الفاطمى بعد فترة خلافة دامت أحد عشر عاماً، وعمره ثلاث وعشرون سنة،

وبموته انقضت دولة الفاطميين وزالت إلى غير رجعة، بعد فترة حكم امتدت أكثر من مائتى عام .

فترة تشهد فيها مصر على انحلال عقيدة الفاطميين وخبث اعتقادهم .. ويشهد فيها تاريخ مصر على كفرهم وعداوتهم للإسلام ، لعنهم الله.

ثالثا : ملامح مصر فى العصر الفاطمى

(١) العقيدة السائدة :

كانت عقيدة الرافضة سائدة فى مصر فى هذه الفترة .. بسبب الجموع الغفيرة من المغاربة الشيعة الذين جاءوا إلى مصر .. وبسبب إظهار الكثير من أهل مصر لعقيدة الرافضة إما تقرباً إلى الفاطميين وإما خوفاً منهم، لحرص بعض الخلفاء الفاطميين على قتل العلماء السُنيين، واستحلال دم كل سُنُى من العامة .. وفى أيامهم كان سب الصحابة علانية ويكتب على الجدران .. ومن المعلوم أن جيل الصحابة خير أجيال البشرية لأن الذى علمهم هو النبى ﷺ وقد أثنى عليهم قائلا:

" خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم (البخارى ومسلم والترمذى) .." ونهى ﷺ عن سبهم وتجريحهم فقال : " لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه" (البخارى ومسلم والترمذى).

ومن المعلوم أن الله كما اختار النبى ﷺ .. اختار له أصحابه ورضى عنهم ـ سبحانه وتعالى ـ وأثنى عليهم .. فى كتابه الكريم قائلا :

﴿ والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ [التوبة]

وكان الفاطميون الرافضة الذين سبوا الصحابة يدعون علم الغيب حتى أن الخليفة العزيز الفاطمى وصور المنبر يوما فرأى ورقة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضـينا   وليـس بالكفر والحماقـــة

إن كنت أعطيت علم غيب   فعين لنـا كاتب البطاقـــة

* وادعى بعضهم الألوهية مثل الخليفة الحاكم .. وقال بالتناسخ ..

* وكان الفاطميون يعتمدون على المنجمين فى كل أمورهم .. وكان شهر رمضان عندهم دوماً ثلاثين يوماً .. وقد بدلوا فى الأذان الذى أقره الرسول ﷺ فاقاموا الأذان .. بحى على خير العمل .. ومن أعاجيبهم أن القائد جوهر الصقلى عندما دخل مصر خطب فى المصريين وأعلمهم أن الفاطميين يريدون نجدة العالم الإسلامى وجاء فى كلماته هذه العبارة (إن المعز الفاطمى صلوات الله عليه) وكان هذا المعز يغيب فى قصره غارقاً في اللهو ويدعى أنه كان غائباً فى السماء لأن الله يرفعه إليه.

(٢) العاصمة :

كانت (القاهرة) عاصمة كل الخلفاء الفاطميين وقد أنشأها القائد جوهر الصقلى فى عام ٣٥٨ هـ ، وبنى بها القصور ودار الإمارة وأقام حولها سوراً وجعل به أربعة أبواب .

١- باب النصر ٢- باب الفتوح

٣- باب القوس. ٤- باب زويلة.

(٣) العمارة :

اهتم الفاطميون بالناحية المعمارية ومن أهم أعمالهم في مجال العمارة إنشاء مدينة القاهرة .. وقد يطلق عليها البعض إلى الآن القاهرة الفاطمية أو قاهرة المعز .. وقد أنشأ بها الفاطميون الحمامات والأسواق والمساجد الكثيرة والقصور العديدة.

ومن أهم المساجد :

* الجامع الأزهر .. هو أول وأكبر مسجد شيد بالقاهرة الفاطمية وقد شُرع فى بنائه فى شهر رمضان سنة "٣٥٩ هجرية/ ٩٧٠ ميلادية" واستغرق بناؤه نحو عامين.

وأقيمت فيه الصلاة فى شهر رمضان سنة "٣٦١ هجرية / ٩٧٢ميلادية".

وأطلق عليه اسم الأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء رضى الله عنها .. وكان الغرض من إنشائه تعليم المذهب الشيعى ونشره.

ومرت الأيام بالجامع الأزهر حتى أصبح جامعة علمية إسلامية تنشر المذهب السنى وتضم جميع التخصصات وأدقها .. وكان للجامع الأزهر وقت إنشائه ثلاثة أبواب فى جدرانه القبلية والبحرية والغربية.

* المساجد الثلاثة المعلقة التى أنشأها الحاكم بأمر الله.

* جامع الحاكم "جامع الأنوار الآن بشارع باب الفتوح بالقاهرة" أسسه العزيز وأكمله الحاكم.

* مسجد ريدان الذى أنشأ في عهد العزيز بالله خارج القاهرة.

* ومن أهم القصور التى شيدت فى العصر الفاطمى.

* القصر الشرقى الكبير الذى أقامه القائد جوهر للخليفة المعز وكان يتكون من عدة قصور.

* القصر الغربى الذى شيده الخليفة العزيز بالله الفاطمى.

* قصر اللؤلؤة الذي بناه العزيز بالله الفاطمى وجدده الظاهر لإعزاز دين الله بعد أن هدمه أبوه الحاكم بأمر الله.

* كما أنشأ الفاطميون البيمارستان، أى بيت المريض (المستشفى).

وشهدت مصر تقدما ملحوظا فى فن الزخرفة أيام العصر الفاطمى.

(٤) الناحية الاقتصادية:

اهتم قادة وأمراء الفاطميين بالناحية الاقتصادية فقد كان اهتمامهم بتكديس الأموال كبيراً .. كما أن اهتمامهم بتكوين جيش كبير دفعهم إلى الاهتمام بالناحية الاقتصادية لتغطية مصاريف الجنود ورواتب القادة .. وربما كان تركيزهم على الزراعة أكبر مثلما فعل الأمير (بدر الجمالى).

وجدير بالذكر أن مصر عانت فى هذه الفترة كثيراً من المصاعب فى الناحية الاقتصادية تارة بسبب الفتن والحروب الطويلة بين الأمراء .. وتارة أخرى بسبب نقص منسوب مياه النيل واحتكار السلع مما أدى إلى حدوث

الغلاء الذى أدى بدوره إلى حدوث المجاعات الشديدة التى مات بسببها خلق كثير وهرب من مصر الكثير من أبنائها حذراً من الموت جوعاً.

(٥) الناحية الإدارية :

كان الفساد الإدارى منتشراً على جميع المستويات فى العصر الفاطمى بسبب تحكم طبقة القادة والجنود والأمراء .. وكان لغالبية الخلفاء الفاطميين من يدبر لهم شئون الحكم وينظر فى أمور البلاد، إما بسبب صغر سنهم أو بسبب انشغالهم باللهو والطرب والشراب، فكان ذلك أيضاً أدعى إلى انتشار الفساد الإدارى.

(٦) الناحية العلمية :

كان للفاطميين فى القاهرة الكثير من المكتبات، منها أربعون مكتبة مليئة بالمؤلفات الجليلة النادرة فى قصر الخلافة وحده .. وقد كان الإطلاع عليها مظزوراً على العامة.

كما كان بالقاهرة مكتبة ليس لها نظير بجميع بلاد الإسلام، وكانت هذه المكتبة تُعد فى هذه الفترة من عجائب الدنيا، وكانت تجمع ما يزيد على مائتى ألف مجلد فى مختلف العلوم والفنون، منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى الفلك والطب فقط.

وكان العلماء والطلاب يترددون عليها للمطالعة واستعارة الكتب وكان رئيس هذه المكتبة أحد علماء الشيعة ويسمى الداعى "والداعى لقب من ألقاب القائمين بالدعوة للمذهب الشيعى" وكان الداعى يجلس فى دار العلم " المكتبة" ويتحدث فى العلوم المتعلقة بالمذهب الشيعى ويعمل على نشره.

(٧) النقود :

كانت النقود فى الدولة الإخشيدية التى سبقت الدولة الفاطمية تُضرب باسم الخلفاء العباسيين وعندما استقر الفاطميون بمصر أنشأوا داراً لضرب العملة وصك الدنانير والدراهم الفاطمية باسم الخلفاء الفاطميين.

(٨) الجيش :

كان للفاطميين أطماع واسعة وكان الجيش هو سبيلهم لتحقيق هذه الأطماع.. لذا فقد حرص الفاطميون على الاهتمام بعدد وعدة الجيش ويتضح ذلك عندما أراد المعز الفاطمى تحقيق أطماعه فى فتح مصر فقد أرسل إليها جيشاً بقيادة جوهر الصقلى عدده مائة ألف جندى محملين بالسلاح والأموال وفتح هذا الجيش مصر واستقر بها.. وقد اهتم غالبية الخلفاء الفاطميين بأمور الجيش ففتحوا به بلاد الشام والحرمين، واليمن، وأسقطوا الخلافة العباسية، وفتحوا إفريقية .. وحاربوا الروم أيضاً وانتصروا عليهم أكثر من مرة مثل معركة حلب وكان جيش الفاطميين مكوناً من ثلاثين ألفاً.

(٩) الأسطول :

اهتم الفاطميون بالأسطول كما اهتموا بالجيش وبنوا أسطولاً كبيراً فى مصر يزيد على خمس وسبعين سفينة حربية كبيرة وعشر سفن مسطحه وعشر سفن حمالة وكان على قيادة هذا الأسطول أمير من أكبر الأمراء وأقواهم وكان هذا الأسطول مركز الصدارة بين أساطيل العالم الإسلامى .. بل إنه كان يتفوق على الأسطول البيزنطى.

ملامح مصر فى هذه الفترة تعد من الفترات بالغة السوء فى تاريخ بلدنا الحبيب، وإذا كان الضيق قد ألم بصدرك من أجل بلدك فى هذه الفترة .. فأنت على موعد معنا فى الجولة القادمة إن شاء الله والتى تمثل الجولة الحادية عشرة من تاريخ بلدنا الحبيب التى سوف تمسح الحزن عن صدرك الحساس لأننا سنبدأها بالتعرض لحكاية البطل "صلاح الدين الأيوبى " الذى ألغى دولة الفاطميين وكأنها لم تكن .. ونسخ عقيدتهم الفاسدة وأعاد الإسلام الصحيح إلى مصر بعد غربة للإسلام دامت أكثر من مائتى عام.

أولا : قيام الدولة الأيوبية

(٥٦٧-٦٤٨هـ) (١١٧١ - ١٢٥٠م)

أرسل الخليفة العاضد - آخر الخلفاء الفاطميين - إلى السلطان نور الدين محمود ، يستنجد به من الوزير شاور الذى أكثر الفساد فى البلاد والعباد .. وكان نور الدين وجميع أمراء دولته يعتقدون أن القضاء على الرافضة أعداء الإسلام من أهم واجباتهم، فأرسل السلطان نور الدين إليه جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه الأمير صلاح الدين الأيوبى فانتصر على جيوش الفرنجة وشاور، وقلد الخليفة العاضد الأمير أسد الدين أمور الوزارة مكان شاور .. ومات أسد الدين بعدما تولى شئون الوزارة قرابة شهرين ، واستخلف من بعده ابن أخيه صلاح الدين، وأقر الخليفة العاضد صلاح الدين على وزارة مصر ولقبه بالملك الناصر.. ولما كان السلطان نور الدين حريصا على إعادة الإسلام الصحيح إلى أرض مصر وأهلها، وتطهيرها من عقيدة الرافضة، أرسل إلى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة للفاطميين وإقامتها لبنى العباس .. وعندما قطع صلاح الدين الخطبة للعاضد وخطب للخليفة العباسى المستضىء ؛ انتهت دولة الفاطميين فى مصر، وانتهت معها سيادة عقيدة الرافضة بفسادها وفسقها، بعد أكثر من مائتى سنة، حكم فيه الفاطميون مصر .. وكانوا أكثر الخلفاء مالا وأخبثهم سيرة وسريرة، فقد أكثروا القتل فى المسلمين ، ولو أمكنهم قتل كل أهل السنة لفعلوا، وفى أيامهم كثر المفسدون وقل الصالحون وشقى العلماء وتنعم المبتدعون، حتى سماها البعض دولة الكفر.

انتهت دولة الفاطميين وقامت الدولة الأيوبية، نسبة إلى الأمير أيوب والد

صلاح الدين الأيوبى فتعال نتعرف على حكاية مصر فى العصر الأيوبى وعلى أهم السلاطين الأيوبيين ونتعرض لملامح مصر فى هذه الفترة.

صلاح الدين

هو يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان، الملقب بصلاح الدين ، ولد بتكريت من نواحى العراق سنة ٥٢٦ هجرية، ونشأ فى الدولة النورية فى ظل والده أيوب، وتنقل فى طفولته بين الموصل وبعلبك، وأخذ عن والده براعته فى السياسة وفنون الحرب، وتعلم علوم عصره، وثقف بثقافة أهل زمانه، وحفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه والحديث، ورأى فى طفولته وشبابه ما كان يعانيه المسلمون من فرقة ، ولمس أطماع أمم الغرب فى بلاد الإسلام وسعيهم إلى أطماعهم باسم الدين ظلماً وبهتاناً.

وترقى فى دولة نور الدين حتى عمل رئيسا لشرطة دمشق .. وقد مر بك لماذا جاء صلاح الدين إلى مصر؟ وكيف تقلد وزارتها ؟ وكيف أنهى دولة الفاطميين، وانفرد بسلطة مصر تابعاً للسلطان نور الدين محمود، وبعد هذه الأحداث بفترة قليلة مات العاضد، فأخرج صلاح الدين من قصوره الأموال الكثيرة، وأنفقها فى وجوه الخير، وأفاد منها العامة والأمراء ، وأرسل الهدايا للسلطان نور الدين محمود، وقد عف صلاح الدين فلم يأخذ لنفسه منها شيئا إلا هدية لزوجته.

وانفرد صلاح الدين بحكم مصر التى عرفته من أفضل الحكام، فقد جعل يصلح ما أفسده الفاطميون من أمور البلاد، وأسكن الفتنة بعد ما قبض على جماعة من الفاطميين حاولوا إثارة الفتنة، واتفقوا مع السودانيين، وأرسلوا إلى الفرنج الفرنسيين وقتلهم.

وأصلح نفوس الناس بعدله وحُسن سيرته فى حكمه، فكان يجلس كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام مع العلماء والقضاة، وإلى مجلسه هذا يصل الكبير والصغير، والنساء والرجال، فيعطى كل محتاج حاجته، ويكشف الظلم عن كل مظلوم .. لذا أسرع إليه الناس من كل ناحية، وقصده كل صاحب حاجة، ولم يرد أحداً خائباً، وفي الوقت الذى وضع فيه عنهم الضرائب .. جعل ينشر الإحسان، ويفيض النعم على الناس ويكثر العطاء للعامة والجنود والأمراء.

وقد زاد سيرته حسناً، وحكمه عدلاً، شدة تواضعه مع الناس، فحدث أن رجلاً ادعى عليه يوماً وشكاه إلى القاضى ، فتساوى صلاح الدين مع الرجل فى الجلوس، فى وجود القضاة الأمراء والشيوخ، وتبين أن الرجل مُدع وليس له بينة، وإنما دفعه إلى هذا حلم السلطان صلاح الدين، وما كان من صلاح الدين إلا أن أعطى الرجل مالاً وبغلة من ماله الخاص وأحسن إليه.

ومن تواضعه أنه تمدد يوماً على الأرض ليستريح، فدخل عليه أحد عماله بورقة لقضاء حاجة إنسان، ليوقع عليه السلطان، وداس العامل على كف السلطان دون أن ينتبه لذلك وأخذ يطلب من السلطان التوقيع على الورقة فما كان من صلاح الدين إلا أن قال باسماً :

- أوقع بيدى أم برجلى !!

فنظر العامل فرأى يد السلطان تحت رجله، فخجل خجلاً شديداً، وبينما كان الحاضرون يتعجبون من حلم السلطان كان السلطان يقول باسماً :

- هات الورقة لأوقع لك عليها ..!!

ولشدة تواضع صلاح الدين فى شخصه، وتواضع ملابسه، كان من

يجالسه لا يعلم أنه جالس مع سلطان، وكان صلاح الدين محباً للعلم العلماء، يقربهم إليه، ويحسن إليهم، وكانت مجالسه منزهة عن الهزل ، حافلة بأهل العلم مليئة بحديث العلماء، وكان إذا سمع عن شيخ عالم سمع منه وأسمع أولاده ومماليكه.

ومن حبه للقرآن وأهله أنه مر يوماً على صبي يقرأ على أبيه القرآن، فاستحسن السلطان قراءته ولبث يستمع للصبي ثم أعطاه هو ووالده مزرعة.

وعرفته مصر زاهداً لا يلبس إلا ما يحل لبسه؛ كالكتان والقطن والصوف.

ورأى مع كاتبه دواة محلاة بفضة، فأنكر عليه ذلك ونصحه بالزهد.

وتشهد مصر بتدينه، وحسن عقيدته، ومحافظته على ذكر الله، وعلى الصلاة في جماعة ، وما قطعها إلا ثلاثة أيام في مرضه الذي مات فيه.

وخلاصة القول : أن صلاح الدين أوتي من الأخلاق أحسنها ومن الصفات أفضلها، فملك قلوب الجميع، وأحب الجميع طاعته.

وظل صلاح الدين يحسن إلى أهل مصر كأجمل ما يكون الإحسان، ويعدل فيهم كأكمل ما يكون العدل.

وكان شهماً شجاعاً متديناً، يحب الجهاد في سبيل الله، ويدافع عن الناس والإسلام، لذا تصدى لفتنة السودانيين الذين خرجوا من صعيد مصر، قصدا القاهرة في مائة ألف مقاتل أسود بقيادة رجل يسمى الكنز ليعيدوا الدولة الفاطمية وعقيدة الرافضة، وبينهم وبين جيش صلاح الدين وقعت حرب هائلة وقتل من السودانيين قرابة ثمانين ألفاً وعاد الأيوبيون منتصرين إلى القاهرة.

ومن أجل المحافظة على الإسلام الصحيح أرسل صلاح الدين الأيوبى إلى اليمن جيشاً لمحاربة عبد النبى بن مهدى الذى قطع الخطبة لبنى العباس ، ليعيد عقيدة الرافضة الفاسدة فهزمه الجيش الأيوبى وقتله.

وفى سنة ٥٦٩ هجرية مات السلطان نور الدين تاركاً الأمر لابنه الصالح إسماعيل ، وكان الصالح صبياً لا يستطيع الاستقلال بالأمر، والنهوض بأعباء الحكم، فكثرت الفتن بالشام، وتدهورت أحوالها، وطمع الكثيرون فى عرش الصالح إسماعيل، ولما أيقن صلاح الدين أن كلمة المسلمين بالشام سوف تتفرق مما يؤدى إلى ضعف قوتهم، لا سيما وخطر الصليبيين الذين احتلوا بلاد الشام يتربص ببقية الدول الإسلامية، سار إلى الشام ليلم شمل المسلمين، ويقوى كلمتهم، واستطاع فتح غالبية بلاد الشام صلحاً، وقليلها عنوة، وبعدما مهد أمور البلاد جعل يوحد الكلمة، ويقوى الصفوف، ويلهب مشاعر المسلمين، ويحثهم على الدفاع عن الأرض والعرض والدين.

فكثيراً ما أفزع الصليبيون الغربيون المسلمين والنصارى العرب، وارتكبوا فى حقهم أفظع الجرائم .. ودمروا بلادهم ومقدساتهم من مساجد وكنائس.

وكان العرب على حال من الضعف، وكان الصليبيون يشنون حملتهم تحت راية الصليب، وباسم تطهير بيت المقدس، ولكنهم كانوا يأتو فى حملاتهم ما لا يرضاه دين ولا يقره عقل.

حتى قيض الله لهم صلاح الدين وجعل حُلمه العظيم فى تحرير بلاد المسلمين من الصليبيين.

وسعى صلاح الدين نحو تحقيق حُلمه، وحُلم المسلمين فزحف بجيوشه

إلى مدن وحصون الصليبيين، ولأنه كان يسعى نحو مرضاة الله، فقد أعطاه الله ما يريد، وأعانه على هزيمة الصليبيين هزائم ثقيلة وتلقيتهم دروساً لن ينساها تاريخهم.

فقد ظل صلاح الدين فى حركة دائبة من أذربيجان شمالاً إلى البحر الأحمر جنوباً، وأمن جبهاته، ووحدها وأعد عدته، وخطط للهدف الأكبر تحرير المسجد الأقصى، ولتحقيق هذا الهدف كان لابد من وقوع معركة حطين التى تعتبر من أشهر معارك التاريخ.

الناصر صلاح الدين ومعركة حطين

تقدم صلاح الدين نحو هدفه.. وعلم الصليبيون بقدومه - فتصالحوا فيما بينهم .. واجتمعوا فى جيش قوامه ثلاثة وستون ألفاً بقيادة ملوكهم وأمرائهم .. وكان جيش صلاح الدين لا يزيد عن اثنى عشر ألفاً وصحبه بعض المتطوعين وبتخيط محكم كان يتجنب الصدام بهم حتى استدرجهم إلى جبل حطين ثم تقدم صلاح الدين واستولى على بحيرة طبرية بسرعة ومنع ماءها عن الصليبيين، حتى استبد بهم العطش، وعلى سهل حطين الجبلى .. وفى الثالث من يوليو ١١٨٧م - الخامس والعشرين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ التقى الفريقان .. ودقت الحرب طبولها.. وعلت أصوات السيوف وحمل المسلمون على الصليبيين، وكثرت مواقفهم البطولية .. وانتهى اليوم الأول، ومع بزوغ شمس اليوم التالى عادت الحرب إلى سيرتها .. وبينما كان صلاح الدين يتابع باهتمام سير المعركة .. ويحرص على إلهاب مشاعر جنده.. لمح تحت سنابك خيول العدو مساحات واسعة من الحشيش الجاف .. فألهمه الله بفكرة جعلت جيش المسلمين يخطو

سريعاً نحو النصر فقد أمر بعض الجنود بسكب النفط على الحشيش وإشعال النيران فيه فاجتمع على الصليبيين حر العطش وحر النار .. وجعلوا يفرون من المعركة وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى قتلوا منهم نحو ثلاثين ألفاً .. وأسروا مثلهم، ولم يبق من الصليبيين إلا القليل، ففروا إلى بلادهم بين مخذول وجريح وهكذا .. أفنى صلاح الدين جموعهم وانتقم للمسلمين ونصارى العرب.

وبعد المعركة صلى صلاح الدين لله صلاة الشكر على نعمة النصر، ثم جلس على كرسيه على هيئة الملوك العظام.. وفي ذل وصغار سيقت إليه جموع الأسرى بينهم الملوك والأمراء .. وكان من عادته ـ رحمه الله ـ العفو وقبول الفداء فعل ذلك .. ولم يقتل إلا أرناط رجنلد أمير قلعة الكرك الذي تطاول على الرسول ﷺ .. وكان يشيع أنه سينقل جثمان النبى إلى الكرك ، ويجبر الحجاج المسلمين على دفع رسوم هائلة .. وكان صلاح الدين قد عاهد الله على قتله إن ظفر به .. ودعاه صلاح الدين إلى الإسلام فرفض .. فقتله وهو يقول :

ـ ها أنا ذا انتصر لمحمد ﷺ .

ثم فتح صلاح الدين بعد ذلك نحو خمسين بلداً كبيرة غير البلاد الصغيرة مثل طبرية، وعكا، والأردن، وصور، وغزة، وعسقلان، ونابلس، وبيسان، ثم سار نحو القدس التى صارت من أقوى حصون الفرنسيين فقد هرب إليها كل من نجا من المعارك، أو أفلت من الحصار أو خرج من البلاد التى فُتحت . وحرر صلاح الدين القدس بعدما حاصرهم وضربهم بالمنجنيق وقاتلهم قتالاً شديداً.. ثم سجد لله شكراً .. وأقيمت ببيت المقدس أول جمعة بعدما احتله الصليبيون نحو تسعين عاماً.

وكفى صلاح الدين فخرا أن يقول المؤرخ الأوربى النصرانى فميرتون معلقاً على موقعة حطين :

- (إنها وضعت سلطة الحياة والموت فى يد صلاح الدين، ولكنه استعمل هذه السلطة فى أضيق حدوده، وظهر الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للفرنجة ومعاملة الفرنجة للمسلمين التى حدثت قبل ذلك بثمان وثمانين سنة، الموقف الصارم الوحيد الذى وقفه صلاح الدين كان مع رجنلد الذى يصفه المؤرخون بأنه كان مغامراً أهوج، حتى لقد أنزل قواته مرة على أرض الحجاز المقدسة، وشاع أنه ينوى نقل جثمان محمد ﷺ إلى الكرك، وأن يفرض على حجاج المسلمين رسوماً فادحة، ولم يصده عن هذا إلا فرقة مصرية نقلت إلى هناك على جناح السرعة فى أسطول جهز بعجلة).

وكفى صلاح الدين فخراً أن يصفه نفس المؤرخ قائلا :

- (أكبر حادث فى تاريخ الحروب الصليبية، هو ظهور صلاح الدين الأيوبى ، وبينما كان المعسكر الإسلامى يقوى بهذا البطل، كان المعسكر المسيحى ينهار.. المعسكر الإسلامى حصل فى هذه الأثناء على مكانة حققها له القائد الجديد الذى كان أعظم شخصية عرفها عصر الحروب الصليبية ليس فقط فى بطولته الحربية، بل فى صفاته الشخصية التى تضعه فى القمة بين العظماء والمصلحين، لقد كان صلاح الدين يعرف أهدافه الحربية ويجيد التخطيط لها، وكان من رعاة العلوم والمعارف، وكان مثالاً طيباً فى الوفاء بالوعد والشهامة والكرم، وعلى النقيض من كفاءته ومن صفاته، كان يتسم معاصروه من حكام الولايات اللاتينية، الذين كانوا همجاً وبرابرة).

وظل صلاح الدين أكثر من أربعة عشر عاماً فى حرب مع الصليبيين الذين تكالبوا عليه من غالبية أوربا وهو يدفعهم عن بلاد المسلمين ويمنعهم منها .. حتى تعب جنود المسلمين وسئموا الحرب .. وتشهد وقعة أرسوف لصلاح الدين بشجاعة منقطعة النظير ففى بداية المعركة حمل الصليبيون على المسلمين ففر المسلمون ولم يبق مع صلاح الدين سوى سبعة عشر مقاتلاً .. فثبت وصبر .. وعندما رأى المسلمون سلطانهم على هذه الحالة .. رجعوا إلى القتال بشدة فكان النصر للمسلمين.

وفى عام ٥٨٨ هـ مات صلاح الدين بعدما اشتد عليه مرض الحمى .. مات صلاح الدين بعدما عمر سنوات حكمه بالعدل، وجاهد في سبيل الله أروع جهاد .. وأبلى من أجل دينه أعظم بلاء .. وبذل فى سبيل ذلك كل راحته.

ـ والحق أنه لم يمت فقد وضع اسمه فى طليعة الأبطال الذين أثنى عليهم التاريخ، وطار ذكره فى الشرق والغرب، ولا زلنا نحن المسلمين إلى اليوم نتغنى ببطوته ونفخر بسيرته.

* رحمك الله يا صلاح الدين وجزاك خير الجزاء عما فعلته من أجل الإسلام والمسلمين ، وعما بذلت فى سبيل ذلك من جهدك وراحتك.. ولتعلم يا صلاح الدين أن القدس جريح ينزف ولا زال ينتظر شهامتك.

* وجدير بالذكر أن صلاح الدين ترك الدنيا ولم يترك ملكا ولا بستاناً ولا مزرعة، ولم يترك فى خزائنه إلا نحو خمسين درهما ناصرياً، وترك من الأبناء نحو سبعة عشر ابنا وبنتا واحدة.

* وتفرقت مملكة صلاح الدين بين أبنائه.. كما فرقها هو عليهم قبل موته

.. وكانت الحبيبة مصر من نصيب ابنه الملك العزيز عثمان الذى تسلطن على مصر فى سنة ٥٨٩ هجرية وجعل يصلح أمور مصر ويسير فى المصريين سير الحكام العادلين .. يرفق بهم، ويحنو عليهم، ويعف عن أموالهم، ويجود بالكثير من أمواله، وعرفته مصر محباً للعلماء ، مستمعاً للعلم والحديث، وتوفى فى المحرم من سنة ٥٩٥ هجرية بعدما حكم مصر نحو ست سنوات ، ومات وعمره ثمانية وعشرون عاماً ، بعدما أوصى لابنه المنصور بسلطنة مصر .. ولم تطل أيام المنصور على مصر، فقد خلعه عمه الملك العادل لمصلحة البلاد، فقد كان المنصور صبياً وفى أيامه القليلة عانت مصر من الصراع على حكمها كما عانت من الغلاء بسبب نقص مياه النيل وجعل العادل يعالج أمور مصر.

٢- الملك العادل

هو محمد بن أيوب بن شادى .. ولد ببعلبك سنة ٥٣٤ هجرية .. وكان أصغر من أخيه صلاح الدين بعامين .. وخاض معه الحروب والفتوحات وكان صلاح الدين يعتمد عليه كثيراً لحسن رأيه .. وكان يجعله على مصر عندما يخرج للحرب والجهاد.. وتنقل فى الممالك فى حياة صلاح الدين وبعد وفاته وفى عام ٥٩٦ هجرية خلع المنصور حفيد أخيه صلاح الدين عن مصر لمصلحتها وملكها بدلا منه .. وفى بداية حكمه كانت مصر تعانى من الفتن والغلاء .. فأسكن الفتن ومهد أمور مصر .. وفعل في الغلاء ما لم يفعله غيره .. فكان يخرج بنفسه ليلاً ليوزع الأموال والطعام على الفقراء والمحتاجين .. ومات فى هذا الغلاء خلق كثير فكفن من ماله الخاص ثلاثمائة ألف إنسان.

كما ملك الشام واليمن والحرمين .. ولما استقرت له البلاد وتمهدت أمورها قسمها بين أولاده فجاءت مصر من نصيب ابنه محمد الملقب بالملك الكامل

ليحكمه نيابة عنه .. وظل العادل يتردد بين أولاده، وينتقل بين مماليكه .. وكان ملكاً عظيماً محمود السيرة، ذا عقل ورأى يمتاز بالحلم والعدل، وحسن التدبير، وكثرة الصلاة والصدقات، وكان من عادته كلما ألم به مرض أكثر من الصدقات عملا بقول النبى ﷺ «داووا مرضاكم بالصدقة».

وتشهد له مصر بتطيهرها من الخمور والقمار والمظالم .. وقد حدد لابنه الكامل الأسلوب الصحيح الذى يحكم به مصر وكان العادل مجاهداً فى سبيل الله .. لذا .. عندما بلغه إغارة الفرنسيين على الشام خرج إليهم بجيوش مصر لنجدة ملك حمص، وعندما علم ملك عكا بقدومه طلب منه الصلح، وسار العادل حتى بلغ بحيرة حمص وغزا طرابلس وأخذ حصناً من أعمالها.

وفى عام ٦٠٩ هجرية أغار الفرنسيون على دمياط فجمع العادل أولاده لقتالهم وصدهم عن دمياط.

* وفى أيامه حدث زلزال شديد فى الصعيد مات على أثره خلق كثير .. وفى جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ توفى الملك العادل ودفن بدمشق تاركاً عرش مصر لابنه الملك الكامل

٣- الملك الكامل

هو محمد بن الكامل بن أيوب بن مروان بن شادى ، ولد سنة ٥٧٣ هـ وتولى التصرف فى شئون مصر فى حياة أبيه، وانفرد بها بعد موته فى عام ٦١٥ هجرية، فكان على مصر أربعين سنة .. عشرين تحت اسم والده وعشرين منفرداً باسمه.

وفى بداية سلطنته على مصر هجم الفرنسيون على دمياط سنة ٦١٦ هجرية .. وبينما كان الكامل يحشد قواته ويستعد لحربهم حاصر الفرنسيون دمياط وقتلوا كل من ظفروا به .. وصفوا رؤوس القتلى ، وبسبب الحصار حدثت بدمياط مجاعة شديدة، حتى أكل أهلها الميتة، وراسلوا الفرنسيين يطلبون الأمان على أنفسهم وأموالهم مقابل فتح البلد لهم .. فوافق الفرنسيون على ذلك غير أنهم لم يفوا بعهدهم فجعلوا يقتلون الرجال وينتهكون أعراض النساء والبنات .. ويخربون المساجد، وبكى الكامل بشدة على ما حدث لدمياط وأهلها .. وطلب النجدة من إخوته، وعمل على استنفار المسلمين وألهب مشاعرهم ..

فأجاب المسلمون بالسمع والطاعة وسار الجميع إلى مصر .. وبينما كان الصليبيون يسيرون تجاه المنصورة فى نحو مائتى وعشرة آلاف .. أرسل إليهم الملك الكامل يعرض عليهم الصلح ويعطيهم غالبية البلاد التى فتحها صلاح الدين .. فرفضوا لعلمهم بضعف حال المصريين وقتذاك وطمعاً فى الاستيلاء على مصر.

* وإذا كانت الحملات الصليبية .. كانت تأتى تحت راية الصليب، وشعار تطهير بيت المقدس - كما يقولون - فلماذا قاموا بغزو مصر وطمعوا فى الاستيلاء عليها ؟!

أجل .. رفضوا معاهدة الملك الكامل .. والحمد لله على رفضهم .. فقد وصلت إلى مصر جموع من المسلمين .. والتقى الفريقان .. وأعان الله المسلمين بزيادة ماء النيل زيادة هائلة .. استخدمه المسلمون فى إغراق الأرض تحت أرجل الفرنسيين .. وأحاط بهم المسلمون .. ودار قتال شديد واستطاع المسلمون قتل عشرة آلاف فرنسى.

ووصل أسطول الفرنسيين محملاً بالطعام والسلاح فقاتله أسطول المسلمين وهزمه، واستولى على جميع مراكبه بما عليها .. ومنع وصول الطعام والسلاح إلي الفرنسيين .. وأشرف الفرنسيون على الهلاك .. واستبد بهم الندم على رفضهم المعاهدة .. وأرسلوا إلى الملك الكامل يطلبون الصلح والأمان مقابل رحيلهم عن مصر ويسلمون له دمياط دون مقابل .. ورغم بشاعة أفعالهم بدمياط وأهلها، فقد أجابهم الملك الكامل إلى ذلك.

وعندما استراح الكامل من خطر العدو .. تفرغ لإصلاح حال مصر والمصريين وعرفته مصر شجاعاً، ذكياً ، محباً للعلم ، سائلا للعلماء يأخذ برأيهم ويعمل بكلامهم، صحيح الإسلام ، متمسكاً بالسنة، شديد العدل .. حتى إن أحد العامة كان يعمل ركبدار لأحد الأمراء .. ولم يعطه الأمير أجرة ستة أشهر .. فحمل الرجل شكواه إلي الكامل .. فانزل الأمير من فوق فرسه وألبسه ثياب الرجل .. وألبس الرجل ثياب الأمير وأمره بركوب الفرس .. وأمر الأمير بحمل نعله وخدمة الرجل ستة أشهر .. حتى شفع فيه الأمراء .

وأكثر الكامل من عمارة مصر .. وفى أيامه أمنت مصر واستراحت بل استراحت جميع ممالكه وأمنت جميع الطرق.

* ولما مات أخوه الملك المعظم خرج بالمصريين وضم دمشق إلى نفوذه.

وفى سنة ٦٣٥ هجرية مات الكامل بدمشق ودفن بقلعتها .. وتبعه على سلطنة مصر ابنه الملقب بالعادل الصغير .. فحدثت بينه وبين أخيه الملك الصالح نجم الدين فتن كثيرة .. ولما كانت المصلحة فى خلع العادل لخفته وصغر سنه خلعه أخوه الصالح نجم الدين وملك مصر.

(٤) الملك الصالح نجم الدين أيوب

هو أيوب بن الكامل بن العادل بن الأمير نجم الدين الأيوبى .. ولد بالقاهرة سنة ٦٠٣ هجرية ونشأ بها .. خلع أخاه العادل الصغير عن مصر وملكها فى سنة ٦٣٧ هجرية .. وجعل يصلح أمور مصر .. ويمهد قواعدها .. ويكثر من عمارتها فقد كان شغوفاً بإنشاء الأبنية العظيمة الفاخرة .

وعرفته مصر .. كثير العلم ، محباً لأهل الفضل والدين .. مهيباً، قوياً لا يحب الهزل ولا يفضل العبث .. شديد الوقار، كثير الصمت .. فصيحاً، عفيف اللسان، ولكن يؤخذ عليه كثرة عزلته عن الرعية .. وكثرة شرائه للمماليك الترك حتى صاروا معظم جيشه .. وكان يخصهم بالتعليم والتدريب والمساكن الخاصة .. ويرجحهم على الأكراد الأيوبيين والمصريين وجعل منهم الأمراء وأغدق عليهم الأموال .. وما أقدم على ذلك إلا لتكوين جيش قوى كبير .. حتى استفحل أمر هؤلاء المماليك وعانى المصرين من ظلمهم.

* وحدثت حروب كثيرة بين الصالح نجم الدين وعمه الصالح إسماعيل ملك دمشق بسبب وجود الملك المغيث عمر بن الصالح نجم الدين فى سجن الصالح إسماعيل .. ولطمع الصالح إسماعيل فى ملك مصر .. لدرجة أنه استعان بالفرنسيين لتحقيق أطماعه فى مصر ووعدهم بإعطائهم جزءا من مصر إذا ملكها من ابن أخيه ولكن النصر كان دائما من نصيب ملك مصر ولم يستطع سلطان دمشق والفرنسيون أخذ مصر .. بل إن الصالح نجم الدين أرسل الجيش المصرى فانتزع دمشق من الصالح إسماعيل.

* وفى سنة ٦٤٧ هجرية /١٢٤٨ ميلادية .. جاء الفرنسيون إلى مصر

بقيادة لويس التاسع، أعظم ملوك الفرنسيين وأشدهم .. وكان السلطان نجم الدين مريضاً .. فأرسل جيش مصر للقائهم .. وفى البداية تقهقر جيش مصر .. ودخل الفرنسيون دمياط ونهبوها .. فحزن نجم الدين حزناً شديداً .. وخرج بنفسه للحرب. وعسكر بجيشه فى المنصورة .. ولكن المرض اشتد عليه فمات فى شعبان سنة ٦٤٧هجرية /١٢٤٩ ميلادة بعدما حكم مصر نحو عشر سنوات .. وكانت زوجته شجرة الدر ذات عقل ورأى .. فأخفت خبر موته كيلا يضر خبره الجيش المصرى ويفيد الفرنسيين ، وجعلت توقع على الأوراق والمنشورات بمثل خطه .. وتدبر الأمور حتى وصل إلى مصر الملك المعظم توران شاه ابن الصالح نجم الدين الذى أقامته هى والأمراء سلطاناً على مصر بعد موت أبيه.

وطال القتال بين الفريقين وخرج المتطوعون المصريون يساندون الجيش .. وبالرغم من كثرة عدد جيش الفرنسيين الذى وصل إلي مائة وخمسين ألفا .. إلا أن المصريين كانوا يعبرون إليهم ليلاً ويكثرون فيهم القتل والأسر .. وانكسر الفرنسيون ، وألم بهم الضعف ، وقل معهم الطعام ففروا إلى قرية أبى عبد الله يتحصنون بها دون أن تُغنى عنهم كثرتهم شيئاً .. وظفر الأسطول المصرى بالأسطول الفرنسى وأسر كل مراكبه بمن عليها، وبينما كان الفرنسيون يلوذون بالفرار كان جيش مصر يحمل عليهم ويكثر القتل والأسر فيهم حتى قتل منهم أكثر من ثلاثين ألفاً وأسر مثلهم .. ولم يقتل من جيش مصر سوى مائة نفس.

ولما أيقن ملك فرنسا المغرور بالهلاك .. أرسل فى ذل يطلب الأمان فأسره المصريون ومعه أكثر من خمسين أميراً.. وحبسوه بدار القاضى ابن لقمان بالمنصورة حتى افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال .. وخرج من المنصورة إلى دمياط حاملاً الحسرة والمهانة والندم .. وسط تكبير المسلمين وفرحتهم بالنصر.

ونظر الملك المعظم توران شاه فى أمر الأسرى فأبقى على الحرفيين والصناع لتستفيد بهم مصر وضرب رقاب الآخرين.

وبعد المعركة بدت خفة توران شاه وظهر سوء خلقه .. فأقدم المماليك على قتله .. ولا سيما الأمير اقطاى والأمير بيبرس وكانت مدة سلطنته على مصر أقل من شهر. وأقاموا مكانه .. السلطانة شجرة الدر.

(٥) السلطانة شجرة الدر

هى : شجرة الدر بنت عبد الله .. أرمينية الأصل .. كانت جارية للخليفة العباسى المستعصم ووهبها للصالح نجم الدين أيوب .. ولما أضحت عند نجم الدين ذات مكانة تزوجها ورفعها جواره على عرش مصر .. وكان يعتمد عليها كثيراً فى أموره المهمة وكانت صاحبة رأى فى أمور الدولة فى حياته وبعد وفاته.

واتفق الأمراء على تو ليتها سلطنة مصر بعد مقتل توران شاه .. لحس سيرتها، ووفرة عقلها، وحس تدبيرها، وحزمها فى معالجة الأمور . ومال الأمراء إلى توليتها أيضاً لأنها كانت مملوكة مثلهم .. ولطمع كبار الأمراء فى زواجها والفوز بالسلطنة على مصر.

ولما ضاق الناس من سلطنة امرأة عليهم .. ورفض الفقهاء ذلك.

ولما أبدى الخليفة العباسى الاستياء من هذا الوضع وأرسل إلى الأمراء يسأل متهكماً

- إن كانت الرجال قد عدمت من عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً.

تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك التركمانى وخلعت نفسها له بعدما تولت سلطنة مصر نحو ثمانين يوماً منفردة باسمها.

ولكن أيبك كان سلطاناً بالاسم فقط .. وكانت هى صاحبة الأمر كله.. واستعظم بعض أمراء المماليك سلطنة أيبك على مصر فاجتمعوا على إقامة واحد من البيت الأيوبى . فاقاموا مع أيبك الأشرف الأيوبى وهو صبى وقتذاك .. فكانت المراسيم والمنشورات تخرج باسم الملكين (الأشرف والمعز).

وكانت شجرة الدر قوية شديدة الغيرة .. وعندما علمت بأن أيبك ينوى الزواج من بنت ملك الموصل .. أيقنت أنه سئم تحكمها فيه وينوى إبعادها .. فاقدمت فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هجرية على أمر الخدم بقتله فخنقوه في الحمام.. وعلم المماليك بالخبر فحدث اضطراب شديد وتجمعوا حول القصر .. حتى جعل الأمراء الملك المنصور على بن أيبك مكان أبيه وعمره نحو خمسة عشر سنة .. فسكن المماليك وتفرقوا فى يومهم.

ثم أجمع مماليك السلطان المعز أيبك على قتل شجرة الدر .. ولكن بعض الأمراء ساعدها على الخروج من القصر إلى قلعة البرج الأحمر .. فحبست بها مع بعض جواريها .. وقتل الأمراء الخدم الذين قتلوا المعز.

وظل المنصور على بن المعز ووالدته يحرضون مماليك المعز على قتل شجرة الدر حتى وجدت مقتولة خارج القلعة فحملت ، ودُفنت بالقبر الذى بنته لنفسها. وكانت شجرة الدر أول وآخر امرأة جلست على عرش مصر بعد الإسلام .. وكانت فترة حكمها حداً فاصلاً بين مرحلتين من مراحل تاريخ مصر .. فكانت فترة ولايتها آخر عهد الدولة الأيوبية، وأول عهد المماليك.

وبموت الصالح نجم الدين أيوب .. وتولى شجرة الدر .. ثم تولى المملوك عز الدين أيبك .. الدولة الأيوبية.. دولة صلاح الدين الأيوبى بعدما تربعت على عرش مصر نحو اثنين وثمانين عاماً ..

ثالثا : ملامح مصر فى الدولة الأيوبية

(١) العقيدة السائدة :

كانت مصر فى الدولة الفاطمية التى سبقت الدولة الأيوبية تخضع لعقيدة الرافضة الفاسدة تابعة فى ذلك لعقيدة الخلفاء الفاطميين.

ومع بداية الدولة الأيوبية أعاد السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى مصر العقيدة الإسلامية السليمة .. حيث أعاد السنة الصحيحة إلى مصر وسعد المصريون كثيراً بذلك .. قد كانوا ولا زالوا سنيين صحاح العقيدة، ومما يحمد لصلاح الدين أنه جعل الأزهر الذى بناه الفاطميون لنشر المذهب الشيعى بمصر، قلعة وقبلة لطلاب العلم من كل مكان، وجعله ينشر المذهب السنى بدلا من المذهب الشيعى.

(٢) الناحية الاقتصادية:

حرص الأيوبيون على تحسين الناحية الاقتصادية لمصر ـ فحافظوا على الزراعة، والصناعة ، والتجارة، ولم تحدث فى أيامهم المجاعات الكثيرة كما حدثت فى أيام الفاطميين .. وحدثت مجاعة واحدة فى بداية حكم السلطان العادل بن أيوب بسبب نقص مياه النيل وليس بسبب الفتن والحروب كما حدث فى أيام الفاطميين.. وقد بذل الملك العادل قصارى جهده للتغلب على هذه المجاعة .. حتى جاد النيل بمائه فانتهت هذه المجاعة بفضل الله .

(٣) العا صمة :

كانت القاهرة عاصمة غالبية الأيوبيين. إن لم تكن عاصمة جميعهم وكان

بعضهم يتنقل بينها وبين البلاد الأخرى مثل المنصورة التى كان ينتقل إليها السلطان الكامل وابنه الصالح نجم الدين أيوب.

(٤) الناحية العلمية :

عندما ملك صلاح الدين مصر وجد مكتبتين عظيمتين للفاطميين .. فأمر بانتقاء الكتب الصحيحة منها وإعطائها للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى لتكوين مكتبة ينتفع بها المسلمون والمصريون .. كما أمر بالتخلص من كتب الشيعة والرافضة ـ وقد عمل بعض الملوك الأيوبيين مثل الملك الكامل على إنشاء مكتبة كبيرة فى المدرسة الكاملية بالقاهرة وولى أمرها أحد العلماء كما أنشأ الأيوبيون الكثير من المدارس الدينية والعلمية ولا سيما السلطان صلاح الدين والملك الكامل.

(٥) العمارة :

بالرغم من كثرة الحروب فى العصر الأيوبى .. وقصر مدته .. إلا أنه كان حافلا بالمنشآت المعمارية، فقد بنى الأيوبيون الكثير من المدارس مثل :

- المدرسة الشافعية .. والمدرسة المالكية وقد أنشأهما السلطان صلاح الدين الأيوبى ومكانهما اليوم أرض فضاء بجوار جامع عمرو بن العاص .. كما بنى مدرسة للحنفية بالقاهرة.

- المدرسة الكاملية .. أنشأها الملك الكامل وتميزت بأنها كانت ثانى مدرسة للحديث بعد المدرسة التى أنشأها نور الدين محمود بدمشق .. كما بنى بها الملك الكامل سكنا للطلبة والمدرسين .. وتعرف اليوم بجامع الكامل بشارع بين القصرين بالقاهرة بجوار جامع السلطان برقوق.

- المدرسة الصالحية .. أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب.

كما أنشأ الأيوبيون القلاع للدفاع عن الدولة والهجوم على العدو مثل :

قلعة الجبل بالقاهرة : أنشأها السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٢ هجرية ولازالت موجودة إلى اليوم بأسوارها العالية على مكان مرتفع منفصل من جبل المقطم .. كما أنشأ صلاح الدين قلعة المقس .. وقلعة سيناء جنوب طابا وكات عبارة عن عدة تحصينات كل منها عبارة عن قلعة مستقلة.

- أنشأ الصالح نجم الدين قلعة الروضة.

- انشأ صلاح الدين البيمارستان (المستشفى) سنة ٥٧٧ هجرية.

- مدينة المنصورة أنشأها الملك الكامل سنة ٦١٦ هجرية .. وأصبحت المنصورة بعد ذلك من أكبر وأجمل مدن مصر وبها الكثير من المساجد والفنادق والأسواق كما أنشأ الملك الكامل القبة المرتفعة والتى تقوم إلى اليوم فوق قبر الإمام الشافعي[1] ويوجد فوق هذه القبة من الخارج مركب صغير من النحاس يسع قدر نصف أردب حب.

- كما أنشأ الأيوبيون الكثير من القصور مثل :

- قصر الكامل بالمنصورة.

والكثير من المساجد مثل :

- جامع الملك الصالح نجم الدين.

كما بنى الأيوبيون الكثير من الدور والقصور والحمامات والأسواق.

---

(١) إقامة القباب على القبور محرمة فى الإسلام حتى لا يُعبد القبر أو صاحب القبر وهذا من عمل الشيعة .

(٦) الجيش :

حرص الأيوبيون على تكوين جيش قوى .. وقد خرج صلاح الدين إلى فتوحات الشام بجيش من مصر قوامه أكثر من اثنى عشر ألف مقاتل وعرفت الدولة الأيوبية بكثرة الحروب وبكثرة الانتصارات .. ولم يضعف جيش مصر عن حمايتها.

واشترى الأيوبيون أعداداً هائلة من المماليك لتجنيدهم وتقوية الجيش بهم ولا سيما السلطان الصالح نجم الدين وبنى لهم المساكن الخاصة بهم.

(٧) الأسطول :

كانت مصر تمتلك أسطولاً قوياً فى عهد الأيوبيين وتتضح قوة الأسطول المصرى من هزيمته لأسطول الفرنسيين وأسر مراكبه فى المعركة التى وقعت بين الكامل والفرنسيين سنة ٦١٧ هجرية وفى حملة لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٧ هجرية .. ظفر الأسطول المصرى بالأسطول الفرنسى وغنم جميع مراكبه وما عليها. وكان للأسطول المصرى دوره فى فتوحات صلاح الدين لسواحل الشام.

(٨) العملة :

كانت عملة مصر قبل فتح الأيوبيين لها بأسماء الفاطميين .. وضرب غالبية السلاطين الأيوبيين العملة بأسمائهم مثل الدراهم والدنانير الناصرية نسبة إلى الناصر صلاح الدين الأيوبى.

وجدير بالذكر أيضا أن شجرة الدر نقشت الدراهم والدنانير باسمها بعد انقضاء الدولة الأيوبية.

دولة المماليك

أولا : أصل المماليك وأقسامهم

بانتهاء الدولة الأيوبية عندما جلس على عرش مصر المملوك عز الدين أيبك التركمانى .. وبجلوس أيبك على عرش مصر بدأت حكاية المماليك معها.

أصل المماليك :

المماليك طائفة من العبيد اشتراهم الأيوبيون من شبه جزيرة القرن وبلاد القوقاز والقفجاق وأسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والأكراد.. وذلك نتيجة لكثرة الحروب فى هذه البلاد.

أى أنهم كانوا من الأسرى والسبى لهذه الحروب وتم بيعهم في أسواق العبيد وقد أحسن الأيوبيون تعليمهم وتدريبهم على القتال وحمل السلاح .. وكان باب الترقى مفتوحاً فى الدولة الأيوبية لكل مملوك يثبت كفاءته فيترقى من مملوك بسيط إلى أمير حتى وصل المماليك إلى الحكم .. وبالرغم من أن المماليك يرجعون إلى أصول أجنبية إلا أنهم أصبحوا جزءا من مصر وتاريخها الإسلامى لأن مصر الإسلامية نجحت فى استيعابهم وتشكيلهم .. فعندما كان أحد السلاطين يشترى عدداً من المماليك كان يقوم بإرسالهم للأطباء لفحصهم .. ثم ينزلهم بيوتا مخصصة لهم يطلق عليها (الطباق) وكان يخصص لكل بيت فقيه يعلمهم القرآن والفقه وأحكام الدين وبعد أن يكبر المملوك يتعلم فنون الحرب وركوب الخيل.

ومن أهم الروابط التى كانت تربط بينهم :

رابطة الأستاذية : أى الرابطة التى تربط المملوك بسيده الذى اشتراه وتعهده بالتربية والرعاية وأعتقه حين تعلم وكبر.

رابطة الخشداشية : أى رابطة الزمالة التى تربط بين المماليك الذين يتساوون فى المستوى وينتمون إلى أستاذ واحد وكان المماليك ينقسمون إلى قسمين :

* المماليك البحرية : وسبب تسميتهم بهذا الاسم أن الأيوبيين شيدوا لهم ثكنات بجزيرة الروضة عام (٦٣٨هـ) والتى يحيط بها النيل وقد بنى لهم الصالح نجم الدين الأيوبى هذه الثكنات بعدما زاد عددهم وكثرت مضايقاتهم للمصريين حتى ضجوا منهم.. وقد حكم المماليك البحرية مصر ١٤٤ سنة وتمثلت هذه المدة فى حكم ٢٩ سلطاناً.

* المماليك الجراكسة (البرجية) : وسبب تسميتهم بالبرجية أنهم سكنوا أبراج قلعة الجبل .. وبالجراكسة نسبة إلى بلاد الجراكسة موطنهم الأصلى.

ثانيا : أهم سلاطين دولة المماليك

(١) المعز أيبك التركمانى

هو السلطان عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحى الملقب بالملك المعز .. أول سلاطين المماليك على مصر .. تسلطن على مصر فى عام (٦٤٨ هـ) عندما اعترض الخليفة العباسى والعلماء المصريون وعامة المصريين على جلوس امرأة (شجرة الدر) على عرش مصر وربما تم اختيار المماليك له لعلمه بشئون قصر

السلطنة بسبب ملازمته للصالح نجم الدين وربما وافقت شجرة الدر على الزواج منه والتنازل له عن العرش لعلمها بحلمه وأنها ستكون صاحبة الأمر.

ولما كان المماليك فى مصر طائفتين (البحرية والبرجية) وكان أيبك ينتمى للمماليك البحرية .. اعترض أمراء المماليك البرجية وجعلوا لاعتراضهم صفة الشرعية بقولهم (نريد سلطاناً من البيت الأيوبى) واتفقوا على تولية موسى بن ناصر الأيوبى وكان صبياً ولقبوه بالملك الأشرف وأشركوه مع أيبك فى الأمر وكانت المراسيم والمنشورات السلطانية تخرج باسم (الأشرف والمعز) .. وكان سلطنة أيبك على مصر ردود أفعال سيئة فى نفوس المصريين .. فكيف تمر الأيام بالمملوك أيبك الذى اشتراه الصالح نجم الدين الأيوبى وكان فى خدمته وكل عمله تذوق طعام السلطان قبلما يأكل خوفًا على السلطان من السم ،

كما كان لسلطنته على مصر نفس ردود الأفعال على البيت الأيوبى .. لذا خرج الملك الناصر الأيوبى سلطان الشام وحلب ليضم مصر إلى نفوذه ويعيدها لحظيرة السلطنة الأيوبية فى سنة (٦٤٨ هـ) .. وبقدر ما ساء هذا الأمر أيبك والمماليك .. بقدر ما أسعد المصريين وخطب المصريون للناصر الأيوبى على بعض منابر القاهرة، ولكن نتيجة الحرب خيبت ظنون المصريين .. فقد عاد المماليك إلى مصر يدفعون أمامهم غنائم النصر وآب الناصر الأيوبى إلى الشام يجر وراءه أذيال الهزيمة..

وكان لفرح المصريين بالناصر الأيوبى وخطبتهم له على المنابر ردود أفعال بالغة السوء فى نفوس المماليك .. فعندما عاد أيبك والمماليك البحرية إلى القاهرة .. مالوا على المصريين قتلاً، ونهباً ، وسبيًا للنساء (وفعلوا بهم ما فعله الفرنجة

بالمسلمين) وخربوا دمياط وجزيرة الروضة .. فشاع الظلم وكثر مصادرة الأموال وفرضت الضرائب التى سماها المعز الحقوق السلطانية.

وما لبثت مصر أن رأت أمر أيبك يتعاظم وقواعد سلطنة تثبت بسبب نصره على الناصر .. وسعت الرسل بين أيبك والناصر حتى اتفقا على أن يترك أيبك للناصر البلاد الشامية الواقعة تحت نفوذ مصر فتكون الشام كلها للناصر الأيوبى وتكون مصر للمعز أيبك .. وكى يحافظ أيبك على ثبات أمره قتل الأمير فارس الدين أقطاى كبير المماليك البرجية.. والذى كان بمثابة المنافس القوى لأيبك .. وكان أيبك يخشاه على سلطنة مصر .. ثم خلع أيبك الملك الأشرف الأيوبى وانفرد بالحكم.

وما لبث تاريخ مصر أن رأى أيبك يعتدل فى سيرة حكمه فعرفه شجاعاً، عاقلاً، كريماً، بذل الكثير من الأموال والخيول وغيرهما حتى رضى المصريون على حكمهم بسلطان مسه الرق.

وما لبثت الغيرة الشديدة أن نهشت قلب شجرة الدر عندما خطب زوجها السلطان أيبك لنفسه ابنة بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل .. فظنت أنه سئم قوتها وعلو كلمتها على كلمته فى شئون الحكم .. وأيقنت أنه أقدم على هذه الخطبة ليقوى بها سلطانه ويبعدها .. فأمرت الخدم بقتله فنفذوا أمرها فى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة (٦٥٥ هـ) وخنقوه بالحمام بعدما حكم مصر سبع سنوات .

وانزعجت مصر من ثورة المماليك المعزية بسبب قتل أستاذهم المعز.. وماهدأت ثورتهم إلا بعدما أجلسوا على بن المعز مكان أبيه على عرش مصر

سنة (٦٥٥ هـ) ولقبوه بالملك المنصور ولصغر سنه جعلوا الأمير سيف الدين قطز نائبا عنه فى شئون الحكم .. وظل المنصور على مصر سنتين وسبعة أشهر حتى وصلت الأخبار إلى مصر بأن (هولاكو طاغية التتار) أسقط الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد واستولى على بلاد الشام .. وإنه لابد قادم إلى مصر حيث كان حلم التتار (مملكة تمتد من بلاد ما وراء النهر إلى مصر) واجتمع أمراء المماليك وتشاوروا فيما بينهم فى حضرة السلطان على بن أيبك .. وبينما كان الجميع يفكرون بشكل جدى وطويل كان السلطان صامتاً لا ينطق لصغر سنه وعدم درايته بمثل هذه الأمور .. فأيقن الجميع أنه لا يحسن التدبير ولا سيما فى مثل هذا الوقت الخطير الذى تدق فيه أجراس الخطر معلنة عن قدوم التتار بقيادة الطاغية هولاكو.. فقرروا خلعه وتولية أمير قوى شجاع يتحمل عبء هذه المسئولية فوقع اختيارهم على الأمير قطز .. ولرد هذا الخطر عن مصر والذود عن بلاد المسلمين جلس قطز على عرش مصر ولقب بالملك المظفر.

(٢) الملك المظفر سيف الدين قطز

أعد التتار عدتهم بدقة وإتقان لحرب جلال الدين خوارزم شاه سلطان بلاد خوارزم وما وراء النهر ليثأروا لهزيمتهم التى أوقعها بهم من قبل .. وتحقق للتتار ما أرادوا وهزموا جلال الدين وضيعوا ملكه .. وامتدت أحقادهم إلى آل بيته فقتلوا منهم الكثير .. وسبوا الطفل الصغير الأمير محمود بن ممدود (ابن أخت السلطان جلال الدين) والذى قتلوا أباه الأمير ممدود من قبل .. وبيع الأمير الصغير بدمشق .. وصار عبداً بعدما كان أميراً .. وسمى بالعبد قطز .. وكان قطز شجاعاً عاقلاً ذكياً فساعده ذلك عى الترقى فى مماليك أيبك .. وسار أميرًا

بعدما كان عبداً . وتنقلت به الأحوال وتوالت الأحداث على مصر حتى جلس قطز على عرشها فى عام (٦٥٨هـ).

ومنذ الساعات الأولى لتوليته عرش مصر شرع فى التجهيز للحرب بطريقة جدية .. وعندما أرسل إليه هولاكو رسالة ملؤها التهديد والوعيد لم يثن ذلك من عزمه على الحرب .. بل زاده عزماً فوق عزمه .. فقد كان يحمل فى صدره عدائين للتتار .. عداء عام لما فعلوه بالإسلام والمسلمين .. وعداء خاصا لما فعلوه بأبيه وخاله وضيعوا مُلكهم.. وعقد قطز اجتماعاً مع أمراء المماليك للتشاور فى أمر الحرب .. وقرروا فرض الضرائب على المصريين للإنفاق على الجيش القوى الذين يريدون تكوينه .. واعترض الفقيه (العز بن عبد السلام) على فرض الضرائب وأشار على قطز بأخذ أموال وذهب الأمراء أولا وإذا احتاج إلى المال بعد ذلك له أن يفرض الضرائب وامتثل قطز وخرج بأمواله أولاً ثم جمع أموال الأمراء .. وأحسن قطز تجهيز الجيش وتدبير أمره .. واستطاع أن يلهب مشاعر جنوده وحثهم على الحرب وحبب إليهم الجهاد فى سبيل الله .. والذود عن الإسلام والدفاع عن الأرض والعرض .. ثم خرج للقاء التتار .. وفى رمضان سنة ٦٥٨ هـ.. وعلى أرض فلسطين وبالقرب من بلدة تسمى عين جالوت .. إلتقى الجيشان .. وكادت قلوب المصريين أن تتوقف من الذعر عندما اصطفوا أمام التتار.

فكثيرا ما سمعوا عن قوتهم وكثرتهم .. وأن النصر حليفهم فى كل المعارك .. والموت نصيب كل من يلقاهم .. ودار قتال شديد وقتل من الفريقين الكثير وانهزم المسلمون فى البداية .. وقتل فرس السلطان قطز .. وعرض عليه أحد الأمراء فرسه فرفض .. وألقى بخوذته على الأرض ورفع صوته يصرخ

(وا إسلاماه) واندفع بشجاعة منقطعة النظير نحو صفوف التتار وعندما رأى الأمراء والمصريون ذلك فعلوا فعله فحملوا على التتار حملة شديدة وعندما رأى (كُتبغا) قائد جيوش التتار ذلك من قطز فعل فعله ليقتدى به جنوده .. فاشتد القتال بطريقة لم يعرفها التاريخ ولم تشهد ساحات الحروب مثلها .. وكان النصر من نصيب قطز .. والأسر من نصيب كُتبغا الذى أمر قطز بقتله بعد ذلك .. وتتبع المصرون بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى فلول التتار الهارية وأكثروا فيهم القتل والأسر.. ثم دخل المظفر قطز دمشق ومكث بها حتى أصلح أمور الشام كله .. وأحسن إلي الناس هناك كما كان يفعل السلطان صلاح الدين الأيوبى .. ثم اتخذ طريق العودة إلى مصر ليحتفل بالنصر على أرضها.

وقيل أن الأمير بيبرس البندقدارى كان يحب المُلك والسلطان فطلب من السلطان قطز توليته على حلب .. ولكن السلطان قطز لم يكن محباً للمُلك والسلطان وما قبل سلطنة مصر إلا لينتقم من التتار وعندما أنعم الله عليه وحقق له أمنيته فلا حاجة له بالمُلك والسلطان .. ولأنه كان زاهداً عابداً فقد عقد عزمه على اعتزال السلطنة.. ولأن بيبرس كان قويا .. ذكياً ، طموحاً، فقد اختاره قطز للسلطنة.. لذا رفض توليته حلب قائلا له :

- يابيبرس إن مكانك هناك بالقلعة فى مصر.

فأوغر بعض الأمراء صدر بيبرس على قطز مفسرين له قوله بأنه سوف يقتله هناك بالقلعة كما قُتل الأمير (أقطاى) أستاذ بيبرس .. فقرر بيبرس قتل قطز بالاتفاق مع بعض الأمراء .. وعندما وصل الجيش إلى القصير فى مصر .. لمح السلطان قطز أرنباً بريًا فتتبعه ليصاده كما كان يفعل فى صغره على عادة

الأمراء وأبناء الأمراء .. فتتبعه بيبرس وبعض الأمراء وتقدم منه بيبرس يشفع لإنسان فى حاجة عند السلطان .. وعلى عادة الكرام وافق قطز على الفور فانحنى بيبرس يقبل يده اليمنى وأمسك عليها بشدة.. بينما جعل باقى الأمراء يضربونه بالسيوف .. وبينما سقط جسده غارقًا فى دمه الذكى، صعدت روحه إلى بارئها.

ولما كان بيبرس قوياً ذا بطش ويتبعه الكثير من الأمراء والجنود لم يجرؤ أحد على محاسبته برغم الحزن الشديد الذى خامر صدور جميع المصريين والمماليك واستقر بها طويلاً.

ورحم الله السلطان المظفر قطز الذى لم يهنأ بالعرش.

ولم يجلس عليه يوماً جلوس الآمن المستريح .. وفى أوج انتصاره وشدة فرحته قُتل مظلوماً.

رحم الله السلطان المظفر قطز فقد كان حقاً مظفراً وقهر التتار.. وكفاه عزًا وخلودًا أن يلقب بقاهر التتار الذين قهروا كل الملوك وأفزعوا جميع الشعوب .. ولو قدر له الله البقاء لكان كما كان السلطان صلاح الدين الأيوبى.. ولكنه سبحانه وتعالى يعلم أن المظفر قطز حقق هدفه وأتم رسالته فى عام إلا يوم هذه المدة القصيرة التى جلس فيها على عرش مصر.

وعلى جثمان قطز الطاهر صعد بيبرس إلى عرش مصر.

والآن نتعرض للسلطان بيبرس لأن دولة المماليك فى عهده كانت أقوى الدول وترك آثاراً واضحة فى تاريخ مصر.

(٣) السلطان الظاهر بيبرس

هو : بيبرس بن عبد الله البندقداري التركي .. رابع سلاطين المماليك في مصر .. وسمي بالبندقداري لأنه كان مملوكاً في أول أمره للأميرعلاء الدين أيدكين البندقداري.. وقد عاش علاء الدين هذا حتى صار من أمراء بيبرس عندما تسلطن على مصر وقد ولاه بيبرس على حلب .. ومعنى بيبرس باللغة التركية (أمير فهد) .. وعندما جلس على عرش مصر تلقب بالظاهر بيبرس.

وللسلطان بيبرس أهمية خاصة بين سلاطين العصر المملوكي.

منها : أنه أول من أقام الخلافة العباسية في مصر .. وربما أقدم بيبرس على ذلك ليكسب تأييد المسلمين .. وليُكسب حكمه الشرعية الإسلامية (وجدير بالذكر أن الخلافة العباسية منذ انتقلت إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس وطوال العصر المملوكي ظلت صورية وبالاسم فقط .. ولم يكن للخيفة أي سلطة أو صلاحية فقد كان يسلم جميع الصلاحيات والسلطات إلى السلطان المملوكي .. وماذاك إلا لقدرة السلطان على خلع الخليفة وتولية غيره .. كما حدث بين السلطان برقوق والخليفة المتوكل على الله عندما خلعه السلطان وبايع الخليفة الواثق بالله .. إلا إنها كانت ضرورية الوجود من وجهة نظر سلاطين المماليك لإضفاء الشرعية الإسلامية على حكمهم وأول الخلفاء الذين بويعوا بالخلافة في مصر الخليفة أحمد بن محمد الظاهر الملقب بالمستنصر العباسي وقد بايعه الظاهر بيبرس عندما تأكد من صحة نسبه إلى العباسيين .. وبويع بالخلافة في مصر طوال العصر المملوكي ثمانية عشر خليفة عباسياً .. كان آخرهم الخليفة محمد بن يعقوب الملقب بالمتوكل على الله (الثالث).

وهو الذى تنازل للسلطان العثمانى سليم الأول عندما فتح مصر وأسقط دولة المماليك.

وترجع أهمية الظاهر بيبرس أيضًا إلى أنه كون جيشاً كبيراً. وأسطولا قوياً وسع بهما دولته وجعل منها أمبراطورية مملوكية قوية ذات بأس ويخشاها التتار والرومان والصليبيون.

فقد كان كثير الغزو كثير الانتصارات .. وقد عمل ضد الصليبيين والتتار فى وقت واحد لتعاونهما ضده .. وقد حقق عليهما انتصارات باهرة .. فأما بالنسبة للصليبيين فقد أغار على غالبية بلادهم فى الشام مثل عكا وصور وطرابلس وفتح العديد منها مثل صفد وأنطاكية وضمها إلى دولته .. كما طلب أمراء بعض بلادهم الأخرى الأمان منه وأرضوه بالكثير من الأموال ودفع الجزية مثل صهيون.

وأما بالنسبة للتتار فقد وضع حداً لصلفهم وغرورهم وأحلامهم فى التوسع وقد انتصر عليهم أكثر من مرة مثل واقعة (شط الفرات) التى انتصر فيها بيبرس على التتار وأسر وقتل منهم الكثير.

ومثل واقعة نهر جيحان .. تلك الواقعة الهائلة التى انتصر فيها التتار فى البداية فلما رأى الظاهر بيبرس ذلك انطلق يحارب كالأسد الضارى ويقتحم الأهوال بنفسه و يشجع أصحابه ويطيب لهم الموت ويحبب إليهم الجهاد حتى هزم الله التتار أقبح هزيمة وفروا يعتصمون بالجبال فتتبعهم المسلمون ونزل التتار عن خيولهم وقاتلوا قتال الموت ولكن بشجاعة بيبرس وصبر الجيش المصرى تم الانتصار الهائل على التتار بعدما قتل وأسر منهم الكثير .. ولأن

التتار كانوا يعتمدون على الهجوم المفاجيء فقد بنى بيبرس المنائر الاستطلاعية التى ترشد عن قدومهم.

كما انتصر على النوبيين وأسر ملكهم.

وكان اسم الظاهر بيبرس له وقع شديد فى نفوس كل هؤلاء الأعداء وجميع هذه الدول.

وكان التجار يتعرضون للنهب من اللصوص وقطاع الطرق .. وفى أيام الظاهر بيبرس أمن التجار وانطلقوا فى أعمالهم .. فكان التاجر إذا أظهر ورقة عليها خاتم الظاهر بيبرس تركه اللصوص وتركوا له أمواله .. وربما حملوه عزيزاً إلى البلدة التى يقصدها للتجارة.

وقد عرفته مصر مصلحاً لأمورها، معيناً للمظلوم، ضارباً على يد الظالم، مهتما بشئونها الاقتصادية ولا سيما الزراعة حيث انشأ الكثير من الجسور والقناطر كما حفر الترع.. وقد اهتم أيضاً بشئون القضاء وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة قضاة مستقلين به.

وعرفته مصر مهتماً بشئونها التعليمية فانشأ المدارس وعين بها المدرسين كما أنشأ بها المكتبات وكان يقرب إليه أهل العلم ولا سيما علماء التاريخ ويقول (سماع التاريخ أعظم من التجارب)، وبنى مكتباً لتعليم الأيتام وأجرى عليهم أرزاقهم.

وكان يتصدق فى كل سنة بعشرة آلاف أردب قمح على الفقراء والمساكين وحدد رواتب خاصة لأسر الجنود الذين استشهدوا فى الحروب.. كما حدد ميزانية خاصة لتكفين الأموات الغرباء بالقاهرة ومصر كلها.

وكان الملك الظاهر يتابع أحوال الأمراء وأعيان الدولة حتى لا يخفى عليه من أحوالهم شيء.

وفى عام ٦٦٢ هـ حدث الغلاء بمصر حتى وصل ثمن أردب القمح إلى مائة درهمًا والشعير ٧٠ درهماً واستطاع الظاهر بيبرس التغلب على الأمر بتفريق الفقراء على الأغنياء والأمراء وألزمهم بإطعامهم كما وزع القمح فى الأماكن البعيدة.

وجعل للفقراء كل يوم مائة أردب قمح مخبوزة تفرق عليهم بجامع ابن طولون ودام على ذلك إلى أن أزال الله هذه الشدة.

وجدير بالذكر أن الظاهر بيبرس كان إدارياً ناجحاً وقد استحدث الكثير من الوظائف.

وفى عام (٦٧٥هـ) مات الظاهر بيبرس بعدما حكم مصر سبعة عشر عاماً وكان وقتها بدمشق ودفن فى داريا (قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة) وبايع الأمراء ولى عهده ابنه محمد الملقب بالملك السعيد .. ولم تطل سلطنة الملك السعيد على مصر .. فقد جرت بينه وبين كبار الأمراء مشاكل وأمور حتى خلعه الأمراء بعدما حكم مصر عامين وأجلسوا مكانه أخاه سلامش الملقب بالملك العادل .. وبعد شهرين خلع المنصور قلاوون العادل سلامش بالاتفاق مع بعض الأمراء وأعلن سلطانه على مصر.. فنادى الأمير شمس الدين الأشقر أمير دمشق لنفسه بالسلطنة على دولة المماليك اندلعت الحرب بين قلاوون والأشقر وانتهز التتار فرصة الخلاف بينهما وتقدموا بجيوشهم لغزو دولة المماليك .. ولكن المماليك استطاعوا توحيد الكلمة والتقوا مع التتار بالقرب من نهر العاصى وعظم

القتال بينهما وثبت كل جيش للآخر، وانهزم المسلمون فى البداية ولكن عندما رأى المماليك ثبات السلطان قلاوون ومعه جمع قليل حملوا على التتار حملة شديدة حتى تم النصر العظيم للمماليك.

* وعرفت مصر قلاوون شجاعاً عاقلاً كريماً وأحبه الناس حباً شديداً.

وحكم بعد المنصور قلاوون ابنه الأشرف خليل أربع سنوات ثم قُتل فأجلس الأمراء أخاه محمد بن قلاوون على عرش مصر .. وسوف نتعرض له لأنه جلس على عرض مصر ثلاث مرات وكان محبوباً من المصريين وكثرت أعماله النافعة لمصر.

(٤) الناصر محمد بن قلاوون

هو: محمد بن قلاوون الألفى .. التاسع من سلاطين المماليك على مصر .. وتولى عرشها ثلاث مرات .. المرة الأولى فى سنة ٦٩٣ هـ ثم خلع بعد سنة.

وأعيد فى سنة ٦٩٨ هـ .. واعتزل السلطنة بعد عشر سنوات ثم عاد إلى عرش مصر للمرة الثالثة فى سنة ٧١٠هـ وظل عليه حتى توفى فى سنة ٧٤١هـ.

وسعد المصريون كثيراً بعودته فى المرة الثالثة وهو أطول سلاطين المماليك مدة فى السلطنة حيث حكم مصر ما يقرب من خمس وأربعين سنة .. وقيل أنه لم يكن أطول الملوك زمانا فحسب وإنما كان أعظمهم مهابة وأغزرهم عقلاً وأحسنهم سياسة وأجودهم تدبيراً وأقواهم بطشاً وشجاعة.

وكان خليقاً بالملك والسيادة .. فهو سلطان وابن سلطان وأخو سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه.

ومن أعظم أعمال هذا السلطان خروجه في عام (٧٠٢هـ) على رأس الجيش مع الخليفة المستكفى بالله لقتال التتار والتقى مع التتار بموضع يسمى شقحب (موضع قريب من دمشق) واستطاع أن يهزمهم هزيمة قاسية.

وكثر حب المصريين لهذا السلطان لكثرة أعماله النافعة بها فقد حسن وسائل الرى وأقام الجسور واهتم بالزراعة واستصلاح الأراضى البور فزادت رقعة الأرض الزراعية ثم توسع نشاطه فى تحسين أمر الزراعة فاكثر من إنشاء الترع وحفر القنوات وإقامة الجسور فى كل أراضى مصر قبليها وبحريها وكان يخرج للظر فى شئون الترع والجسور والقناطر ويتفقدها بنفسه .. حتى تحسن أمر الزراعة بمصر وزاد خراج الأرض زيادة هائلة ورخص القمح .. وألغى الناصر الضرائب على كثير من السلع فرخصت الأسعار.. كما أنقص إقطاعات الأمراء فى أراضيهم الزراعية فعم الخير وانتعشت أحوال الفقراء كما اهتم بعمارة مصر .. فعمر فى أيامه أكثر من ثلاثين جامعاً.. وأنشأ المدارس والدور والحمامات والإصطبلات وكان إدارياً ناجحاً حيث عمل السجلات التى تدون بها دخول مصر ومصروفاتها وباشرها بنفسه فتوفرت من ذلك الأموال الكثيرة .. وحافظ على أمن دولة المماليك عامة وأمن مصر خاصة ولذلك خرج إلى عرب الصعيد وأكثر فيهم القتل والأسر عندما كثر قطعهم للطرق وإفزاعهم للناس وامتناعهم عن دفع الخراج.

وكان عادلاً متواضعا يجلس للقضاء ولم يتول فى أيامه قاض برشوة، وقيل إن عمارة مصر زادت فى أيامه بمقدار النصف لأنه كان يشجع الأمراء على ذلك .. واعتنى بمزارع المواشى والأغنام والطيور واقتدى به الأمراء فى ذلك أيضاً فأدى ذك إلى رخص الأسعار وعموم الخيرات كما اعتنى بزيادة مساحات

الأراضى الزراعية الخاصة بقصب السكر والسمسم فكان لذلك الأثر الكبير فى تقدم صناعة السكر والزيوت.

وفى ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ مات الناصر محمد بن قلاوون وعمره نحو ٥٧ سنة تاركاً من الأولاد الذكور أربعة عشر ولدا وتاركاً عرش مصر لابنه المنصور أبى بكر.

وتولى بعده ثمانية من أبنائه وكانت مددهم قصيرة وتنتهى بالقتل أو الخلع.. فبعد موت الناصر محمد بن قلاوون تولى سلاطين ضعاف فدبت الفوضى فى الجيش المملوكى ولأن الأمراء كانوا يتطلعون دائماً للوصول إلى عرش مصر .. فقد جعلوا يزيدون من أعداد مماليكهم ليتقووا بهم فوصل عدد مماليك بعضهم إلى ثلاث آلاف مملوك (بالرغم من أن النظام المملوكى كان ينص على عدم تجاوز عدد المماليك عن المائة لأعلى رتبة من الأمراء) ولذا قاست مصر من نزاعهم على السلطنة ومن كثرة خلع وقتل السلاطين .. وليس أدل على ذلك من أنه قد تولى من أبناء الناصر محمد بن قلاوون ثمانية سلاطين كما تولى السلطنة أربعة من أحفاده كان أطولهم مدة حفيده الأشرف شعبان وكانت مدته ١٤ سنة (٧٦٤هـ ـ ٧٧٨هـ) والذى قتل وتولى بعده ابنه المنصور على خمس سنوات (٧٧٨ ـ ٧٨٣هـ) ثم أخوه الصالح (حاجى) والذى تولى أقل من سنتين وكان آخر المماليك البحرية .. فعندما تولى السلطان برقوق الذى ينتمى إلى طائفة المماليك البرجية إنتهى أمر مصر مع المماليك البحرية وبدأت مشوارها مع المماليك البرجية والذين استقلوا بسلطنة مصر مدة تزيد عن مائة وثلاثين عاما (٧٩٢ـ٩٢٣هـ) وجلس على عرش مصر فى هذه الفترة أكثر من سبعة وعشرين سلطاناً وفى أيامهم كثرت الفتن والمشاكل حتى أن خمسة عشرة

منهم كانت مدد حكمهم أقل من سنة .. بل إن أحدهم ويدعى (خير بك) كانت مدة حكمه ليلة واحدة حيث تولى فى المساء وخلع فى الصباح وكان أطولهم فترة الأشرف قايتباى .. الذي حكم ٢٩ سنة (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ).

وفى عهد قايتباى عرفت مصر الاستقرار فقد أخذ الأمور بالحزم فأطاعه الجميع وعندما استطاع توفير الاستقرار لمصر اتجه إلى تعميرها وإنشاء الجسور والمدارس والطرق والمساجد كما نجح فى شئونه الخارجية وأرسل بعض حملاته إلى خارج البلاد .. وفى عام ٨٧٦ هـ أرسل حملة إلى بلاد التركمان استولت على بعض المدن وأسرت (شاه سوار) ملك إمارة ذو القادر التركمانية وتم شنقه على باب زويلة وفى عام (٩٠١هـ) مات الأشرف قايتباى وتولى بعده ابنه الناصر محمد الذي خلع بعد عام (٩٠١-٩٠٢هـ) على عادة العصر المملوكى .. فقد تلاحظ فى هذا العصر أن السلطان كان يعهد لابنه بالسلطنة ويعين له وصياً أو نائباً عنه ليدبر له شئون الحكم .. ولكن ما يلبث هذا الوصى أن يخلع ولى العهد ويستبد بالحكم لنفسه وقد تكررت عملية الخلع أكثر من عشرة مرات فى دولة المماليك .. وقد أضعف ذلك أمر المماليك البرجية مما أدى إلى هزيمة الجيش المملوكى هزيمة قاسية أمام تيمور لنك ملك التتار في عام (٨٠٣ هـ) فى أيام سلطنة الناصر فرج بن برقوق وكذلك أغار ملوك قبرص على الاسكندرية عام ٨٠٦ وعلى طرابلس عام ٨٠٧ هـ.

وجدير بالذكر أن الأشرف برسباى الذي حكم مصر ١٦ سنة (٨٢٥ ـ ٨٤١هـ) ثار من ملوك قبرص رداً على غاراتهم على الاسكندرية ودمياط فقد أرسل ثلاث حملات إلى جزيرة قبرص انتصرت عليهم .. ولا سيما الحملة الثالثة التى التقت مع الصليبيين بقيادة ملك قبرص (جانوس) وهزمه المصريون

وأسروه وعادوا به إلى القاهرة ولم يتركوه إلا بعدما فدى نفسه وقرر تبعية قبرص لدولة المماليك وبهذا انتهى التهديد الصليبى تماماً لدولة المماليك وقتذاك.. وجدير بالذكر أيضاً أنه رغم الحالة الاقتصادية المتأخرة فى أيام برسباى فقد كان عهده يتسم بالاستقرار والغزو والقوة (ومات برسباى فى عام ٨٤١هـ).

* وبعد فترة فتن وقلاقل وفى عام ٩٠٦ هـ جلس على عرش مصر السلطان قانصوه الغورى آخر سلاطين المماليك على مصر.. وسوف نتعرف كيف سقطت دولة المماليك.

(٥) قانصوه الغورى

لما تولى العادل طومان باى الذى جلس على عرش مصر عدة أشهر سنة (٩٠٦هـ) وكثر ظلمه نفرت منه الجنود وتآمروا عليه فولى هاربا .. ولما عانت مصر من كثرة الفتن بسبب كثرة خلع السلاطين وقتلهم وعانى منها أمراء المماليك من ذلك .. أقدموا على تولية قانصوه الغورى لخبرته وكبر سنه (فقد كان فى نحو الستين من عمره) فرفض الغورى خوفاً من القتل .. وعندما أصر الأمراء على توليته اشترط عليهم أن لا يقتلوه ويكونوا عونا له وتولى الغورى سلطنة مصر نحو ١٧ سنة (٩٠٦-٩٢٢ هـ).

فعين الأمراء الذين يثق بهم وبنى الحصون فى الاسكندرية ورشيد واهتم بأمور مصر وحفر الترع وأكثر من المماليك واعتنى بهم.

وفى عام ٩١٤ هـ أغار الاستباريون على مصر فاستطاع الغورى ردهم ودحرهم كما أغار البرتغاليون والصليبيون على ساحل بلاد العرب حتى وصلوا إلى البحر الأحمر فأرسل الغورى الأسطول المصرى الذى استطاع هزيمة

الصليبيين والفوز بغنائم كثيرة على شواطئ الهند وقبل هذه الأيام كانت العلاقة بين المماليك والعثمانيين قائمة على الود وكان الصليبيون والصفويون ألد أعداء العثمانيين والمماليك وقد عزم السلطان سليم العثمانى على قتال الصفويين الشيعة، والصليبيين الذين يريدون دخول البحر الأحمر وغزو المدينة المنورة ونبش قبر الرسول ﷺ كى يتسلموا القدس .. وكان المماليك يقاتلون الصليبيين البرتغاليين للدفاع عن دولتهم .. واعتقد السلطان سليم العثمانى أن قتال المماليك مع الصليبيين من أجل الدفاع عن المسلمين وبلاد الإسلام لذا فقد ظن أن المماليك سيكونون عونا له فى قتاله للصفويين والصليبيين ووقع الغورى فى خطأ جسيم عندما قرر الوقوف على الحياد فما كان من السلطان سليم إلا أن غزا إمارة "ذو القادر" التركمانية وقتل ملكها حليف المماليك وولى عليها ابن شاه سوار عدوهم وبعد أن انتصر على الصفويين فى عام ٩٢٠ هـ وتوغل فى أوروبا نفسها بدأ يستعد لقتال المماليك.

وعندما علم الغورى بتحرك العثمانيون لقتاله جهز جيشاً وقاده بنفسه وانطلق نحو الشام حتى وصل إلى مرج دابق (شمال غرب حلب) ودارت بينهما معركة شديدة انتصر فيها السلطان سليم وقتل الغورى فى المعركة وفتح العثمانيون بلاد الشام واستقبلهم الشاميون بالترحاب لأنهم قاتلوا الصفويين الشيعة وتوغلوا فى أوروبا ويريدون قتال الصليبيين الذين يهددون المسلمين ومقدساتهم وتقدم السلطان سليم نحو مصر .. وعلى أبواب القاهرة دارت معركة الريدانية بين السلطان سليم والسلطان طومان باى الذى تولى سلطنة مصر بعد السلطان الغورى وانتصر السلطان سليم وقُتل السلطان طومان باى ودخل السلطان العثمانى القاهرة وبايعه أهلها وتنازل له الخليفة المتوكل على الله

(الثالث) محمد بن يعقوب عن الخلافة وبقتل السلطان طومان باى .. انتهت دولة المماليك .. وبفتح السلطان العثمانى مصر .. بدأت مصر مشوارها التاريخى مع الدولة العثمانية .. وبتنازل الخليفة العباسى عن الخلافة زالت الخلافة العباسية، وبدأ العالم الإسلامى مشواره مع الخلافة العثمانية وانتقلت أنظار المسلمين من القاهرة إلى استانبول التى أصبحت مركز الخلافة وعاصمة المسلمين.

ثالثا: أهم ملامح مصر
فى العصر المملوكى

(١) الناحية الاقتصادية:

أهتم المماليك بالنواحى الاقتصادية وانصب اهتمامهم الأكبر على الزراعة فحسنوا وسائل الرى وحفروا الخلجان مثل خليج الاسكندرية والبحور مثل بحر أشموم والترع مثل ترعة الصلاح وقد حفرهم الظاهر بيبرس كما جعل الناصر محمد بن قلاوون ميزانية خاصة لحفر الترع وإقامة الجسور عليها وإنشاء القناطر فى كل نواحى مصر

وقام بإصلاح الأراضى البور مما ساعد على زيادة الأرض المزروعة وقد ساعد اهتمام المماليك بالزراعة على كثرة الخيرات وانتعاش أحوال الفقراء .. ونظرا لتقدم الزراعة حدث تقدم فى الصناعة مثل صناعة السكر والزيوت والأقمشة وكذلك حدث التقدم التجارى نظراً لاهتمام المماليك بصناعة المراكب التجارية فانتعشت التجارة مع بلاد الهند والشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر.. فكان التجار يمتلكون أسطولاً تجارياً ضخماً يقوم برحلات تجارية

منتظمة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى ويأتى مصر بكل ما تحتاجه من خارجها مثل الأخشاب وغيرها وقد اهتم المماليك بتوفير الأمن فى موانى البحر الأحمر وكانت مصر فى العصر المملوكى محور التجارة العالمية وكانت التجارة تدر على البلاد رصيداً كبيراً من الأموال، وقد نظم التجار أنفسهم فى نقابة احتكرت تجارة البهار والفلفل والقرنفل غيرهم وأقاموا على هذه النقابة رئيساً يخضع له جميع التجار ولا يعين هذا الرئيس إلا بأمر من السلطان المملوكى.

(٢) الناحية العلمية :

اهتم المماليك بإنشاء المدارس فأنشأوا منها عدداً يصعب حصره وعلي سبيل المثال :

* المدرسة المعزية التى أنشأها السلطان المعز عز الدين أيبك.
* المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر بيبرس
* المدرسة الخضراء التى أنشأها الظاهر بيبرس.
* المدرسة الناصرية التى أنشأها الناصر محمد بن قلاوون.
* المدرسة المنصورية التى أنشأها المنصور قلاوون.
* مدرسة السلطان برقوق.
* المدرسة الأشرفية التى أنشأها السلطان الأشرف شعبان.
* مدرسة السلطان قايتباى.

وقد وضع المماليك نظاماً خاصا للتدريس والتعليم لتلك المدارس.

كما اهتم بعضهم بإنشاء المكتبات مثل خزانة الكتب التى أنشأها الظاهر بيبرس .. واهتم بعضهم بالعلماء وقربهم إليه.

(٣) العمارة :

اهتم غالبية سلاطين المماليك بعمارة مصر وبناء الدور والقصور ولا سيما الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون الذى قيل عنه أن عمارة مصر زادت فى أيامه بمقدار النصف .. وقد أكثر المماليك من بناء الجوامع مثل :

* جامع الظاهر ، وجامع المنشية وبناهما الظاهر بيبرس، أما الناصر محمد بن قلاوون فقد قيل أنه عمر ما يقرب من ثلاثين جامع.
* مسجد الملك الأشرف قايتباى.
* البيمارستان (مستشفى) الذى أنشاه المنصور قلاوون.
* المدارس وثكنات الجند والبساتين.

(٤) القضاء :

فى عهد الظاهر بيبرس ولى فى كل مذهب من المذاهب الأربعة (الملكى - الشافعى - الحنفى - الحنبلى) قاضياً مستقلا بذاته لما كثر توقف قاضى القضاة فى تنفيذ الأحكام التى لا توافق مذهبه وكثرت الشكاوى منه بسبب ذلك.. كما اهتم الناصر محمد بن قلاوون بالقضاء وكان ينظر بنفسه فى بعض القضايا.. وإذا اتسمت عهود بعض المماليك بالعدل مثل قطز وبيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد وبرسباى وقايتباى فقد اتسم عصر بعضهم بالظلم مثل المنصور محمد بن حاجى والعادل طومان باى.

(٥) الجيش :

امتلك غالبية سلاطين المماليك جيشاً قوياً مثل الظاهر بيبرس الذى كون من مصر وحدها جيشاً قوامه ٣٠ ألف مقاتل إذا أمرهم بالخروج لحرب لم يجرؤ أحد على المبيت فى بيته.. وكان جيش الناصر محمد ابن قلاوون فى وقعة شقحب قوامه ٥٠ ألف مقاتل وتتضح قوة هذا الجيش وحسن تدريبه من انتصاره فى هذه المعركة على جيش التتار والذى كان قوامه ١٠٠ ألف مقاتل. وعلى أية حال فإن جيش المماليك كان يتسم بالقوة فى فترات استقرار الحكم وذلك لحسن تدريبه على القتال واستعمال الأسلحة ولأن الوظيفة الرئيسية للمماليك كانت الجندية وخوض الحروب، وقد اهتم غالبية سلاطين المماليك برواتب الجنود وبناء الثكنات لهم مثل الطباق (الأماكن التى كان يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان) وكانت بمثابة مدارس عسكرية لهم.

(٦) الأسطول :

اهتم المماليك بدار صناعة السفن الحربية فكان السلطان يطلب حاجته منها ليظل الأسطول محتفظا بقوته مثلما حدث عندما حطمت الريح ما يقرب من عشر سفن حربية أثناء غزو السلطان بيبرس لسواحل عكا.. فأمر بإنشاء عشرين سفينة بدلا منها .. وكانت دار الصناعة تنشأ مراكب الغربان .. وهى مراكب حربية شديدة البأس طويلة خفيفة الحركة وسميت بالغربان لسواد لونها ولأن مقدم هيكلها كان على شكل رأس الغراب .. كما أنشأت دار الصناعية المصرية مراكب (الطرائد) وسميت بذلك لصغر حجمها وسرعة جريها وكانت معدة لحمل الخيول للحروب، وتتضح قوة الأسطول المملوكى من كثرة الغزوات

البحرية فى العصر المملوكى .. وكان للأسطول أميراً خاصاً يرأس الجنود الخاصة بالأسطول.

(٧) النقود :

حرص كل سلطان من المماليك على سك العملة باسمه ولا سيما السلاطين الذين استقرت لهم أمور الحكم بدءاً بشجرة الدر ونهاية بقانصوه الغورى.

وكان هناك دول أخرى فى العصر العباسى مثل الدولة الصفوية الشيعية والدولة الفزنوية والدولة البويهية والدولة لحمدانية ثم كانت الدولة العثمانية التى ورثت الخلافة من الدولة العباسية ، واستمرت الخلافة العثمانية حتى أسقطها رئيس تركيا العلمانى كمال أتاتورك فى القرن العشرين ، وخلف الدولة العثمانية فى مصر محمد على وأولاده فى العصر الحديث حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو .

أسماء الخلفاء العباسيين

١ – أبو العباس العباس . ٢ – أبو جعفر المنصور .

٣ – المهدى . ٤ – الهادى .

٥ – الرشيد . ٦ – الأمين .

٧ – المأمون . ٨ – المعتصم .

٩ – الواثق . ١٠ – المتوكل .

١١ – المنتصر . ١٢ – المستعين .

١٣ - المعتز
١٤ - المهتدى .
١٥ - المعتمد
١٦ - المعتضد .
١٧ - المكتفى
١٨ - المقتدر .
١٩ - القاهر
٢٠ - الراضى .
٢١ - المقتفى .
٢٢ - المستكفى .
٢٣ - المطيع .
٢٤ - الطائع .
٢٥ - القادر .
٢٦ - القائم .
٢٧ - المقتدى بأمر الله .
٢٨ - المستظهر بالله .
٢٩ - المسترشد بالله .
٣٠ - الراشد بالله .
٣١ - المقتفى لأمر الله .
٣٢ - المستنجد بالله .
٣٣ - المستضئ بالله .
٣٤ - الناصر لدين الله .
٣٥ - الظاهر بأمر الله .
٣٦ - المستنصر بالله .
٣٧ - المستعصم .

الخلفاء العباسيون فى مصر

١ - المستنصر بالله أحمد بن الظاهر .

٢ - الحاكم بأمر الله أحمد بن الحسن بن أبى بكر .

٣ - المستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله .

٤ - الواثق بالله إبراهيم بن المستمسك بالله .

٥ - الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله سليمان .

٦ - المعتضد بالله أبو بكر بن المسكتفى بالله .

٧ - المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله .

٨ - الواثق بالله عمر بن إبراهيم بن المستمسك.

٩ - المستعصم بالله زكريا من إبراهيم بن المستمسك.

١٠ - المستعين بالله العباس بن المتوكل .

١١ - المعتضد بالله داود بن المتوكل .

١٢ - المستكفى بالله سليمان بن المتوكل .

١٣ - القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل .

١٤ - المستنجد بالله يوسف بن المتوكل

١٥ - المتوكل على الله عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله .

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس